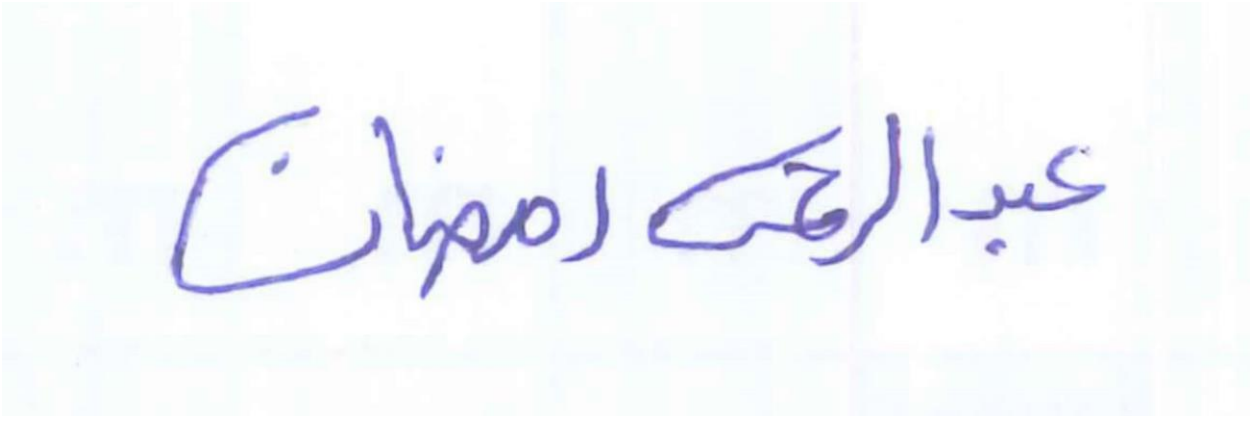

كوب القهوة الساخن في اليد اليمنى متصاعداً منه بعضاً من البخار وباليد اليسرى حفنة من الأوراق المهمة والتي تحمل في طياتها عديد القضايا والموضوعات ذات الأهمية القصوى، بالجوار يقفُ شابٌ دخل هذا

المبنى الشاهق للمرة الأولى، بالكاد يستطيع الإمساك بهذا الكوب الساخن، عرقٌ يتصبب في الجلسة الأولى لهذا الشاب اليافع، كنت أنا هذا العضو الجديد بمجموعة " الغربان " التي تعمل خلف الظل، القوى المحركة لكل ما يحدثُ بهذا البلد، لا يعرفون للمزاح ولا التهاون طريقاً، مركز مناقشة القرارات قبل أن تخرج للنور، مجموعة لا يتوقف طموحها قط، البداية كانت منذ ما يقارب الخمسة عشر عاماً وليس للنهاية معنى في قاموسهم المتعارف عليه.

كنت مجرد مستمع ليس أكثر بالاجتماع الأول في حضرتهم، النظام السمة السائدة داخل هذه الغرفة الكبيرة، كل ملف يأخذُ وقتاً محدداً من الحديث عنه، وبنهاية الوقت تطرحُ المقترحات والحلول وتكون الغلبة للحل الأقوى والأمثل، هل أنت سعيدُ معنا خيرت ؟ نعم سيد نزار أنا سعيد لتواجدي معكم للمرة الأولى وأتمنى أن أثبت كفاءة للبقاء هنا أطول فترة ممكنة، كانت تلك أولى كلماتي في هذا الاجتماع، حينها كنتُ أدون بعض الملاحظات والأفكار عساها تجدي نفعاً في قادم المواعيد.

حان وقت الخروج من باب هذه الغرفة وبدأ القلق ينسل بداخلي من هولِ ما سمعته داخلها، للحظةٍ شعرت أن أية حلول أو مقترحات مقدمة إليهم لن تكون كافية وبدأت التفكير بأن أيامي ستكون معدودة داخل هذا المبني الشاهق، حاولتُ جاهداً طرد تلك الأفكار التي لا أساس لها من الصحة على الأقل حالياً، بدلاً من إطلاق نوبات البكاء عديمة الفائدة بدأت أفكرُ في مواكبةِ ما يدور هنا، أعلم أن هذا لن يكون بالأمر اليسير ولكن هذا أفضل بكثير من الشكوى، أثناء طريقي للعودة لم ينقطع تفكيري قط ولم أشعر بنفسي سوى عند لحظة نداء السائق بأني قد وصلتُ أخيراً إلي المنزل.

لم يكن من الجيد إضاعة الكثير من الوقت في التفكير، بمجرد الوصول للمنزل أغلقت باب غرفتي وجلست على مكتبي وأحضرت حفنة من الأوراق مشابهة لتلك التي كانت بأيديهم، بدأت أضعُ تصورات لقادم الاجتماعاتِ، كان لزاماً قتل ذلك العضو المسمى القلب حتى يتسنى ليَ مجاراة الأعضاء، لا مكان للعاطفة ولا مكان للإنسانية بينهم، تلك هي القاعدة الأولى للغربان، وبمجرد شعورهم بأنك تمتلك ولو قدراً طفيفاً منها ستلقى خارج هذا المبنى بلا عودة.

صباح اليوم التالي كان الكثير من الفضول يراودني حول نزار وكيف وصل إلى اعتلاء هرم المجموعة ؟ لم أكن أعرف عنه سوى بعض المعلومات، شخص حاد الطبع وجاد في عملهِ علاوة على ذلك يتمتع بدهاء كبير، تركت السؤال جانباً ومضيت قدماً في محاولة تفهم قواعد اللعبة، الإلهاء كان يشكلُ القاعدة الأولى والأهم لتلك اللعبة، فحتماً ستثيرُ بعض القرارات المتخذة الكثير من السخط داخل أروقة البيوت، ستشعلُ فتيل الغضب عند أحزاب المعارضة وحينها يتحول الأمر إلى صداع نحنُ في غنى عنه.

في الجهة المقابلة يقفُ شابُ يدعى " يوسف " على مدخل الجامعة وبيده بعض الأوراق التي تحث الطلاب على الانضمام للحزب الجديد، يعلم تمام العلم هذا الشاب ناصع البياض بأن الإقبال لن يكون بالقدر المأمول ولكن لا مانع من بعض المحاولات هنا وهناك، يلهث ورائهم يميناً ويساراً عساه يجذب الانتباه ولكن دون جدوى، فقط خمسُ وعشرون طالباً من اهتموا بشأن هذا الحزب، في الحقيقة لم يكن عدد المنضمين يمثلُ هاجساً كبيراً بالنسبة له بل كان يطمحُ لهدف أسمى من ذلك، فقط يريد رؤية الأمل في عيون من حملت أيديهم تلك الأوراق، يمقتُ نظرة اليأس واللامبالاة ولكن كانت هي النظرة السائدة رغماً عن أنفه.

جاء موعدُ المؤتمر الأول للحزب وكان " يوسف " يقف منتظراً الأعضاء ليرحبَ بهم، لكن المفاجأة كانت تمكنُ بظهور عضو جديد سمع بشأن الحزب من حديث الطلاب، فتاةٌ جميلة ذات شعر طويل وصاحبة عيون شديدة السوادِ، " نضال " استمعت لبعض الأحاديث الجانبية وقررت الحضور لمعرفة ما يدور بهذا المقر، شعرت أنها وجدت ضالتها أخيراً فهي ناشطة حقوقية تنادي بفساد المنظومة، كان ميلاد الحزب نقطة التقاء بينهم، منبرُ من خلاله تستطيع البوح بكامل الأسرار في إطار قانوني كامل دون وجود أية مناوشات تذكر.

مر المؤتمر سريعاً وأحس " يوسف " أن أمر الحزب لن ينتهي سريعاً كالبقية، يرى أن الإيمان الطريق الوحيد للبقاء أطول فترة ممكنة على الساحة، لم يكترث بشأن العدد في البداية بعكس " نضال " التي كانت تخالفه الرأي و ترى أن العدد هو مفتاح بقاء الحزب وتوسعه في شتى أنحاء البلاد، ظهر هذا جلياً حين تحدث كلُ منهم وألقى بكلمته، ما لبث أن انتهى المؤتمر حتى اتجه مسرعاً نحوها مبادراً بسؤالها هل ستكون هذه المرة الأخيرة لكِ ؟ أجابت بابتسامة عريضة لا لن تكون المرة الأخيرة، اعتلت البسمة وجههُ ولم يمنع مخيلته في التفكير بنجاح هذا الحزب وانتشاره في أنحاء البلاد.

بينما كنت أغط في النوم أراد القدرُ أن يرحب بي، مفاجأة هزت أرجاء البلاد وبثت الرعب والفزع، حادث تصادم على الطريق أودى بحياة الركاب، استقبلتُها بذهول شديد في الصباح ولكن مع بعض الهدوء أيقنتُ أن الفرصة أتت من الباب الكبير، سريعاً حدثت اتصالات وتم تحديد موعد اجتماع طارئ لمناقشة ما حدث، حسناً هذا هو الوقت المناسب لتقديم أوراقي اعتمادي كعضو مهم بين أروقة المجموعة، القلقُ بدا واضحاً على وجوه من في الغرفة والكل حلَ عليه الصمت التام بانتظار كلمة السيد " نزار " .

" نحن في موقف لا نحسد عليه، الحادثة جاءت في توقيت قاتل، لابد لنا من حلول تهدأ من روع الرأي العام، والأهم إرضاء عائلات الضحايا، الوقت ليس في صالحنا، نريد إغلاق هذا الملف بأسرع وقت ممكن " تلك كانت كلماته التي افتتح بها هذا الاجتماع الطارئ، بدأ الأعضاء يدلون بدلوهم بشأن ما حدث، الكل أجمع تقريباً على تعويض مادى لعائلات الضحايا، كنتُ شارد الذهن حين بدأ بسؤالي قائلاً " وماذا عنك خيرت ؟ أظن أن التعويض المادي لن يكون كافياً ولابد من حل أقوى لامتصاص غضبهم، إقالة الوزير قد تكون بمثابة رشفة الدواء التي تريح المريض من عناء الألم ".

تلك الكلمات البسيطة أثارت دهشة البعض منهم وحازت على إعجاب البعض الآخر، حتى أنا قبل دخولي من باب هذه الغرفة لم أكن لأفكر بمثل هكذا حل! ولكن لا بأس بقليل من المغامرة، الصمت الذي ملأ المكان حينها كان كفيلاً بتسلل القلق بداخلي قبل أن يقطعه حديث السيد نزار" اقتراح مجنون من شاب واعد ولكن لا بأس به " ، تلك الكلمات أثلجت صدري وبثت مزيداً من الثقة والهدوء لي، ووافقت الأغلبية عليه قبل أن يكون العنوان الرئيسي لصحفِ الغدِ الصادرة.

في هذه الأثناء تعالت الأصوات داخل الحزب تنادي بعقابٍ شديدٍ ورادعٍ للمسئولين عن هذه الفاجعة، التعويضات المادية لن تكون كافية بالطبع في نظرِهم، مرة أخرى حاز " يوسف " على إعجاب الحاضرين من فصاحته، كان يمتلكُ لساناً يستطيع من خلاله تحريك الصخر ! في اليوم التالي انتشر خبر الإقصاء في الإعلام ووصل لمقر الحزب وغمرت السعادة المكان، ظن خاطئاً أن كلمات الحزب أتت أكلها وأن الرضوخ

لمطالبهم قد تحقق، في ظاهر الأمر كان رضوخاً بالفعل وهذه كانت الرسالة التي أردنا إيصالها ليوسف لكن في باطن الأمر نحن نسبقهُ ونسبقُ حزبهُ بخطوة الآن.

أشعة الشمس حملت معها الأنباء الجيدة، انهالت عبارات الثناء من الصحف الصادرة وظهر ذلك جلياً في العناوين الرئيسية، لم تتوقف الأنباء عند هذا الحد بل عبرَت عائلات الضحايا عن رضاها التام بتلك القرارات، عندها فقط تم إغلاق ملف هذه القضية تماماً وبدأ التحضير لقضايا لا تقل أهمية عن سابقتها، الابتسامة كانت تعلو وجوه الحاضرين مؤتمر الحزب وأيقنوا أن حديثهم وحديث غيرهم من المعارضين لم يذهب أدراج الرياح وأنهم وضعوا المسئولين تحت ضغط تام، وأن تلك القرارات ما هي إلا بداية مولد حزب قد يكون له باعُ كبير في المستقبل.

فور العودةِ إلى المنزلِ ليلتها جلستُ أفكرُ كثيراً، لم أكن أشعرُ براحةِ البال كما في السابقِ، ساورتني عديد الشكوك والمخاوف، نعم سأكون عضواً قوياً ذو كلمة رنانة، نعم سأكتسبُ الثقة يوماً بعد يوم ولكن ماذا عن ذلك الجزء الإنساني الذي لطالما قدستهُ ؟ أذكرُ جلياً لحظة انضمامي لتلك المجموعة كان هناك وعدُ باحترام الانسانية مهما كانت صعوبة القضايا والملفات، هل ستبقى الوعود كما هي ؟ هل سيبقى ذلك الجزء الإنساني بعيداً كل البعدِ عن تلك الحسابات التي تُصفى داخل الغرف المُغلقة ؟

في اليوم التالي تلاشت تلك الأفكار ولو مؤقتاً وازدادت الثقة وانزاح بعضُ القلقِ فور صعودي المبنى الشاهق، هذه القضية كانت بمثابة تقديم نفسي كعضو لا يُستهان به فيما بعد، " حسناً يبدو أن العضو الجديد الجالس بينكم قد أبلى بلاء حسناً في الاختبار الأول له وعليكم الحذر منه فيما بعد، يبدو أنه يريد المقعد الذي أجلس عليه أنا " ببعضٍ من المزاح اختتمَ السيد " نزار " حديثه ، الحديث الذي كان بمثابة شهادة جيدة قد يكون لها مفعول السحر وتمكنني من الدخول سريعاً في أجواء العمل.

قبل الدخول في صميم الاجتماع وقفتُ لبضعةِ دقائق أتابعُ عن بعد تعبيرات الأعضاء، هل يعيرون الجانب الإنساني نفس القدر من الاهتمام الذي أعيرهُ له أم أن ذلك الجزء قد اختفى كلية ؟ لو وقعوا في اختبار الإنسانية ما موقفهم حينها ؟ بعضُ من ما تبقى من الدخان المتصاعد ذكرني بكوب القهوة الذي أنستني إياهُ سخونة الأسئلة، شربته على عجلةٍ من أمري وتناسيتُ مؤقتاً أمر الأجوبة لحين الانتهاء من الاجتماع القادم بعد بضعة دقايق.

طاولة الاجتماعات هذه المرة لم تحمل قضية مثيرة للجدل كثيراً، كان الحديثُ ممزوجاً بالهدوء وكان الهدفُ ضربة أخرى تعيدُ الثقة أكثر بعد تلك الفاجعة، انتشرت المقالات عن الإهمال الصحي ببعض القرى الصغيرة وتعالت أصوات المعارضين مجدداً وكان ذلك يمثلُ فرصة أخرى للنيلِ من المسئولين ثانية، بالطبع " يوسف ونضال " كانا في الموعد مرة أخرى ولم تتوقف أسهم النقد الموجهة، هذه المرة لم يكن الأمر بحاجة لمقترحات خارج الصندوق واتفقت الأغلبية على دعمٍ كاملٍ لتلك القرى الصغيرة، لكن شيئاً ما بداخل السيد " نزار " يحدثهُ أن ذلك الدعم لن يكون كافياً وأن أسهم النقد لن تتوقف، " الدعم سيشمل العاصمة والمدن الرئيسية في البلاد " هكذا علق على هذا الشأن، واتفق الجميعُ مع هذا الرأي.

وسائل الإعلام تناولت خبر الدعم الصحي وأشادت بهذه القرارات المهمة، نوعاً من الرضا ساد أرجاء المعارضين وبالأخص الحزب الذي يرتكزُ على أهم عضوين " يوسف ونضال " هذه الأيام انخفضت قليلاً نبرة الانتقاد وقرر الحزبُ أخيراً الإشادة بالقرارات الأخيرة وأنه يتمنى عدم توقفها في المستقبل القريب، هذا ما كُنا نريد وأكثر في هذا التوقيت تحديداً، فالمرحلة القادمة على ما يبدو تحمل الكثير في جعبتها ونحن بصددِ تحول كبير في مستقبلِ هذه المجموعة.

كان النجاحُ يزدادُ يوماً تلو الآخر وعبارات الإشادة بدأت تكثرُ بمرور الأيام، لكنَ كُلَ هذا لم يكن كافياً بالنسبة لي، في تلك اللحظة لم أملك أية تعليقات سلبية خلال فترتي القصيرة بالمجموعة، الوعود تنفذُ ولا مساس بالإنسانية على الإطلاق ولكن هل سيستمرُ شهر العسل هذا معهم ؟ لا جدوى من تلك الأسئلة على الأقل في تلك المرحلة خصوصا وأن المرحلة القادمة ستشهدُ عديد التطورات، أخيراً قررتُ الخلود إلى النوم قبل يومٍ شاقٍ بالغد.

يبدو أن العمل داخل أروقة تلك المجموعة لن يتوقف على الإطلاق، ملفٌ آخر في الطريق، ملفٌ قد يغيرُ من شأن تلك الغرفة على الأقل في السنوات القادمة، غرفة العمليات باتت تعمل أربعُ وعشرون ساعة، وسائل الإعلام خاصتنا بدأت تعدُ عدتها لهذا الحدثِ الضخمِ، حتى المعارضون لم يمنعوا خيالهم من التفكير بشأنه، العامةُ لا حديث لهم سوى عن ذلك الملفِ وعن رؤيتهم فيما قد يحدث، الصحف العالمية انهالت بالعناوين القوية لمواكبة ما يدورُ داخل البلاد.

الانتخابات الرئاسية تدنو شيئاً فشيئاً ومع اقترابها هناك حفنةُ من القرارات يجب مناقشتُها قبل خروجها للنور، ليس خفياً أن الرئيس سيستمرُ كما هو في منصبهِ ولكن مع ترويج أكثر يحملُ الموضوع طابع الديموقراطيةِ والنزاهةِ، الأحزاب المنتشرة في البلاد لم يكن بمقدورها المنافسة، مرشحون مجهولون بالنسبة للرأي العام، الحزب الذي ينشطُ فيه " يوسف ونضال " كان لتوه بدأ العمل السياسي فاختار أن يقف في صف المرشح الذي قد يمتلك أكبر فرصة لقلب الطاولةِ على النظام، بداخلهم يعلمون تمام العلمِ أنها محاولة مصيرها الفشلُ لا محالة ولكن لا مانع من بعضِ المناوشات على الساحةِ الانتخابيةِ.

كان لابد من ظهورٍ مُتلفزٍ يخرجُ فيه الرئيس لشعبهِ محدثاً إياهم عن برنامجه الانتخابي، بدأت الترتيبات لظهورِ سيادتهِ على إحدى القنوات التابعة للدولةِ وحدد الموعدُ وانتشرت الإعلانات حتى يتسنى للجميعِ مشاهدة ذلك اللقاءِ، الاعتقاد السائد داخل غُرفتنا أن هذا اللقاء قد يكونُ الخطوة الأهم في طريق النجاح الكاسحِ، حان موعد اللقاء وبدأت تلك المُذيعة الجميلة تبادل الرئيس الحوار " سيادة الرئيس مرحباً بك هنا أولاً ونشكرُكَ على تلبية الدعوةِ ثانياً ماهي خطتُكم لتلك الانتخابات ؟ قبل البداية وقبل الخوض في تفاصيل البرنامج وما إلى ذلك فأنا أشكرُكم على تلك الدعوة وأتمنى من الشعب أن يتحلى بسعة الصدر عند بداية هذا الحوارِ "

" البرنامج يشتملُ على عديد الإصلاحات المهمة في شتى المجالات، اهتمام بكبار السنِ وتحسين المعاشات أكثر فأكثر، الاهتمام بالعنصر النسائي باعتباره جزأ لا يتجزأ من نسيج هذا المجتمع، وأيضاً الشباب فهم الهدف المُستهدف من الأساس في هذا البرنامج، هل وإن قدرَ لك النجاح ستكون تلك الفترة الرئاسية الأخيرة

لك سيدي ؟ يجيبُ ببعضِ من المزاح قائلاً يبدو أنكِ قد أصابكِ الملُ، في الحقيقة لا أعلم ما قد يحدثُ في المستقبل ولكني أنوي البقاء لسنوات عديدة "

العملُ كان على قدمٍ وساق، دعمُ كامل لمؤسسات مثل الصحة والتعليم، خروج الرئيس بنفسهِ لزيارة القرى الصغيرة، بينما لم تتوقف ثرثرة أولئك الشباب وكانت أحاديثهم تتمحور حول انتهاء فترة الرئيس ولابد من التغيير في الفترة القادمة، حديثهم أشبهُ بجلوسك أمام شاشة التلفاز وأنت تتجاهلُ متعمداً سماع الصوت الصادر منها، فقط أفواه تتحدث ووجوه يتصببُ منها العرق دون جدوى تذكر، محاولاتهم لإقناع طبقة الفقراء باءت بالفشلِ وكان ذلك بمثابة الضربة الكبيرة بالنسبة لهم، لكنهم رفضوا رفع الراية البيضاء خصوصا بعد تلك الواقعة التي هبطت عليهم من السماءِ في التوقيتِ المُناسب.

خرج علينا تقريرُ يشككُ في نزاهة الانتخابات، بعض القرى الصغيرة بالفعل أُثبت فيها التزوير لصالحِ الرئيس، أثناء الاجتماع كنتُ قلقاً من تلك الأحاديث وفكرتُ للحظة أن شأن هذه المجموعة سيكون الهلاك ! لكن ضحكات السخرية اعتلت الغرفة وتبعتها عباراتٍ من السيد " نزار " أنهت كل الجدل " لا تقلق خيرت كل هذا مجرد مسرحية صغيرة من أصدقائنا المعارضين وسينتهي بمجرد إنكار تلك الاتهامات " كان ذلك السرُ الأولُ في تلك اللُعبةِ، ليس كلِ من يخرجُ على شاشات التلفاز ويتمتعُ بفصاحة الكلامِ يصبحُ بالضرورة معارضاً، " حسناً سيد نزار إذاً من هي المعارضة الحقيقية ؟ " يضحك ثم يتابعُ حديثه " المعارضون الموجودون على الساحة قد يمثلون قلقاً بالفعلِ لكن الوضع لازال تحت السيطرة التامة ".

لم تمر ساعاتٍ حتى انتهى أمرُ ذلك التقرير ونُفيت تماماً تلك الاتهامات التي شككت بنزاهةِ العملية الانتخابية، انتشرت بعدها بعض التقارير المصورة لعديدِ المواطنين يستنكرون وبشدة تلك الأحاديث العارية تماماً من الصحة وأعلنوا التأييد الكامل للرئيس في الفترة المقبلة، كان هذا بمثابة الضربة الموجعة ليوسف ولحزبه، صرنا متقدمين بدلاً من الخطوة اثنتين بل ثلاثة ! آن الأوان للاعتراف كلية بأنهم ذاقوا طعم الهزيمة للمرة الأولى بتلك المعركة الكبرى لكنها لن تكون الأخيرة بكل تأكيد.

ما زاد الطين بلة هو ملف هؤلاء المعارضين، كنتُ فرحاً طوال فترة الانتخابات بالانشغال عن أمر تلك الأسئلة لكن سرعان ما وجدتُ نفسي أمام سؤالا آخر يحتاجُ لجواب كمثله، هل يتاجرُ هؤلاء المعارضين بمشاكل العامة وأحلامهم، يظهرونُ لهم الوقوف بجانبهم ولكنهم في الأصل مع النظام، رأسي قارب على الانفجار من شدة التفكير، جزءٌ يحاولُ الهروب من هذا الفخ وجزءٌ يحدثُني أن هذا مجرد أمر يتعلق بالمعارضين أنفسهم وأن جانبك الإنساني لم يتعرض للإيذاء.

خيمت حالة من الهدوء التام في أوساط الشارع عقب تلك نتيجة الانتخابات، نتيجة منطقية نظراً للدهاء الذي يتحلى به الرئيس ولضعف منافسيهِ على ذلك الكُرسيَ، أما داخل هذا المبنى الكبير فسيطر التفاؤل بشأن المُستقبلِ، طوينا صفحة الانتخابات بكلِ ما تحملُ من تفاصيلِ وبدأنا نعدُ العدة لما هو قادم، هناك قضايا نريدُ

أن ننفضُ من عليها الغبار، لا وقت للإفراطِ في الاحتفالات، لكن يبدو أن الاحتفالات أصرت على الرحيل مسبقاً فور تلك الأنباء التي تواردت في الساعات الأخيرة.

الأنباء انتشرت كالنار في الهشيمِ ، وسائل الإعلام تناقلت تلك الأنباء، الصحف اليومية نشرت العناوين والمقالات، تعذيبٌ في أقسام الشرطة تلك كانت القضية الأولى التي عقبت فوز الرئيس، لن يجد المعارضون فرصة أفضل من تلك للعودةِ إلى الساحة مرة أخرى بعد تلك الهزيمة، هذه المرة كان الأمرُ أصعب من واقعة التزوير، لا مفر من حلول تكلفُ لنا عدم فتح هذا الملف ثانية، طاولة الاجتماعات عادت من جديد ومعها بدأت الاقتراحات المتوقعة سلفاً بضرورة التغيير وإبعاد من تسبب بتلك الأزمة، لم يكن مسموحاً أن تفسدَ تلك القضية ما حدثَ في الانتخاباتِ

كنتُ شارد الذهن ولم أحبذ فكرة الإقصاء فقط، كنت مقتنعاً أن أقلامِ وأفواهِ المعارضين لن تكف عن الحديث بهذا الشأن وحينها جاءت الفكرة العبقرية، " حسناً سيدي ما رأيكم بفكرة زيادة المرتبات من الشهر القادم ؟ " هكذا كان الاقتراح الأكثر جنوناً في تلك الليلة ! " لطالما قلتُ لكم أن هذا الشاب اللعين سيكون رقماً صعباً في مجموعتنا " هكذا انهى حديثه ووافقت المجموعة على هذا المقترح وتسرب الخبرُ فوراً لوسائل الإعلام قبل انتشارهِ بالصحف في الصباحِ الباكرِ.

العناوين الرئيسية كانت مدوية للغاية، تناسى الشعبُ قضية التعذيب وسال لعابهُ فور علمهِ بزيادة المرتباتِ، ظل " يوسف " يتحدث كثيراً وكثيراً عن قضية التعذيب وأنها قد تتكرر في المستقبلِ لكن كعادته لا يزال متأخراً عديد الخطوات، " الأمر لن يمر هكذا نضال حتماً لازال التعذيب مستمراً وأن الإقصاء مجرد تحسين للصورة ليس إلا " وجه نضال كان أبلغ من الحديث، علامات اليأس بدت تظهرُ وتحدثت بنبرة حزينة " نحنُ نخلفهم الآن مرة ثانية بعد أن كُنا خلفهم في معركة الانتخاباتِ وبعد أن كُنا خلفهم في حادثة الركابِ ".

اندمجتُ سريعاً في صلب المجموعة وأصبحتُ واثقاً تمام الثقة بعكس اللحظات الأولى، لكن مع ازدياد تلك الثقة بدا الجانب الإنساني معتلاً، يوماً بعد يوم تتدهورُ حالته الصحية، وكأنهُ وضع في العناية المركزة وفي انتظارِ لحظة الصعود للسماءِ، فقط أراقبُ عن بعدٍ حالتهُ ولا أملكُ سوى الدعاء وإلقاء النظر إن أمكن، أيقنت أنه أوشك على الرحيل للأبد، لكن لا مانع من بعض المحاولات عساها تجدي نفعاً، كنتُ أعلم أنه لا فائدة وأنها فقط بضع سويعات قبل النهاية.

شعرتُ مع لحظة النهاية بالحماسة تجاه العملِ، ما كان يسببُ إزعاجاً انتهى أمرهُ، هناك أشياء أهم في الطريق وهناك مستقبل يتطلبُ مزيداً من الجهد والعمل، لا مزيد من الأسئلة التي لا فائدة منها، فقط مزيد من أكواب القهوة الساخنة والمزيد من حفنة الأوراق والقضايا، كانت ليلة صعبة وشاقة وطويلة ولكن ليلة تمكنتُ فيها من التخلص من تلك الأشياء التي عكرت صفوي طوال الفترة الماضية وحان وقت الاستمتاع، فقط الاستمتاع بكل دقيقة داخل هذا المبنى الشاهق.

مع صباحِ كُلِ يوم تزدادُ ثقة المجموعة بنفسِها أكثرَ فأكثر، مادامَ الشعبُ مُغلقاً فمهُ فالكرسي في أمان تام، هم بحاجة لنفض ذلك الغبار الذي ملأ قلوبهم وأجسادهم، هم أشبه برجالِ الكهف الذين غرقوا في نومهم ولا يفيقون سوى في بعض المناسبات القليلةِ، أصوات يوسف ونضال ومن مثلهم لا تحركهم قيد أُنملة، هم فقط

يستمعون إلي صوت المرتبات والمشروعات، مادام قوت يومِهم في أمان فلا داعى للثرثرة يميناً ويساراً، كان ذلك بمثابة المعادلة الأهم للبقاء أطول فترة ممكنة في مركز صناعة القرار.

في الحقيقة مع لفظ آخر أنفاس ذلك الجانب الذي ظل يؤرقُني كثيراً بات هناك سؤال واحد لازال لم يبح بعد بالإجابة عنهُ، هل أولئك الأعضاء لفظ جانبهم الإنساني أنفاسهُ الأخيرة أيضاً؟ أم قرروا التخلص منه في البداية ؟ هل لازال يؤرقهم ؟ هل لازال يسببُ الألم لهم ؟ حاولتُ معرفة إجابة ذلك السؤال من واحد من هؤلاء الأعضاء " مرحبا .. محمد كنتُ أريدُ طرح سؤال مهم عليك، هل مازال في قلبهم ولو بصيصاً من الشفقة والرحمة ؟ قاطعني ضاحكاً، معذرة خيرت أي شفقة ورحمة تتحدثُ عنها، تلك المُسميات تظهرُ فقط على شاشات التلفاز واللقاءات كجزء من الدعاية ولكن صديقي كل تلك الأشياء التي تتحدثُ عنها لا وجود لها إطلاقاً داخل هذه المؤسسة العملاقة.

عمَ الهدوء أنحاء البلاد وتوقفت أقلام وأصوات المعارضين قليلاً قبل أن تستيقظُ الأمةُ على حادثة مدوية أخرى، انحراف قطار عن مسارهِ مما أدى إلي مصرع الكثيرين، انتشرت الأخبار سريعاً وهذه المرة أقوى من سابقتها، تمت الدعوة لاجتماعٍ عاجلٍ على الفور لمناقشة ما حدث، " هذه المرة الحادثة أصعب وأظن أن التعويضات لن تكون كافية بل حتى الإقالة لن تجدي نفعاً " هكذا أفتتح أحدُ الأعضاءِ الحديث عن واقعةِ القطارِ، لم يكن يملكُ أحد أية حلول من شأنها تخفيفُ الحدث، " يبدو أنكم عجزتم هذه المرة عن إيجاد الحلول المبتكرة ولكن المحاكمات قد يكونُ لها مفعول السحر " وعلى الفور وافقت الأغلبية على رأي السيد نزار في تلك الفاجعة عسى أن نكبح جماح الغضب.

أحسَ " يوسفُ ونضال " أنهم قد اقتربوا قليلاً لكنهم مازالوا يتمتعون بقدر من السذاجةِ، عبارات التنديد هزت أرجاء مقرِهم هذا وتعالت الأصوات تنادي بضرورة مثول المتهمين أمام القضاء، قبل أن تنتهي وقائع المؤتمر كان القرارُ قد اتخذ بمثول من تخاذل في تلك الحادثة بجانب دفع تعويضات ضخمة لأسرٍ من طالتهم نيرانُ القطارِ، أسر الضحايا كانوا متواجدين آنذاك وما إن وصلت الأخبار حتى خرجوا من المقرِ شاكرين المسئولين عن تلك القرارات وأنها أطفئت نيران الحُزنِ بداخلِهم.

تسلل الاحباطُ في نفوسِ الحاضرين وهم مدركون أنه لا جدوى من تكرار المؤتمرات دون أية فائدة تذكر، " يوسف ونضال " يعضون على أناملهم من شدة الغيظِ، بالجهة المقابلة نجلس نحنُ والابتسامة تملأُ وجوهنا وأكواب القهوة الساخنةِ على مشارف الوصولِ، كانت الأمور تسيرُ على ما يرام بهذا المبنى بعد تجاوز آثار تلك الحادثةِ، لم يكن لدينا الكثير لنناقشهُ حينها، لا مانع من السخرية من المعارضين الذين ظنوا ولو للحظة واحدة أنهم قد يغيرون من واقع الأمر، أحلامُهم في بعض ساعات تصبحُ كابوساً مميتاً يريدون الفرار منهُ، في كلُ مرةٍ يعودون من حيثُ أتوا، يعودون إلى نقطة الصفر.

كانت المصائبُ لا تأتي فرادى وتنهالُ على وجهِ يوسف ونضال، أحد أكبر المعارضين في البلادِ تم إلقاء القبض عليهِ لتورطهِ في قضية فسادٍ كُبرى، لم يكن كغيره من المعارضين وهذا كان لُبَ المشكلة فهو بمثابة الأب الروحي بالنسبة لهم، جاء القرارُ من الرموز الكبيرة بالحزب بتعطيل العمل لأجل غيرِ مسمى، هذا القرار أثار حفيظة الشابين، نشب خلافٌ حادُ بين الرموز وبين الشابين وبدأ تراشق الألفاظ والاتهامات بالتواطؤ لمصلحةِ المسئولين، انتهى المطافُ بهم خارج المقر يجرون أذيال الخيبة، تلك كانت الضربة الأولى التي أصابت أحلامهم وقد تجعلهم يعيدون التفكير مرة أخرى فيما هو قادم.

كانت قد وصلت أخبار تعطيل العمل بالحزبِ إلى المبنى خاصتنا، تعالت الضحكات في أرجاء الغرفةِ ساخرة من تلك الأخبارِ، كانت النقطة الأهم تتمثلُ في قتل أي بادرة أمل بنفوسِ هؤلاءِ الشباب، استمرار الحزب قد يمثلُ فيما بعد أزمة قد تملأ طاولة الاجتماعات زحاماً نحنُ في غنى عنهُ، انتهى الاجتماع سريعاً هذه المرة فلا يوجد داعي للبقاء حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي دون وجود قضية مهمة تذكر، بل كان الأعجبُ من ذلك هو إعطائنا يومين للاسترخاء قليلاً بعد هذا المجهودِ الشاقِ.

في الواقع وبرغم قصر مدة العطلة إلا أنها جاءت في التوقيت المناسب، فرصة جيدة للابتعاد عن حفنة الأوراق وكثرة الملفات، فرصة مواتية للجلوس مع العائلة الصغيرة للاستمتاع بنسمات الربيع بعيداً عن ضوضاءِ العاصمة، لم أحبذ قراءة العناوين الرئيسية بالصحفِ ولا تلك المقالات الملقاةِ في آخر الصحفِ تتحدثُ عن الإهمال والفسادِ، فقط بعض التواصل مع الأعضاء ولا مانع من مشاركة الأوقات اللطيفة سوياً حتى لا يصيبُنا الملل، انتهت الليلة الأخيرة على واقعِ الموسيقى الهادئة والسماءِ الصافية قبل العودة مرة أخرى إلى سخونة أكواب القهوة.

في الطريقِ للاجتماع الأول عقب العودة من العطلةِ السريعةِ، وقعت عيناي على عديد المشاهد التي جذبت انتباهي، طفلة صغيرة ضعيفة البنيانِ تجوبُ الشارعَ رغبة في كسرة من الخبر تشبعُ جوعها ثم رشفة من الماء تروي ظمأها، لم يكن هذا المشهد الوحيد بل تلتهُ مشاهد أخرى لكنها لم تكن بقدر مشهد الطفلة، سابقاً كانت تؤلمني إلقاء النظر والتدقيق فيها، تغير هذا منذُ الانضمام للمجموعةِ، فقط يكفي دقيقة واحدة لتذكر إنسانيتُك قبل أن تتذكر مرة أخرى أنك عضواً في مجموعة الغربان.

" مرحباً بكم مرة أخرى أيها المشاغبون " على سبيلٍ من المزاح خرجت عبارة الترحيب من السيد " نزار " قبل العودة مرة أخرى إلى غمار القضايا والملفاتِ، كان الحدثُ الجللُ هذه المرة هو الانتخابات البرلمانية، لا صوت يعلو فوق صوت الانتخابات بالنسبة لنا، لم يكن يمثلُ الأمرُ ذات قدر الأهمية بالنسبة للشعبِ، فقط وجوه جميلة تظهرُ على التلفازِ وحديثُ منمق ووعود سئمت آذانِهم من سماعِها، في الجهة المقابلة يرى المعارضون أنها قد تكون الفرصة الأخيرة لإنقاذ ما يمكنُ انقاذه في تلك الفترة الصعبة عليهم.

نجاحُ المرشحون خاصتُنا كان الهاجس الحقيقي في تلك الآونة، نعلمُ جميعاً أن نجاحهم قد يكونُ المسمار الأخير الذي يدقُ في نعش المعارضةِ، خطواتُ كبيرة في سبيلِ البقاء أطول فترة ممكنة على رأس الحكمِ، كما جرت العادة في أية انتخابات يتمُ التحضيرُ لها مسبقاً عن طريق الترويج للمرشحين وتطبيق بعض القرارات التي من شأنها كسب جموع الشعب لصالحنا، آنذاك ابتعد " يوسف ونضال " قليلاً عن العمل السياسي

وجمعتهما جريدة صغيرة يترددان عليها أملاً في مزاولة مهنة الصحافة بشكلٍ يمكنُهما فيما بعد من صيغِ العباراتِ رغبة في تحسين القرارات.

الحزبُ الذي أوقف العمل حتى إشعارٍ آخر قرر خوض تلك المعركة الانتخابية، حاول استعطاف الشابين مرة أخرى عقب ذلك الخلاف الحاد الذى نشب حينها، لم يكن لديهم خيار آخر سوى الموافقة للعودة، مغامرة غير محسوبة بصددها الحزبُ ومعه أهمُ عضوين، الكل اجمع داخل المقر أنها فرصة مواتية لإزعاج النظام وليعلم أن الأمر لم ينتهي بعد، بدأت المؤتمرات تعودُ للحياة مرة أخرى، بدا المقرُ كمعتلٍ شُفيَ من علته وهبت فيه الروحُ مرة أخرى، دب الحماسُ داخل الأعضاء وشعروا أن النظام قد يرتعدُ خوفاً منهم ومن أحاديثهم تلك ومن عودتهم للعمل السياسي مرة أخرى.

لم تُمثل العودة أية ضغوط تُذكر على المجموعة، بل كانت العودة في الوقتِ المناسب حتى تتأكد جموعُ الشعبِ أن الفوز أتى بعد منافسة حقيقية، كانت التوقعات داخل الأروقة تشيرُ إلى فوزٍ كاسحٍ نشتمُ رائحتهُ من بعيد، استبعدنا كلية أية احتمالية لنجاح أي معارضٍ مهما كان، الأرضية الصلبة التي يقفُ عليها النظام كافية لسحقِ كافة المنافسين داخل الصناديقِ، نبرة السخرية والاستهزاء كانت النبرة السائدة في ذلك الاجتماع فور علمنا بعودتهم ونيتهم الترشح، لا مفر من هزيمة أخرى قد تنهى عليهم للأبد.

في الجهة المقابلة سادت نبرة التفاؤل في مقرِهم، تلك النقطة المضيئة البعيدة بدت تقربُ فجأة ! بدت تكبرُ وتتحول من كونها مجرد نقطة ! الأجواء تشيرُ إلى مزاحمة النظام الحكام على كرسيَ البرلمان، النجاحُ بمثابةِ التنفُسِ بعد اختناق، استبعدوا تماماً فكرة الفشل الذريع ثانية وكانوا على أهبة الاستعداد لهذا الحدث ذو الأهمية القصوى، حديث منمق في مؤتمراتهم، بث الأمل في نفوس الشباب وحثهم على مواصلة العمل الذي بدأ من أروقة هذا الحزب، كلها رسائل تحمل طابع الأمل في غد مشرق في عيونهم.

لافتات المرشحين جابت شوارع المحافظات والقرى، وُضعت خطة محكمة للتركيز أكثر على المرشحين خاصتنا وتلميعهم من قبل وسائل الإعلام المسموعة والمرئية وحتى الصحافة ! مساحة صغيرة للمعارضين للحديث وهذا ما أثار حفيظتهم واعتبروه محاولة لتهميش صورتهم أمام جموع الشعب، في مقر المبنى لم تتوقف الاجتماعات قط وكنا حريصين على خنق المعارضين قدر الإمكان، لا نريد صداعاً قد يصبحُ مزمناً بين ليلة وضحاها، الخلاص منهُ سريعاً يضمنُ عدم عودته على الأقل في تلك الفترة.

لكن على ما يبدو أن محاولة التلميع ليلاً عبر شاشات التلفاز ونهاراً عبر أقلامنا لم تكن كافية للاكتساح للكامل، الصداع يريد البقاء أطول فترة ممكنة داخل رؤوسنا، نجحوا في انتزاع مقعد لأنفسهم داخل البرلمان، بدت تقربُ لهم تلك النقطة التي لطالما تحدثوا عنها بمقرهم، حاولنا التماسك قدر المستطاع فور إعلان النتيجة، تصنعنا التماسك والهدوء لكن درجة الغليان حينها أوشكت على الانفجار، لم يكن الخوف في شخصهم بقدر ما كان الخوف في هؤلاء العامة الجالسون خلف الشاشات ينتظرون جلسات البرلمان.

لكن ذلك الانفجار سرعان ما تحول لهدوء تام، مازال البرلمان تحت السيطرة رغم انتزاعهم فرصة ثمينة للدفاع عن أفكارهم تلك، الخطة التالية كانت التضييق عليهم داخل أروقة البرلمان بشتى الطرق، وقت قصير للحديث بالإضافة لبعض المقاطعة والتشويش من الأعضاء خاصتنا فيتولدُ خطاب هش رغم قوة كلماته

وبراعة عباراته، على العكس تماماً كان الحزبُ يحاول تقديم نفسه ككتلة تحاول التحدث باسم الشعب وتمثيله ومحاولة رصد معاناته، فرصة مواتية لبث ولو قدر بسيط من الرعب في نفس النظام.

لكن الحلقة الأهم في ذلك الصراع وهو الشعب لا يعي كل ذلك الحديث الضخم ولا تلك المصطلحات الصعبة، كان غارقاً في بحر همومه فقط يريد التشبث بقشة قد تخرجه إلى بر الأمان، جل أحلامهم يتمثل في تكوين أسرة بسيطة وعيش حياة كريمة، لا يريدون أن يقحموا أنفسهم في تلك الصراعات بين النظام وبين معارضيه، أخبار استقرار أسعار السلع تدخل في قلوبهم السرور، لا يدققون في أحاديث الشاشات ولا مقالات الصحف، كل ذلك كان بمثابة الهراء بالنسبة لهم، سعيهم في عيش حياة كريمة أوقف التكفير عندهم، ذلك كان يمثلُ واحداً من الأهداف الكبرى للغربان.

اعتقد المعارضون خطئاً بأن سياسة الكلمات الرنانة في البرلمان ستستميل قلوب البسطاء والعامة، اعتقدوا أن بإمكانهم جلب الشعب لصفوفهم حين يحين وقت الحديث، لم يكن في حسبانهم معادلة الفشل قط، ملفات بحوزتهم وقضايا حتماً ستثيرُ غضب الشعب على النظام، التفاؤل ازداد في معسكرهم وبدأ التحضير للجلسات على قدم وساق، تدريب مكثف على كيفية الحديث أمام أعضاء البرلمان، تدريب على خلق طريقة تقنعُ العقول الجالسة والمنتظرة أمام شاشات التلفاز.

شبابٌ متحمسٌ في بداية طريقهم السياسي، لكن معذرة لهم فهم لا يملكون أبسط قواعد اللعبة السياسية بتاتاً، فقط يعتقدون أن العبارات والكلمات سيكون لها مفعول السحر لاستمالة فؤاد الشعب وكسب ثقتهم، حفنة الأوراق ضد النظام ستكون كافية في نظرهم لإيقاظ شعب أوشك النوم على قتله، لكنهم لم يستوعبوا بعد أنهم أمام نظام يعي جيداً قواعد اللعبة ويعرف متى يثير غضب الشعب ومتى يمتصهُ، لم يستوعبوا أنهم أمام نظام يعرفُ تماماً رموز تلك الشفرة التي من خلالها يستطيعُ كسب فؤاد الشعب وعقله.

أثناء كُل هذا كان نجمي يسطعُ أكثر فأكثر، بداية رجلُ يحركهُ القلق يميناً ويساراً لرجلٍ أصبحت كلمته ذات أهمية كبرى بين جنبات المجموعة، بدأ نفوذي يزداد وبدأت أعين بعض من رجالي للتوغل في الصحافة ونشر الأخبار الداعمة للنظام وبث الأكاذيب التي تقلل من شأن المعارضة، كنتُ أعلم أن الصحافة هي الأداة الأقوى للسيطرة على جموع هذا الشعب، برامج ليلاً ونهاراً تخرجُ وتسلطُ الضوء على المشروعات التي يقوم بها النظام من أجل عيون الفقراء والعامة.

كان الهدوء في تلك الفترة سمة اجتماعات المجموعة، يتخللها بعضٌ من المزاح وبعض من الجدية، لم نكن بحاجة إلى الحديث كثيراً عن المعضلات الداخلية فالأمور كلها على ما يرام برغم تلك الأصوات الخافتة التي تنادي بعديد التعديلات في النظام، الدخول آنذاك من بوابة المبنى لم يكن سوى روتين هدفهُ الحضور فقط حتى وإن لم تتواجد أية قضايا شائكة وصعبة، كان الأهم وقتها تثبيت أقدام النظام بقدر المستطاع، أصبنا جميعاً بهوس السلطة حتى أنا أصبتُ بنوبات ذلك المرض اللعين.

الهدوء حينها مثل فرصة مناسبة للتعرف عن قرب بعديد الأعضاء وفرصة مواتية لمعرفة ما يدور بداخلهم ووجهات نظرهم فيما يدور في أروقة الشوارع والحارات، واحد من هؤلاء كان " أحمد " عضو يكبرني

ويعرف الكثير من خبايا تلك المجموعة، " ما رأيك فيما يدور بداخل مجموعتنا وهل ستكون للمعارضة كلمة داخل البرلمان ؟ صمتَ لوهلة ثم بدأ حديثه قائلاً أعتقدُ أن مستقبل هذه المجموعة في أمان تام وقد يطول بقائها أما عن المعارضة فلا أعتقدُ أن صوتهم الخافت قد يشكلُ خطراً على النظام حتى وإن أصبحت لهم فرصة كفرصة البرلمان تلك "

تابعنا الحديث عن ما يدور بين العامة ومن خلاله علمتُ أن فرصة التمرد على النظام تكادُ تكون معدومة، مقيدون داخل سجون الخوف والجهل، انعدام الثقافة كفيل بتصديق المذيعة التي تخرج عليهم في تمام التاسعة مساءًا لتعلمهم أن حالة البلاد على ما يرام وأن البلاد في طريقها للتطور أكثر بشرط بقاء النظام في سدة الحكم أطول فترة ممكنة، لكنه لم يكن يملك المقدار الكافي من الشجاعة للبوح بأسرار المجموعة وحاول مراراً التهرب وفضل الصمت عوضاً عن الكلام.

المثير للدهشة كان رد فعله عن مدى رضاه عن السياسة المتبعة للمجموعة، ظننتُ أنه مازال يحملُ في قلبه ولو مثقال ذرة من الرحمة لكني فوجئت تماماً بأنه يتمنى أن يمارس النظام سياسة الترهيب بشكل أكبر وأنه لا مانع لديه من قمع من يجاهرُ بمعارضة النظام، يبدو أني كنتُ مخطئاً عندما خلتُ نفسي شيطاناً حين وأدتُ ذلك الجانب الانساني، فإذا كنتُ شيطاناً فماذا يكونُ أحمد ؟ وهل البقية يحملون في صدورهم كل معاني القسوة مثل ما يحملها أحمد في صدره ؟

استمرت فترة التقرب للأعضاء ولكن هذه المرة كانت مع عضو غامض له باعٌ كبير في هذه المجموعة ويعرفُ ما لا يعرفهُ أحمد، فكرة الحديث مع " عمر " كانت صعبة بل ومستحيلة، بمجرد انتهاء الاجتماع يختفي كالشبح ولا يرى له أثر، وبعد عناء شديد جاءت اللحظة المناسبة للحديث معه ولو بقليل الكلمات والعبارات، قليل الابتسامة كثير التفكير هكذا كان " عمر " ولا عجب في أن يكون كثير التفكير فأنت أمام العقل المدبر لهذه المجموعة، " لماذا تكون سيادتك دائماً في عجلة من أمرك ؟ ابتسم على غير العادة قائلاً حتى لا أستمع لمثل هذه الأسئلة عديمة الفائدة.

لم يقتصر الحديث على " أحمد وعمر " فقط بل تحدثت عن قرب مع أعضاء آخرين لكن الحديث لم يحمل طابع الأهمية على الأقل بالنسبة لي، لكن المثير في الأمر هو رضاهم التام عن سياسة المجموعة ولم يختلف أحد عليها ولا يوجد ولو تعليق واحد يعارض تلك السياسة الموضوعة سلفاً، السؤال الأهم هل ذلك الرضا الكامل نابعٌ من إيمانهم التام بتلك السياسة وأنها الطريقة المثلى للتعامل مع الشعب أم أنه رضا مغلفٌ بنهكة الخوف من الإقصاء؟

أثناء تفكيري بشأن هؤلاء الأعضاء كان هناك اجتماع يعقدُ بمقر الحزب، تدريب وتجهيز للجلسة الأولى بالبرلمان، قليل من الأخطاء ومزيد من الكلمات ذات المذاق المميز، كل الملفات كانت مجهزة كي تطرحُ أمام أعضاء البرلمان وأمام الملايين الجالسين خلف الشاشات بانتظار ظهور من صوتوا لهم للحديث بالنيابة عنهم، أحلام الفتى ناصع البياض والفتاة ذات الشعر الطويل بدأت تكبرُ باقتراب موعد الظهور الأول، " هل يوجد أمل حقيقي يوسف ؟ نعم وسيكبر غداً وسيصل صوتنا إلى الجميع ولن يمنعنا أحد من الحديث " ابتسمت الفتاة العشرينية بعد أن سمعت تلك الإجابة وجرى فيها الأمل مجرى الدم في الجسد.

في الواقع لم تكترث المجموعة بشأن الحزب ولا حتى بشأن البرلمان، ثرثرة تقارب الثلاث ساعات وبعد كل هذا يُنفذ كل ما نريده نحن ! فلماذا نجلبُ لأنفسنا مزيداً من التعب ؟ هم بحاجة ماسة لتلك الثرثرة لأنها تمثل الورقة الأخيرة ضد النظام وغير مسموح بأن تذهب هذه الورقة أدراج الرياح، نظرات الأمل في عيونهم تجعلني أشعر بالشفقة عليهم من مجهود لا فائدة منه وتارة تدخلني في نوبة ضحك هيستيرية، أفكرُ جدياً بالجلوس أمام شاشة التلفاز منتظراً الظهور الأول لهم داخل أروقة البرلمان.

حان وقت الجلسة الأولى للبرلمان المنتخب من قبلِ الشعب، محتوى تلك الجلسة خرج من غرفة الاجتماعات، فالأمر لم يكن ليحمل طابع الإثارة على الإطلاق، جلسة هادئة وتحمل ملفات بعيدة كل البعد عن التعقيد والصعوبة، لكن مشاهدة ما يُسمى بالرجال الحالمين كان أمراً شيقاً، كي أكون صادقاً فكلماتهم كانت أقوى، عباراتهم كانت أصدق، ولكن من يهتم ؟ كان حديثهم سيشكل خطراً لو كان الشعبُ يتحلى ببعض الثقافة، آذان الشعب ألفت كلمات النظام وعباراته.

في اليوم التالي وعند نهاية الاجتماع دار جانبي مع لفيف من الأعضاء حول ما حدث ليلة الأمس في الجلسة الأولى، لم تظهر علامات القلق قط وكان الرأي السائد أنه لا خوف من صدى تلك الكلمات مادام محتوى الجلسات يخرج من باب هذه الغرفة، ظهرت بوادر الإعجاب بهؤلاء الحالمين ولكنه مزيج من الإعجاب والشفقة عليهم، لن تشفع لهم حقائبهم المليئة بالأوراق، يا له من أمر صعب عندما تظنُ أنك تتحدث بحرية تامة ولكنك بالأساس تتحدث بأمر من النظام، تكتبُ كلماتك بموافقة النظام، كل الأمور تبدو تحت السيطرة.

معسكر الحالمين أظهر علامات الرضا عن ما قدمه في ظهوره الأول، أحس " يوسف ونضال " أن صدى صوتهم بدأ يعلو أكثر، ومما زاد من سعادتهم هو تفاعل بعض الشباب معهم، لكن لا وقت للالتفات كثيراً إلى تفاعل الشباب فهناك جدول أعمال بانتظارهم، لا مانع من بعض العناوين المثيرة على أغلفة الصحف عساها تطفي بعضاً من الإثارة، على صعيد آخر السيد " نزار " كان يخططُ لرفع أسهم ذلك الحزب بين صفوف الشعب ومنحهم الفرصة الكاملة للحديث بل وترتيب لقاءات لهم داخل جدران الإذاعة والتليفزيون ولم يكتفى بهذا القدر بل وأطلق اسم "الأمل" على تلك الخطة، كانت تلك الخُطة غريبة لأغلبية الأعضاء، حتى هؤلاء المتمرسين بالأمور الداخلية للمجموعة بدت عليهم علامات التعجب فيما يسمى بخطة " الأمل "

سابقة فريدة من نوعها تلك التي حدثت في هذه الليلة، جُل الأعضاء خرجوا من الغرفة ينظرون لبعضهم البعض والأسئلة تكاد تخرج من تلقاء نفسها من شدة الحيرة، كان حديثهُ هو الخيط الوحيد تلك الخطة ولم نعرف أكثر مما تم سرده على لسانه، على ما يبدو أننا سنعرفُ كافة التفاصيل لاحقاً عندما يحين الوقت المناسب، وإلي حين معرفة تلك التفاصيل اللعينة سينسل الشك في نفوس البقية ومعها يبدأ صداع تلك الأسئلة يعاود من جديد أملاً في إجابات تنهي ذلك الصراع.

في معسكر المعارضين يبدو أنهم بحال جيد، في الحقيقة أحسدهم على عدم إلمامهم الكامل لما يدور، على الأقل لن يصابوا بالدوار من شدة التفكير في أسئلة يصعبُ الإجابة عنها، كل ما عليهم العمل سوياً من أجل الظهور بصورة مرموقة داخل البرلمان، الأمور انقلبت رأساً على عقب في تلك الفترة، الكل يريد أن يعلم تفاصيل الخطة تلك، صرت عازفاً عن فيلم منتصف الليل وأصبحتُ أطرح كل الاحتمالات، كعادتي فأنا لا

أحبُ أن أقف بعيداً عن الصورة، أريدُ أن أكون في قلبها ملماً بما يحدثُ، ولكن القاعدة التي فهمتُها مؤخراً ليس من المهم أن تعرف كل التفاصيل ومن الأفضل الانتظار أحياناً حتى يحين الوقت الملائم.

كاد الفضول أن يقتلني وصار النومُ يأتي صدفة، فيما يفكرُ السيد " نزار " ؟ ولماذا يريد رفع أسهمهم بين صفوف الشعب ؟ هل يريد خلق عدواً يزعجُ الحكومة ؟ هل يريدُ التخلص من أحد المسؤولين ؟ كل تلك الأسئلة وأكثر من ذلك احتل عقلي، أدركتُ أنه لا طائل من التفكير الكثير ويجبُ أخذ خطوات أوسع من ذلك حتى أتمكن من حل هذا اللغز، لكني تذكرتُ أن من تحدثتُ معهم فضلوا الصمت وتهربوا من الحديث، كنتُ سأقطعُ شوطاً كبيراً لو تحدث أحدهم عن بعض من الأسرار.

تاريخ السيد " نزار " نفسه ملئ بالغموض، لا أحد يعرفُ فيما يفكر سوى بعض المقربين، تارة يوقفُ المعارضة وتارة يجلسُ معها على طاولة واحدة ليتجاذب أطراف الحديث، في سابق المرات كان يعلمُ المقربين منهُ بما يريد فعلهُ، حتى المقربين منهُ لم يسلموا من غموضه، وصلتُ إلى طريق مسدود وقررتُ غلق هذا الملف تماماً وفضلتُ الانتظار حتى تسنح الفرصة للحديث، فيلم منتصف الليل سيكون كافياً للتخلص من آثار هذا التفكير العميق.

لعبة مليئة بالقواعد الصعبة والشاقة، معارضة تعد نفسها للحديث باسم الشعب ومجموعة بانتظار إشارة من كبيرها، وشعبٌ يقف بعيداً عن مسرح الأحداث يحاولُ دفع الأيام خوفاً من أن تدهسهُ، ليلة جنسية باسم الزواج أفضل من الجلوس وراء التلفاز واستماع كلمات لا جدوى منها مثل " الديموقراطية والحرية " وكل تلك الكلمات التي على شاكلتها، لحم طازج خيرٌ من قراءة العناوين الأولى التي تحمل في طياتها " المعارضة تكسب جولتها الأولى " وماذا بعد أن كسبت جولتها الأولى ؟ وماذا بعد كل تلك الأحاديث التي تجعلُ الدماغ يقاربُ على الانفجار.

الاجتماع التالي لم يتناول أية تفاصيل عن جلسة البرلمان القادمة ولا من قريب ولا من بعيد وتطرقنا للحديث عن قضايا أخرى وبدا واضحاً أن السيد نزار يريد أن يُبعدُنا عن شكل خطته تلك، من حسن حظه لم يلتفت أحد ولم ينطق ولو شخص واحد عن تفاصيل الجلسة القادمة وما القضايا التي ستعرضُ وقتها، يبدو أنهم انتظروا حديثاً منه بشأن تلك الخطة لكن لم يتحدث البتة عنها، خرج الجميعُ ينظرون لبعضهم البعض دون النطق بكلمة واحدة، الكلُ يحاول إيجاد تفسير لما حدث بالداخل لكن بلا فائدة، علينا انتظار الجلسة القادمة للخروج منه ببعض المعلومات عن تلك الخطة.

زلزال ضرب أركان الحكومة، المعارضة ضربت بقوة في الجلسة التالية ولم تترك أية فرصة للحزب الحاكم للرد، ظهرت علامات القلق عليهم وظهر ذلك جلياً في حديثهم المهلهل الذي ظهر ضعيفاً لا حول له ولا قوة، من وراء الشاشات نجلس نحنُ والقلق ليس ببعيد عنا، الكل يخشى على مركزه في المجموعة بل الأكثر من ذلك نخشى أن تنتهى المجموعة للأبد جراء هزة ذلك الزلزال العنيف، بدأت الاتصالات تجري أثناء الجلسة والسؤال المتكرر" هل تشاهد الجلسة ؟ " من كنا نسخرُ منهم في بادئ الأمر أصبحت أناملنأ ترجفُ من آثار صوتهم الصداح.

عناوين الصباح لم تتوقف هي الأخرى عن بث الرعُب في نفس الحكومة ونفوسنا، حاولت الحكومة أن تظهر متماسكة لم يؤثر عليها ذلك الهراء ليلة البارحة، لكن القلق ظهر مع ظهور المتحدث الرسمي باسم الحكومة، عرقٌ يتصبب ونفي متكرر لكل ما قيل على لسان المعارضة ومحاولة بائسة للنيل منهم، للأسف كانت محاولة بائسة ونجحت المعارضة في بث الرعب والخوف داخل أروقة الحكومة، كنا نتابعُ الأحداث ونتابعُ ردة فعل الحكومة واستهجن أغلبنا حديث المتحدث الرسمي، دقائق قليلة تفصلنا عن الدخول إلى الاجتماع بعد تلك الهزة العنيفة.

المفاجأة كانت ردة فعل السيد " نزار " هدوء تام وابتسامة لم نعتد عليها قط، في موقف كهذا توقعنا أن ينسل له الرعب والقلق كما انسل للحكومة، لكنهُ لم يظهر في ردة فعله أية علامة توحي بالقلق أو ما شابه بل على العكس ظهرت علامات السعادة على وجهه إزاء ما حدث ليلة البارحة، رفض أن يجيب على سر الابتسامات والسعادة تلك وبرر أنه شأن شخصي لا علاقة له بالعمل من قريب أو من بعيد، ما زاد الطين بلة هو رفضه التام الإجابة عن مستقبل المجموعة في ظل ارتفاع أسهم المعارضة.

ملامح السعادة كانت واضحة في معسكر المعارضة، شيئاً فشيئاً يعلو صوتهم وتُثبت أقدامهم وتزداد ثقتهم، من كانوا يتحدثون في الظل صارت الشمسُ شاهدة على صدى صوتهم، من كانت اجتماعاتهم ذات حضور ضئيل أصبحت تعج بالحاضرين، كلُ شئ كان على ما يرام حتى الصحافة التي كانت غافلة بالأمس أصبحت تحتفي اليوم، وبمرور الأيام يزداد إيمانهم في تغير سياسة النظام، لقد وضعوا الحكومة تحت الضغط ولابد من اتخاذ طريق الإصلاح عاجلاً أو آجلاً.

كنا نراقب وضع الحزب من بعيد، كدنا نصاب بالجنون ! للمرة الأولى لم نفهم ما يحدث على الساحة وأصبحت وجهات النظر مختلفة، جبهة من الأعضاء تعتقدُ أنها مجرد ضجة وستمرُ سريعاً وجبهة تظنُ أنها مجرد تصفية مع بعض الوزراء دون علم المعارضة، وذهب البعض للأبعد من ذلك وهو احتمالية وجود صفقة تلوح في الأفق بين السيد " نزار " ممثلاً عن النظام وبين المعارضة متمثلة في هذا الحزب، لكن الاحتمال الأخير كان الاحتمال الأضعف في الحقيقة لضعف الأدلة ولحداثة هذا الحزب مما يصعبُ من احتمالية إبرام صفقة كهذه بين الجهتين.

تمرُ الأيام ولا أحد يعلم فيما يفكرُ السيد نزار، الكلُ صار قلقاً فمستقبل الحكومة على المحك ولازال السيد نزار يتحلى بابتسامتهِ المعتادة، الحديث عن جلسات البرلمان كان قليلاً والحديث عن المعارضة أصبح نادراً، فقط بعض القضايا معدومة الأهمية كنا نتناولها أثناء اجتماعاتنا، لم يكن مسموحاً حتى بالسؤال بذلك الشأن وهذا ما زاد من الشك في نفوسنا، الكل بات يخرج من تلك الغرفة وعلى وشك الانفجار من شدة الغضب، لم يسبق أن حملت قضية في تاريخ المجموعة كل هذا التعتيم الشديد !

بدأ كل فرد في المجموعة التحرك على حدى في سبيل معرفة ما يدورُ خلف الكواليس، هذا لم يكن مسموحاً به طبقاً لأعراف المجموعة المتعارف عليها ولكن لم يترك السيد نزار أي خياراً آخر، توقعنا أن تكون الصحافة مفتاحاً هاماً في تلك القضية، بعض الصحفيين المقربين منه حتماً يملكون ولو معلومة واحدة لصمته التام عن ما يدور داخل أروقة البرلمان، لكن المفاجأة كانت في ردة فعل الصحفيين الذين أنكروا تماماً معرفتهم نوايا

صديقهم المقرب، ازدادت القضية تعقيداً وقلت الخيارات المتاحة لدينا، حاولنا معرفة أية معلومة من بطن الحوت متمثلة في الحكومة ولكن دون جدوى.

قلت أسهم السيد نزار داخل الحكومة، بعض الوزراء أظهروا غضباً شديداً تجاه هذا الصمت الغريب ! كانوا يعتقدون أنه عقد صفقة مع أولئك المعارضين لتشويه سمعتهم أمام الشعب ومن ثم الإطاحة بهم قريباً للجلوس في منازلهم، حاولوا مراراً وتكراراً من خلال شبكة علاقاتهم فهم ما يدورُ داخل عقله ولكن كما أخفقنا نحنُ أخفقوا هم، كل همهم ذلك الكرسي القابع وراء هذا الباب المغلق، كل همهم هذا المكتب الكبير وتلك الموظفة الجميلة صاحبة الابتسامة الساحرة، لم يظهروا اهتماماً بحديث المعارضة عنهم ولم ينصتوا للنصيحة بضرورة الإصلاح، رائحتهم الخبيثة بدأت تفوح أكثر من اللازم ويبدو أنه وقت الحساب.

حاولنا نحنُ أيضاً الحديث مع هؤلاء الوزراء لحثهم على القيام ببعض الخطوات اللازمة لكسب ثقة الشعب، لا فائدة تذكر من حديثنا معهم فنحنُ أمام كلاب يسيلُ لعابها وتلهث خلف هذا الكرسي، خرجنا من طاولة الاجتماع معهم ونحنُ واثقون بأنهم يقضون ساعاتهم الأخيرة كوزراء في تلك الحكومة، دار حديثٌ مع أحد أعضاء المجموعة بعد ذلك الاجتماع وبدأت حديثي قائلاً " يبدو أنهم فقدوا عقلهم تماماً وأصبحوا خارج السيطرة " ضحك كثيراً قبل أن يرد " معذرة خيرت فأنا لا أسخرُ منك يا صديقي ولكن ضحكاتي تلك على موقفهم، لا أخفي عليك أنني أشفقُ عليهم ولكن تلك هي الضريبة عندما تفوحُ رائحتُكَ، حديثهم هذا قد يلقي بهم في مشفى للأمراض العقلية "

كان بطل تلك الحكاية على دراية كاملة بما نقومُ به من جهة ومن ما يقومُ به بعض الوزراء من جهة أخرى، موعد الاجتماع اقترب ولازلنا لا نعلمُ نوايا السيد نزار، مفاجأة كبرى تلوح في الأفق بمجرد دخولنا من باب هذه الغرفة، نبرةٌ تحمل في طياتها بعض السخرية وحديثٌ بدأ لتوه " محاولات مع الصحفيين هنا وهناك وجلسات مع بعض الوزراء الفاسدين، لو أنكم تحليتم ببعض من الصبر لكانت المعلومات الآن جالسة أمام حضراتكم، ولكن إنها آفة بنو البشر وهي التسرع والعجلة من أمركم، انتهى الاجتماع وعلى حضراتكم الانتظار حتى أصلح ما أفسدتموه بغبائكم هذا "

صمتُ رهيب وشكُ ازداد فور الخروج من الاجتماعُ، وانفجارُ أصبح وشيكاً أكثر من أي وقت مضى، وأسئلة أخرى بحاجة للإجابة عنها، من أين للسيد نزار بكل هذا القدر الهائل من المعلومات ؟ قد يخبره الصحفيون المقربون بما نسعى من أجله ولكن هل أخبره الوزراء كذلك ؟ كيف وهم بالأساس على خصام تام معه ؟ هل هناك أحد من الأعضاء من كان يحضرُ معنا وفي نفس الوقت يخبرهُ خططنا ؟ وكيف أفسدنا الأمور ؟ وكيف سيتم إصلاحها ثانية ؟ كل ذلك وغيره بدأ يسيطرُ على عقولنا، الأهم من كل هذا أننا أضعنا فرصة ثمينة كانت في المتناول في سبيل اللاشئ.

دبت الحيوية في نفوس الوزراء مؤخراً وبعد محاولات عديدة قاموا بعديد الإصلاحات سعياً منهم في البقاء، يبدو أن الكفة تعادلت بعد تلك الإصلاحات وهنا فهمنا جملة السيد نزار عن محاولة إصلاح ما أفسدناه، تلك

الإصلاحات كانت الشئ الذي أفسد خططه وأعاد الأمور من جديد لصالح التعادل، زادت الثقة في معسكرهم وأصبحوا على استعداد للذهاب إلى البرلمان ملبيين دعوة المعارضة للمثول أمامهم والرد على تساؤلاتهم، بل ومحاسبة ذلك الصوت على كل ما صدر في حقهم من اتهامات.

تسلل القلق إلى الحزب من جراء ردة فعل الوزراء، أحسوا أنهم فقدوا السيطرة على الأمور بعد أن أحرزوا تقدماً كبيراً داخل البرلمان والأهم من كل هذا هو ردة فعل الشارع بعد أن استمعوا لهم ووقفوا بجانبهم، من المحتمل أن يعود الشعب إلى صف الحكومة مرة أخرى عقب ما قام به الوزراء، بات الكرسي في أمان بعض الشئ بعد أن كان على شفا حفرة من السقوط للأبد، صرنا في موقف لا نحسدُ عليه فنحنُ وقفنا أمام خطط رأس المجموعة وبات محتملاً أن يطيح بنا خارج المبنى الكبير.

اختفت الابتسامة من على وجههِ ولم يعد يتحمل النظر إلينا مطلقاً، لم نعتد عليه بكل هذا الحزن من قبل، كانت الاجتماعات في تلك الفترة قصيرة جداً ولم تكن تحتوى على أية قضايا مثيرة للاهتمام على الإطلاق، لقد أسدينا معروفاً كبيراً للوزراء دون أن نعلم، صرنا مطالبين أمامه بضرورة التحرك من أجل إعادة الأمور إلى نصابها وتهديد مكان هؤلاء الوزراء ولكن كيف ؟ كنا نخشى حتى مجرد التفكير بعد فساد الأمور برمتها من قبل، انهارت المعنويات تماماً وظهرنا وكأننا مجرد هواة لا يعلمون أبجديات العمل.

هل نتحركُ إلى مقر الحزب ونتفاوض معهم من أجل ضرب الوزراء ؟ ولكن كيف نضمنُ أن السيد نزار عقد معهم صفقة من الأساس ؟ هل نمضي قدماً للإعلام من أجل تشويههم ؟ بالطبع يملكون بعضاً من النفوذ هناك ولن يكون سهلاً علينا إسقاطهم، القضية برمتها ذهبت إلى طريق مسدود ويبدو أنه علينا الانتظار حتى تتضح الرؤية الكاملة لمعالمها، صف المنتظرون للطعام كان بانتظارنا بعد أن كنا نحنُ الطباخون، كانت تلك أوقات عصيبة علينا كأعضاء داخل مجموعة الغربان.

يبدو أن القدر كان يحملُ مفاجأة سارة لنا، ملف فساد كامل لهؤلاء الوزراء سيطيحُ بهم خارج الحكومة ولربما سيودي بهم خلف القضبان، وللمرة الأولى تقريباً تشاركنا مع الحزب الفرحة ولربما تكون الأخيرة، يوسف ونضال عادت لهم الابتسامة من جديد بعد أن غابت لمدة قصيرة ودار حديثُ لطيف بينهم، بدأ يوسف حديثه قائلاً " هذا الملف حتماً سيقضي عليهم نهائياً وسنعود كما كنا أقوياء " نضال لم تخفي قلقها وقالت " أخشى أن يكذب الإعلام والحكومة هذا الأمر ويذهب مجهوداتنا أدراج الرياح "

اختلف يوسف معها هذه المرة ورأى أن مصلحة الحكومة والنظام هي إقالتهم والتخلص منهم في أسرع وقت ممكن، كانت الجلسة هذه المرة قوية وأبلت المعارضة بلاءً حسناً أمام أعضاء البرلمان، ولم يمر كثيراً على تلك الجلسة حتى حملت أشعة الشمس الذهبية في جعبتها الأخبار السارة لنا وللمعارضة على حد سواء، إقالة الوزراء الذين طالهم الفساد وتم تكليف وزراء جدد مهمة القيادة، تنفسنا الصعداء وصعدت معنوياتنا السماء بعد أن قاربت على المساس بالأرض وعادت الثقة مرة أخرى.

" كنتم على وشك السقوط إلى الهاوية أيها الغربان الصغار ! " بتلك العبارات افتتح السيد نزار الاجتماع الذى تلى إقالة الوزراء قبل أن يدير ظهره لنا كاشفاً عن ابتسامة غابت طيلة الفترة الماضية، عرفنا من خلاله تفاصيل ما كان مخطط لهُ وكيف نجح في إصلاح ما أفسدناه نحن، استكمل حديثهُ قائلا " هؤلاء الوزراء كان

لابد من رحيلهم في أقرب فرصة تتاح، لم يكن النظام بحاجة إلى مزيد من القيل والقال ورأى أن الإطاحة بهم هو الحل الأفضل واستغل هجوم المعارضة " .

قبل أن يكمل حديثه قاطعه أحد الزملاء موجهاً له سؤال بلسان الأعضاء " وماذا عن المعارضة ؟ نحنُ نعلم أنها ليست معارضة صورية وأنها معارضة حقيقية فكيف تم لهم السماح لهم بهذا الهجوم الغريب على الحكومة ؟ " ضحك السيد نزار كثيرا قبل أن يجيب " توقعت أن أسمع هذا السؤال، أعضاء مثلكم لابد وأن يسألوا هذا السؤال المهم، لحسن الحظ تزامنت خططنا مع هجوم المعارضة وللأمانة كان الأمر من قبيل الصدفة التامة ولم يكن هناك أي اتفاق بالمرة مع هذا الحزب ".

قطعنا شوطاً كبيرا في معرفة ما دار خلف الكواليس لكن يتبقى جزء صغير لم تتضح ملامحه بعد، جزء قد يقلب موازين المجموعة رأساً على عقب، لازالت هناك خطة الأمل التي تحدث عنها السيد نزار مسبقاً وكان هدفها رفع أسهم المعارضة متمثلة في الحزب لدى الشعب ولكن ماذا بعد ؟ ها قد ذاع صيتهم في الشوارع وصارت كلماتهم رنانة قوية تسمعُ الأصم، تاريخ المجموعة مع المعارضة لا يبشرُ بالخير ليوسف ونضال وزملائهم في الحزب، ولكن لحد اللحظة فالصورة ضبابية بالكامل.

لم يتوقف الحزب عن العمل وقطعوا أفراحهم تلك وقرروا تجهيز ملفات أخرى ضد الوزراء الجدد ! خطوة كانت غريبة بعض الشئ منهم ولكنهم كانوا يعتقدون أن الوزراء الجدد لا يختلفون كثيراً عن سابقيهم ولهم صولات وجولات في عالم الفساد، وهنا كانت نقطة التحول في مستقبل هذا الحزب، استعدوا كعادتهم للجلسة القادمة بالعبارات القوية والكلمات المرتبة ولكن على ما يبدو أن حديثهم هذا على غير المتوقع لم يرق للموجودين داخل أروقة البرلمان واعتبروه تحاملاً على الحكومة !

يبدو أن المصائب لا تأتي فرادى، فحتى الإعلام الذي كان يمدحُ بالأمس بات ينتقدُ تلك الكلمات، وفجأة تراجعت أسهمهم داخل البرلمان ومن ثمَّ عند جموع الشعب، لكنهم رفضوا رفع الراية البيضاء مبكراً وحاولوا التعويض في جولات أخرى عساهم تدارك ما فاتهم، بمرور الجولات ينخفضُ صدى صوتهم وكأنهم عادوا إلى نقطة الصفر، وقتها أيقنوا أن استمرار الهجوم كان خطئاً وقعوا فيه وكان لابد من الهدوء والتريث قليلاً وبعدها يأتي الهجوم ثانية ولكن لا جدوى من العتاب فقد فات وقت المعاتبة.

عادت الجلسات تدار بواسطتنا بعد أن غضينا الطرف لمرات ومرات، بدأ الحزب يشعر بالاختناق، أحس وكأنه سُلب الحرية تماماً، ظهر أمام العامة كاذباً ضعيفاً، فقد ثقة الشباب قبل الكبار بل والأكثر من ذلك بدأت حملات ضدهم ولدت من موطن المجموعة، تعطيل كامل لمصلحة المواطنين هكذا كانت الكلمات التي روجت لها تلك الحملات، حزب فقد السيطرة تماماً على مجريات الأمور، مهاجمة الوزراء الجدد لم تأت أكلها وباءت بالفشل وعليهم الاعتراف بالهزيمة، كل ذلك حدث دون تدخل قوي يذكر من المجموعة، كنا نقفُ من بعيد نشاهدُ سقوط هذا الولد الصغير من على حافة السرير.

بدأت معالم خطة الأمل تتضح أكثر فأكثر ومع قدوم الاجتماع المرتقب كنا قد وضعنا أيدينا على الجزء المفقود، " تلك هي خطة الأمل أيها الأصدقاء، رفع الثقة في نفوسهم شيئاً فشيئاً، إيهامهم بحصد النجاحات نجاحاً تلو الآخر، إيصال أصواتهم إلى جموع الشعب وبعدها تنقلب الآية، زرع الشك في نفوسهم ومن ثمَّ ينخفضُ صدى صوتهم وبعدها تُوأد كلماتهم، زُهقت أحلام يوسف ونضال أسرع من المتوقع، في يومٍ قاربوا ملامسة السُحب وفي يومٍ ارتطمت رؤوسهم بالأرض " انبرى الجميع بالتصفيق للسيد نزار وعلت الابتسامة وجهه وفهم الجميع القصة الكاملة.

في الجانب الآخر تلمحُ الوجوه الشاحبة بالقرب من مقر الجزب، من كان موطناً للسعادة صار موطناً للحزن ومن كان بيت الشباب أصبح بيت العنكبوت، ليلة عصيبة أخرى مرت على الحزب حين قررت نضال الرحيل، " كانت أياماً جميلة معكم هنا، حلم عشناه سوياً، فرحنا معاً وحزنا معاً، أتمنى لكم التوفيق في المرحلة المقبلة أصدقائي " في الحقيقة أصابت تلك الكلمات الجميع بالقشعريرة عدا يوسف الذي تملكه الغضب وأحست نضال بذلك قائلة " يبدو أن يوسف غاضب من كلماتي " أكتفى يوسف بالتحديق فيها ولم يقل سوى جملة مكونة من كلمتين " الهروب الكبير " .

جرح غائر ذلك الذي أصاب نضال عقب سماعها لتعقيب يوسف، لم تستطع السيطرة على نفسها وبدأت تذرف الدموع وشعرت بأن وجودها لم يعد مرغوباً فيه ولاذت بالفرار معلنة معها نهاية حلم الحزب، صمتُ رهيب ملأ المكان والكل بدأ يهرب تدريجياً، فقط يوسف من تبقى من الأعضاء جلس يفندُ جنبات الحزب متذكراً كل ما حدث هنا، كان آخر الراحلين من المقر واختفى ضوء اللافتة الكبرى التي تحمل عبارة " معاً لغدٍ أفضل " ثم تذكر يوسف حديث والدته المتكرر عن الزواج، خسارة سريعة لمعركة الزواج التقليدي التي خاضها يوسف مع عائلته.

في اليوم التالي كانت نضال تعد أغراضها للسفر خارج البلاد، وجه شاحبُ وعينان مليئتان بالإرهاق وكأنهما لم يتذوقا طعم النوم منذ مدة طويلة، مرة أخرى بدأت تذرف الدموع ولكن هذه المرة هي دموع السفر خارج موطنها الذي تربت فيه، لقد خسرت معركة التغيير مع والدها، لطالما أقنعها بصعوبة التغيير وأنه لابد لها من الالتحاق به في الخارج، يوسف أخيراً رضخ لوالدته وقرر الاستجابة لطلبها المتكرر وهو الزواج، هو الآخر خسر معركة حارب فيها بكل ما يملك من قوة، ظل يبرر ويبرر ولكن حان وقت المُسكنات.

على الورق فالحزب يزاول عمله أما على أرض الواقع فقد أصبح من الماضي، فقط يوسف يذهب على فترات متقطعة وقليل من الأعضاء مستمرون فقط حرصاً على مقعدهم اليتيم في البرلمان، لا كلمات تُعد ولا حديث يُجهز ولا حناجر تُلقي، وكأنه بيت مهجور تمر عليه بسيارتك مسرعاً خوفاً من هجمات الشياطين عليك، حتى جلسات البرلمان تحولت لجلسات بلا طعم ولا رائحة، فقط بعض الوجوه المقززة التي تقوم بتقديم فروض الولاء والطاعة للنظام عبر الدفاع عنهُ متى سنحت الفرصة .

عاد الهدوء ثانية إلى طاولة الاجتماعات، أجواء المزاح والمرح تغلبت على الطابع الجدي، في الواقع كانت الاجتماعات في تلك الفترة من باب الروتين فقط لا أكثر، الأجواء العامة كانت تتسم بالهدوء التام، كلُ شئ كان تحت السيطرة، فقلت ساعات الانعقاد وتارة يلغى الاجتماع وتارة أخرى يلغى اجتماعين، كانت تلك الفترة الأكثر هدوءً في تاريخ المجموعة، فرصة أخرى مواتية لإراحة الذهن من عناء التفكير في الأسئلة والأجوبة وكذلك فرصة للجلوس أكثر مع العائلة الذين قاربنا على نسيان وجوههم.

سابقاً فترات الهدوء تلك كانت تمثل الفرصة الوحيدة لإحياء الضمير الإنساني من موته، اقترابُ أكثر من العامة والشعور بمعاناتهم يمثلُ ذلك النقطة المضيئة في جسد تملكهُ الظلام، فترات الهدوء في تلك المرة حملت طابع القسوة ونظرات التعالي والكِبر، غريب ذلك التحول الرهيب الذي طرأ على شخصيتي، من رجلٍ يحاولُ مراراً وتكراراً حفظ ما تبقى من إنسانيته لرجلٍ لا يلقى اهتماماً لهؤلاء المارة بالشوارع والطرقات، عين الرحمة والشفقة هي ذاتُها من صارت عين الاحتقار، من كانوا يستحقون الاهتمام بمشاكلهم وسماع معاناتهم باتوا لا يستحقون حتى جرعة الماء التي تروي عطشهم ولا كسرة الخبز التي تشبع جوعهم.

طبيعتي الفضولية أبت حالة الخمول الذهنية تلك وحملت معها سؤال جديد لم يأت إلى مخيلتي مسبقاً، كيف ستكون نهاية كل هذا ؟ هل سيأتي أناس يحتلون موقعنا داخل المجموعة ؟ وإن استمر عمل المجموعة هل سنبقى صغاراً خلف الكواليس ؟ لكن قواعد الغربان تحرمُ تلك الأسئلة وشبيهاتها حتى لا تقع في المحظور، الطموح الزائد وغير المشروع قد يودى بك خارج المبنى تجلسُ في بيتك مرتدياً جلباباً واسعاً بانتظار نشرة التاسعة مساءًا وكأنك تجاوزت السبعين من عمرك.

قواعد المجموعة لم تكن كافية لإقناع ذهني بأن يكف عن التفكير بتلك الأسئلة، لكن تلك المرة احتفظت بها لنفسي ورفضت مشاركتها مع أي عضو من الأعضاء ولا حتى مع عائلتي، لكن الحسنة الوحيدة في اختفاء الأجوبة هو بقاء الشغف كما هو، نداء المجموعة أنقذني من السقوط في محيط الشك، اجتماع عاجل في وقت متأخر من الليل وفي جو بارد، عادة الاجتماعات المتأخرة تحملُ معها قضية شائكة وحدثُ جلل لا يتحمل التأجيل حتى ساعات الصباح الأولى.

" بالطبع أنتم مندهشون من الانعقاد في تلك الساعة المتأخرة من الليل ولكن كما يقال للضرورة أحكام ! " افتتح السيد نزار تلك الجلسة المفاجأة بتلك الكلمات، ظنت الأغلبية أن ثمة حادثُ هنا أو هناك أودى بحياة العشرات، أو واحد من رجال النظام تعرض لخطر ما، حدثُ من نوع آخر ذلك الذي سردهُ لنا السيد نزار " منذ ساعات قليلة وفي مباراة لكرة القدم شنت إحدى الجماهير هجوماً حاداً وعنيفاً على النظام ولم يكن من رجال الأمن سوى اعتقال بعضهم والبرامج الرياضية الآن لا تتوقف عن الحديث "

مثلُ تلك الانتقادات عادة لا تمثلُ أي خطر على النظام على الإطلاق، لكن الغريب في الأمر أنها أتت من فئة لا علاقة لها من قريب أو من بعيد بالسياسة، هجوماً غير مفهوم وغير مبرر خصوصاً في تلك الآونة التي اتسمت بالهدوء الشديد، كان الشغل الشاغل هو معرفة الدوافع الخفية وراء تلك الهتافات وهل هي مخطط لها أم جاءت من قبيل الصدفة ؟ حاولنا أولاً معرفة ما دار قبل المباراة وكيف تعامل رجال الأمن مع أولئك المشجعين، في الحقيقة التقرير الذي جاء على طاولتنا لم يحمل أخباراً سارة على الإطلاق.

التقرير حمل في طياته تعامل ابتعد كل البعد عن معاني الإنسانية مع هؤلاء المشجعين، لذلك رجحنا أن الدافع الأكبر وراء هتافاتهم هو تعامل رجال الأمن القاسي معهم، سريعاً كان القرار بالإفراج عنهم والمبيت في حضن ذويهم وإنهاء تلك القضية سريعاً، بالإفراج عنهم كنا قد اعتقدنا أن تلك القضية التي أرقت ليلتنا آنذاك قد انتهت للأبد ولكن تبعها هتافات شبيهة ضد النظام وهذه المرة من مشجعين آخرين، هل كرر رجال الأمن تعاملهم الفظ مع المشجعين؟ كيف وقد خرجت تعليمات تفيد بتهدئة الأجواء معهم ؟ التقرير القادم أصاب السيد نزار بنوبة غضب شديدة لم نرى لها مثيل مطلقاً.

" هذا التقرير يفيد بأن رجال الأمن هذه المرة التزموا بأقصى درجات ضبط النفس بل وطالهم الهجوم كما طال النظام، لا أعرف ماذا يريد هؤلاء الشباب، كل من تم القبض عليها خرج ليلتها فلماذا كل ذلك الهجوم ؟ " هكذا كان تعقيب السيد نزار على هذا التقرير، حاولت تهدئة الأمور محدثاً إياهُ قائلاً " قد يكون تأييد بسيط لزملائهم من المشجعين وانتهى أمره " اتفق كثير من الأعضاء مع وجهتي نظري تلك وأقروا أنها مجرد هتافات صبيانية ولن تتكرر في المستقبل القريب، هدأ السيد نزار ويبدو أنه أقتنع بعض الشئ بحديثنا واقتنع هو الآخر بأنها لن تتكرر مجدداً.

فئة أخرى تماماً من المشجعين انضمت هي الأخرى في قافلة الهجوم على النظام، رجال الأمن طبقاً للتعليمات فقد التزموا أقصى درجات ضبط النفس مرة أخرى، الهتافات كانت طوال المباراة ولم تتوقف حتى بين شوطي المباراة، أصرت التعليمات المقدمة لرجال الأمن على الالتزام بضبط النفس والهدوء الشديد، كانت تلك القضية حديث الساعة ليس في الأوساط الرياضية فحسب بل حتى الأوساط السياسية والاجتماعية على حد سواء، برامج التليفزيون أصبحت تخصص فقرة كاملة للحديث عن تلك الظاهرة وأسباب تفشيها بهذا الشكل الواسع بين المشجعين.

الآلة الإعلامية التابعة لنا بدأت هي الأخرى تشنُ هجوماً مضاداً على المشجعين، الهجوم كان مرتباً له من قبلنا قبل أن يوزع على غالبية العاملين بالإعلام، في البداية انتقاد ما حدث وأن رجال الأمن في خدمة الشعب وهذا الكلام الروتيني ومن ثمَ الخطوة الأهم في ذلك الهجوم، تفسير ما حدث على أنه ظاهرة دخيلة على ملاعبنا وأنه منافي تماماً لما تربيت عليه الأجيال القديمة البسيطة وأن الأطفال والسيدات قد يشاهدون مثل تلك الهتافات المسيئة، ثالثاً لا مانع من بعض الهجوم على شخص الشباب وبعض الاتهامات بأنهم شبابُ منحلُ وفاسد ولا يعرف أين مصلحتهُ.

استمرت الآلة الإعلامية في الهجوم ليل نهار ولم تترك فرصة إلا وهاجمت تلك الظاهرة، البرلمان هو الآخر بدوره انتقد ما حدث وطالب بتعاملٍ أشد حزماً مع الفئة الخارجة التي تهتفُ وتسب، بعد كل هذه الترتيبات

اعتقدنا نحنُ أعضاء المجموعة أن تلك الظاهرة في طريقها للاختفاء وأن هؤلاء الفتية لن يهاجموا النظام مرة أخرى، بناءً على تلك المعطيات السابقة قررنا غلق ملف تلك القضية والتركيز على قضايا أكثر أهمية بعيداً عن صخب الملاعب، لكن على ما يبدو أن كل هذا الهجوم المضاد لم يؤت أكلهُ وعلى النقيض تماماً فقد زادهم قوة وصلابة كانت فريدة من نوعها !

هذه المرة لم يسلم الإعلام من الهجوم ونال نصيب الأسد من الهتافات والسباب، ولا مانع من بعض الهتافات في حق النظام وكذلك البرلمان، لم يكن من رجال الأمن سوى بدأ الهجوم على تلك الفئة واعتقل الكثير منهم وولى البقية بالفرار من بطش رجال الأمن، حالة من الجنون ممزوجة بحالة من الغضب سيطرت على مبنى المجموعة، تعامل رجال الأمن سيزيدُ حتماً من وتيرة الهجوم التي نحنُ في غنى عنها، وها قد فُتح هذا الملف من جديد بعد أن كان قد ذهب إلى سلة المهملات !

اجتماعٌ مهم عُقد في أروقة المجموعة لمناقشة تلك القضية مجدداً والبحث عن حلٍ نهائي لها، بدأ السيد نزار كالعادة بالحديث بنبرة يسودها الغضب " يبدو أن هؤلاء الفتية مستمرون في هجومهم هذا وكلما زدنا من هجومنا المضاد كلما ارتفع صوتهم، يبدو وكأنه تحدي لنا، نجتمعُ اليوم لغلق ملف تلك القضية نهائياً فالنظام قد ضاق ذرعاً من تلك الهتافات " بمجرد نهاية حديثه حتى بدأنا في سرد الحلول وعرضها على السيد نزار منها أن نقلل عدد الحضور ومنها من رأى منع الجمهور ومنها من رأى تأجيل المباريات كنوع من التهديد للجماهير لكن تلك المقترحات لم ترق له كلية وصرخ فينا قائلاً " هذه حلول صعبة التطبيق على أرض الواقع، سنحاول معهم بطريقة أكثر ديموقراطية ولو فشلت فلا يلوموا سوى أنفسهم "

خرجت الأوامر للإعلام تحثهم فيها على تغيير نغمة الحديث عن الجمهور تماماً، عوضاً عن الهجوم ووصفهم بأنهم فئة فاسدة تم تقديمهم على أنهم أولادنا ويجب علينا التعامل معهم بطريقة جيدة والحديث معهم وفهم ما يدورُ داخل عقولهم عن طريق المناقشة المتحضرة، بل وحاولنا ترتيب عدة مكالمات تليفونية بين وسائل الإعلام وبعض من المشجعين لتقريب وجهات النظر، وبالكاد استطاعت وسائل الإعلام إقناع أولئك الشباب بالحديث عبر الهاتف لمعرفة الأسباب والدوافع وراء تلك الهتافات.

كان لابد من الزج باسم مقدم يحظى بقبول ولو ضئيل عند هؤلاء الشباب حتى يتسنى له ولنا الخروج بكل التفاصيل الممكنة منهم وبالفعل رُتب لكل هذا وبدأ مقدمُ السابعة مساءًا مكالمتهُ " مساء الخير علاء نشكركُ أولاً على قبولك الحديث معنا عبر شاشتنا المتواضعة ثانياً هل تعامل رجال الأمن معكم هو السبب الرئيسي لكل تلك الهتافات ؟ أولاً نحنُ شباب يحب هذا البلد عكس ما تروجُ الحكومة وعكس ما تروجونه أنتم الإعلام ثانياً تعامل رجال الأمن معنا ما هو إلا جزء من سياسية قمعية يمارسها النظام، رجال الأمن هم فقط آلة بيد النظام تمارسُ البطش فكان لابد من خروج بعض الهتافات فقد سئمنا هذا الوضع السخيف "

أُستكمل الحديث وهذه المرة بادرُ المقدم بمبادرة تقربُ وجهات النظر بين الطرفين قائلاً " ما رأيك في عقد جلسة بينكم أنتم الشباب وبين بعض من ممثلي النظام لوقف ذلك الضجيج ولمعرفة العراقيل التي تواجهكم ؟ النظام لن يجلس ويتكلم بلغة الديموقراطية فهو لا يعرفُ سوى لغة الهجوم والقمع وحتى وإن جلس فستكونُ الوعود كاذبة لا قيمة لها " وانتهى الحديث وظهر على ما يبدو أن هؤلاء الفتية رافضون تماماً للجلوس أمام رجال الأمن والنظام وأنهم مستمرون في الهجوم حتى تتغير لغة القمع على حد تعبيره .

مبنى المجموعة على وشك الانفجار، لم يسبق وأن تجرأ أحدُ على الوقوف أمام النظام ومهاجمته كل هذا الهجوم، اتضح لنا أن تلك القضية ربما تأخذ وقتاً أطول مما اعتقدنا، لغة التحذير فشلت ولغة الحوار فشلت وهذا ما أصابنا وأصاب السيد نزار بحالة من الغضب الشديد، كانُ القرار قد اتخذُ وخرج للإعلام بمعاودة الهجوم ضد أولئك الشباب ثانية واتهامهم بأنهم من رفضوا الحوار شكلاً وموضوعاً وهذه فرصة جاءت على طبقٍ من ذهبٍ لرجال الأمن لشن الهجمات في حالة تكرار تلك الهتافات.

بعيداً عن كلُ هذا الصخب كله تقفُ نضال بوجهٍ شاحبٍ تنتظر البائع ليعطي لها باقي النقود لتعاود الذهاب إلى بيت والدها ومن ثُمَ كيل المدح يومياً لتلك البلد التي تقبعُ فيها نضال، يعتريها الملُ من تكرار كلمات والدها وأنها قد جاءت في الوقت المناسب لكي تكون شاهدة على كل هذا الرقي، فقط وقت النوم هو المنقذ الوحيد لها من عباراته الرتيبة، لكنهُ على قدر ما يحميها منهُ على قدر ما يذكرها بذكريات تبدأ بعدها ذرف الدموع تلقائياً قبل أن يخطفها النومُ من قبضة يد الحزنُ والملل.

عودة مرة أخرى إلى الصخب ولكن هذه المرة في بيت يوسف، أطفال تركض هنا وهناك وامرأة تقفُ في منتصف البيت تصرخ بعلو صوتها أملاً منها في إيقاف ذلك الضجيج، بدا عليها ملامح الكبر مبكراً كيف لا وهي أمُ لأربعة أطفال، تلك الأمُ ومعها حفنة الأطفال تكون أخت يوسف التي تكبرهُ في العمر جاءت خصيصاً من بيتها بدعوة من والدتها لإقناع يوسف بفكرة الزواج، دعوة من امرأة عجوز ترغبُ في رؤية ابنها داخل بيته قبل أن تفارق الحياة، ترغب في رؤية صغار يركضون من حولها وتعطيهم حلوى العيد.

أخته كانت تعلمُ مسبقاً أن فكرة فرصة اقناعه تكاد تكون معدومة، ولكن نزولاً عند رغبة والدتها لا مانع من محاولة عساها تجدي نفعاً مع هذا الشاب العنيد، " أريد أن أصبح عمة يا يوسف " ببعض من المزاح بدأت كلماتها حتى تعرف مكنونات صدر أخيها، ابتسم ابتسامة عريضة قبل أن يرد " لازالت والدتي ترسلكُ من أجل إقناعي بفكرة الزواج، لن تتغير تلك المرأة العجوز لازالت تخشى عليَ الوحدة، فلتكوني مطمئنة أختاه فعلى ما يبدو أن الشاب العنيد الجالس أمامكم قد اقتنع أخيراً بحديثكم " هكذا انهى حديثه بنبرة الإحباط واليأس وإقرار منه برفع الراية البيضاء أمام الحياة.

ولى مسرعاً إلى غرفته بعد تلك الأحاديث وجلس يتذكر طموحاً رسمهُ لنفسه، يتذكر طريقاً شقه لذاته، كل ذلك وأكثر ذهب أدراج الرياح، وقف على النافذة المطلة على الشارع حاملاً كوباً من الشاي كأنه متزوجٌ يفكر في نفقات أولاده، تبقى له فقط أن يكون مدخناً حتى تكتمل فصول هذا المشهد القاتم، ولكن لما العجلة ؟ فغداً يتزوجُ وينجب الأطفال وسيقفُ بنفس الشاكلة يحملُ كوب الشاي ويفكرُ كيف سيقنعُ المدرسة أن تقبل بتقسيط المبلغ، يلهثُ هنا وهناك من أجل حفنة من المال تلقى بأبنائه جنباً إلى جنب مع ذوات العيون الزرقاء.

أثناء ما كان يوسف يفكرُ في مستقبله كانت شاشات التلفاز تنقل على الهواء مباشرة هتافات الجماهير مرة أخرى ضد النظام ورجال الأمن والإعلام، فقط لم يتبق سوى أن يهتفوا ضد أنفسهم في نهاية المطاف، تعامل رجال الأمن هذه المرة كان بالاعتقال لمن تلاحقهُ أيديهم، هجوم وهتافات وخروج عن النص كلها اتهامات

كافية لتبرير حملة الاعتقال تلك، الإعلام بدوره وقف مع رجال الأمن فطريقة الحوار لم تجد نفعاً مع هؤلاء الفتية وكان لزاماً أن يتم التعامل معهم بنوعٍ من القسوة والعنف.

اليوم التالي كان نفس المشهد يتكرر تنديد من زملائهم الآخرين وهجومُ يصف النظام بالقمعي، اتضح لنا أن هذا الملف قد تطول مدته على طاولة الاجتماعات وأنها معركة من ذوات النفس الطويل، قررنا أن نغض الطرف قليلاً عن تلك التجاوزات حتى يتسنى لنا التركيز على قضايا أكثر أهمية، تحسين صورة الحكومة كان على رأس الأولويات للمجموعة، فصورتها بدت مهتزة قليلاً عقب ملف الوزراء، ومن هنا جاءت الفكرة لعدة مشروعات شبابية تعيد ثقة الشعب في حكومته، وبالفعل بدأ الترويج لتلك المشروعات عن طريق الإعلانات في الصحف وكذلك عبر شاشات التلفاز التي يشاهدها الملايين.

لم تتوقف المجموعة عند فكرة المشروعات الشبابية فحسب بل فكرت في جذب الانتباه العام عن طريق خلق فرص عمل حقيقية للشباب واستغلال طاقاتهم، بدأت بعض المصالح والمؤسسات الحكومية في نشر إعلانات للشباب ولاقى الإعلان استحسان الشعب وخصوصاً الفئة الشابة، المرتبات كانت العائق الوحيد في تطور تلك المشروعات وهذا ما كان يخيف بعضهم ويجعله يفكر في الأمر مرتين قبل أن يقدم على تلك الوظيفة ولكن وعود الحكومة بتحسين المرتبات في حالة إثبات الكفاءة كان يثلجُ صدورهم وينزل السكينة عليهم.

" إنها أجمل فترات المجموعة سيد نزار" هكذا علقتُ في بداية اجتماعنا ليلة الثلاثاء، " نعم خيرت فالحكومة اكتسبت الثقة من جديد وكذلك الوزراء الجدد وبالطبع لن نتوقف عن هذا الحد " تعليقاته تلك لم تكن فعلا سوى البداية قبل أن يكمل حديثه قائلاً " هناك عديد المشروعات التي ستنفذ قريبا في المدن الكبرى وكذلك القرى الصغيرة وستنشر عنها الصحف لاحقا " كان ذلك الاجتماع بمثابة ترسيخٍ لفكرة البقاء أطول فترة ممكنة في سدة الحكم، ظهرت الابتسامة على جميع الأعضاء وأيقنوا جميعاً أن مقاعدهم في أمان وأنهم بعيدون كل البعد عن مرحلة الخطر.

بالطبع لم تفوت الصحف فرصة الاحتفاء بمشروعات الحكومة ولا بفرص عمل الشباب وأفردت صفحات كاملة للإشادة بتلك الخطوات، البرامج التلفزيونية بدورها جلست بالساعات تستضيف الخبراء وتكيل المدح وتناقش مدى تأثير تلك المشروعات على الاقتصاد، استعادت الحكومة هيبتها المفقودة وأزالت آثار ملف الوزراء بكل ما فيه من فساد، كانت بمثابة الصلح مع الشعب وعودة المياه إلى مجاريها وتكذيب ادعاءات المعارضة التي شككت في نزاهة الوزراء الجدد.

وعلى مقربة من مبنى المجموعة كان الملعبُ يهتز بكل جنباته بهتافات معادية للنظام، يبدو أن تلك القضية تريد أن تعكر صفونا، هذه المرة لم نكن نفهم ما السبب وراء تلك الهتافات فالحكومة لتوها عقدت صلحاً مع طوائف الشعب عن طريق تلك الإصلاحات، تلك المرة تطور الهجوم وأصبحت اللافتات ترفعُ في كل بقعة يمكنُ أن تصل لها أقدامهم وبالخط العريض كذلك، حاولنا الوصول لهم مجدداً والتنسيق معهم وترتيب جلسة مغلقة لنفهم منهم الدوافع الخفية وراء كل هذا الحقد الدفين ولكن أُقينا بالرفض.

نفس الأمر تكرر في اليوم التالي هتافات مع لافتات، للوهلة الأولى تظن أنها أمور مرتبة مع بعضهم البعض قبل أن تكتشف أن كلاهما يدين بالولاء لفريقين مختلفين، ما الحل إذاً ؟ لا أحد يعلم ما هو الحل المناسب لإغلاق هذا الملف الشائك مدى الحياة، كل العقول احتارت مع تلك القضية وفشلت في فك لوغاريتمات هذا اللغز المحير، وقررنا بالاتفاق التجاهل التام لهم وكذلك إعطاء التعليمات للإعلام المرئي والمسموع وكذلك الصحف بالتجاهل الكامل لهؤلاء المشجعين والتعامل مع مباريات الكرة فقط وعدم التطرق لأية تفاصيل أخرى متعلقة بالمباراة.

سابقاً كنا قد اتفقنا على غض الطرف عن تلك التجاوزات وأن خيوط تلك القضية متشابكة ولذلك قررنا إغلاقها لأجل غير مسمى والتركيز على قضايا أخرى تحمل ذات الأهمية وربما أكثر، لكن الهتافات آنذاك التي كانت بالقرب من مبنى المجموعة أجبرتنا مجدداً عن الحديث عنها وتناولها، عُقد الاتفاق بالتجاهل لنرى ما هي ردة فعلهم، المفاجأة وقعت وردة فعلهم كانت أعنف وأشرس عن طريق تكثيف الهتافات ضد رموز النظام وضد كبار رجال الأمن، كعادة الأمور سيتم الزج بهم داخل السجون ومن ثمُ الخروج ثانية ومعاودة الهجوم والهتاف ضد النظام.

في نهاية المطاف كُنا قد قررنا تلك الأمور برمتها إلى رجال الأمن لفعل ما يحلو لهم، قضية منهكة للذهن ولن تنتهي على الأقل في تلك الفترة، لكن أقلامنا في الصحافة بدورها لم تتوقف عن التنبيه بخطر تفشي تلك الظاهرة على المجتمع وحثت الآباء على التركيز مع ابنائهم قليلاً، محاولة يائسة لمخاطبة أولياء الأمور داخل البيوت عساها تحركُ المياه الراكدة، ولحين عودة جريان المياه مرة أخرى نكون قد انتهينا من حملة المشروعات الحكومية تلك وحققنا جميع الأهداف المنشودة.

صخبُ شديدُ داخل هذه العربة التي تقلُ يوسف ووالدتهُ وأفراد أسرته، أصواتُ عالية وابتسامات تعلو الوجوه بينما يظلُ وجهُ واحد محتفظُ بجموده، وجهٌ شاحبٌ يحملُ في يديه علبة من الحلوى لعروستهِ الصغيرة التي أجبرت هي الأخرى على تلك الزيجة، كانت بداية التعارف بين الطرفين وكلُ منها يشعرُ بثقل أقدامه في السير، فتاةُ صغيرة أصبحت عبئاً لا يحتملُ وشابُ ظل يؤجلُ تلك الخطوة، مزيجُ ملئ بخيبة الأمل والاحباط والقلوب والمنكسرة ومن خلفهم ضوءٌ يكاد يعمي العيون من قوتهِ وقبلاتُ متبادلة بين أهل الطرفين غير مكترثين بما حلَ على العروسين.

هناكَ قد تمت الموافقة على بنود الزواج وكل كبيرة وصغيرة، وحُدد موعد الخطبة ومازال يوسف لم يحرك ساكناً بعد أما " هند " زوجته المستقبلية فقد تغيرت ملامحها قليلاً ورُسمت الابتسامة على وجهها المستدير، ابتسامة تخفي خلفها آثار الضعف والانكسار ولكن من يهتم لأمرها ؟ فالواضح للجميع أنها قد ابتسمت فليس مهماً أنها أخفت آثار الحزن أو ما إلى ذلك من تلك الأشياء التي يتحجج بها الشباب، أما ذلك الشاب طويل القامة فحتى الابتسامة الصورية لم يظهرها طيلة اللقاء واكتفى بالتحديق في الحاضرين.

حاولت والدة هند أن تحرك ذلك الجبل الجالس أمامهم عن طريق إلقاء بعض عبارات المزاح تارة وبعض عبارات المدح تارة أخرى، ولكن الجبل ظلَ محتفظاً بثباته هذا ورفض كل محاولات الحراك، خجلٌ شديدٌ أحست به والدتهُ وسرعان ما حاولت أن تبعد الأنظار عن ابنها بأي طريقة كانت، شعرت بالحزن هي

الأخرى للطريقة التي سيتزوجُ بها ابنها الوحيد ولكن ما باليد حيلة فهي الطريقة المثلى لإجباره على الزواج، ماهرةٌ وتحمل كمٌ لا بأس به من الخبرات التي تجعلُها تخفي أية معالم للحزن.

انتهى ذلك الموعد الذي كان ثقيلاً على قلب يوسف، وما إن هموا بالرحيل حتى تفوه أخيراً ببضعة من الكلمات مفادُها أنه كان سعيداً أثناء جلوسه معهم، الكل يعلمُ أنه كاذبٌ حتى هو نفسه يعلم أنه يكذب ولكن كنوعٍ من المجاملة ألقى تلك الكلمات، ولكن لا بأس المهمُ أنه قد نطق أخيراً حتى وإن كان كاذباً هكذا كانت الأحاديث التي حملتها صدورهم وأبت نطقها ألسنتهم، كانت ليلة لطيفة على الأقل بالنسبة لمن لم تشملهم مراسمُ الزواج، أما من شملتهم فحدث ولا حرج !

أثناء العودة إلى المنزل دار حديث قصير بين يوسف ووالدته، بادرت بسؤاله " ما رأيك في هند ؟ أعتقد أنها جميلة وستكون زوجة مطيعة في المستقبل " ابتسم يوسف قبل أن يجيب قائلاً " نعم هي كذلك أمي " لم يرد التفوه بكلماتٍ غير تلك التي باح بها فؤاده واكتفى بموافقة والدته في الرأي عساها تكفُ الحديث معهُ وتدعه وشأنه، كان يرمقُ النظر إلى الطريق وما به من ضجيج، يراقبُ عن كثب تحركات المارة متناسياً تلك الخطوة المؤلمة التي أقبل عليها بعد إلحاحٍ مستمر من عائلته.

مرة أخرى عاود الذهاب إلى غرفته دون أن ينطق ولو بكلمة واحدة تريحُ من تحملوا معهُ عناء تلك الزيارة، لكنهم فضلوا تركهُ وحيداً خلف ذلك الباب الصغير، تركوه فريسة سهلة لمخالب الأفكار تمارسُ عليه كل دوافعها العدوانية، يبدو أنه فقد القوة لمقاومتها ورفع الراية البيضاء أمامها وظلَ يراقبُها وهي تحاوطهُ من كل مكانٍ وهو لا حول له ولا قوة، كانت تلك الليلة شاهدة على تغير جذري في حياة يوسف وكانت إيذاناً ببدء حياة الروتين، إيذاناً ببدء حياة الجريدة وفاكهة البطيخ !

كان المبنى في أزهى أيامه، الأجواء كانت جميلة ولطيفة والكل يتبادل الابتسامة والتحية، فترة مليئة بالنجاحات والمشروعات، فترة تثبيت الأقدام كرقم صعب يصعبُ تحطيمهُ في قادم المواعيد، لم تغفل عن المجموعة فكرة تقديم الرئيس بصورة جيدة في تلك المشروعات وإظهاره في مظهر الراعي الأول لها، فرصة مواتية لتحسين علاقته مع الشعب وكذلك التفكير إلى ما هو أبعد من ذلك وهو البقاء أطول فترة ممكنة في سدة الحكم، مصلحة المجموعة تكمنُ في بقائه ودعمه كرئيس للبلاد، ومن هنا بدأ العمل في مشروعٍ طويل الأمد يضمنُ بقاءه حتى الموت !

لم تأت اللحظة المناسبة للتمهيد للشعب عن ذلك المشروع، الانتهاء من كافة المشروعات التي قامت بها الحكومة أولاً ومن ثمَ الحديث عن بقاءه، الشارع ملئ بالهدوء فمن وقت انهيار الحزب بدأت الثقة تعود من جديد في النظام، الفكرة الأهم التي حاولنا زرعها داخل العقول هي صعوبة رحيل النظام وبدأنا نشر الأفكار التي تقتلُ أي أمل يتعلق برحيله حتى في قادم السنوات، صار الشعبُ مسلماً لتلك الفكرة وأصبح مقتنعاً تمام الاقتناع بذلك.

المجموعة أبت أن تعلن ذلك مبكراً وأرادت من الشعب أن يتقدم خطوة للأمام حتى يتسنى لنا الحديث عن ذلك المشروع المقترح، كالعادة في مثل هذه المواقف يبدأ الإعلام جس نبض الرأي العام، حديثُ الإعلام كان عن كيل المديح للنظام وعن مشروعاته تلك التي ستجلبُ معها الخير والرخاء للبلاد وحتى يتحقق ذلك يجب تحقيق الاستقرار، تحقيق الاستقرار يأتي عن طريق بقاء الرئيس وحكومته لفترة طويلة وهذا هو الشرط الأهم في سبيل الوصول إلى حياة تليقُ بالمواطن.

أحاديث الرئيس في ذلك الوقت كانت ضرورية حتى يقتنع الشعبُ أنه مهتمٌ برأي الجماهير، لم يتطرق كثيراً إلى نقطة البقاء من عدمها وترك الشعب يقرر مصيره بيده، كذلك رفض أشد الرفض تصويرهُ بصورة الطامع في كرسي الرئاسة وأنه لا مانع لديه في تداول السلطة، في الحقيقة كلنا نعلمُ داخل المجموعة بأن تلك الأحاديث أبعدُ ما تكون عن الصحة وأنهُ كالكلب الجائعُ يلهثُ وراء الكرسي، لكن خارج أسوار المجموعة فقد نالت كلماته استحسان المواطنين وترسخت لديهم فكرة البقاء أكثر فأكثر.

حديث الرئيس أتى على طبق من ذهب للإعلام، فرصة ثمينة لمعاودة المديح للنظام وخصيصاً الرئيس، صرخات الإعلاميين في آذان الشعب بأنهُ رجلُ متواضعُ لا يطمعُ في السلطة يبدو أنها آتت أكلها خصوصاً أن حديثهُ تزامن مع تلك المشروعات التي من شأنها تحسين الأوضاع الداخلية، كانت خطوة ظهوره وحديثه الخطوة الأهم في تلك الفترة وتكاد أهميتها توازي أهمية المشروعات الحكومية، كلُ شئ يبدو بحالٍ جيد والمجموعة على وشك انعطاف مهم في تاريخها.

تخرجُ من غرفتها لتكسر ذلك الملل الذي أحاط بها وتنتهز فرصة خروج والدها الثرثار لتجلس أمام شاشة التلفاز رغبة منها في إيجاد ضالتها هُنا أو هُناك، منذ سفرها ولم تعد تتابعُ ما يحدث داخل البلاد وفي قرارة نفسها تعتقدُ أن علاقتها مع تلك البلد قد انتهت بالكامل، لكن شيئاً ما داخلها أخبرها أن تتابع ولو دقيقة ما يحدث هناك، لا جديد يذكر ولا قديم يعاد فقط الإعلام كعادتهِ يمارسُ هوايتهُ المفضلة في بث عبارات الشكر للنظام ليل نهار وكأن شهيتهم تلك لن تتوقف، قررت العودة لغرفتها وإغلاق الباب عليها فالارتماء في أحضان الملل أفضل ألف مرة من متابعة المنافقين.

بمجرد دخولها الغرفة تبدأ فقرة الذكريات في الدوران دون توقف، لازالت تتذكرُ ذلك الشاب صاحب الابتسامة الجميلة والكلمات القوية، لازالت تحفظُ عباراته عن ظهر قلب، لازالت تتذكرُ كيف تعدُ نفسها لاجتماعات الحزب، كيف كان شغفها هو المحرك الأول لها، ومن خلف النافذة أمطار غزيرة حجبت رؤية المستقبل واضحاً جلياً، ذرف الدموع هو الخطوة الأخيرة في تلك الفقرة الحزينة قبل التوجه للنومِ والاستيقاظ من جديد وتكرار ما حدث بالأمس، وخلف ذلك الباب أبُ يدعو ربه على تغير حال تلك الفتاة.

تحركت بعض من المياه الراكدة بين يوسف وهند على الأقل من جهة تلك الفتاة الصغيرة، تدريجياً بدأ قلبها يتحركُ في اتجاههِ، حاولت خلق الأحاديث مراراً وتكراراً حتى تفهم ما يدورُ داخل عقلهِ، جل محاولاتها باءت بالفشلِ وكل ما خرجت به بعض الكلمات التي لا تسمنُ ولا تغني من جوع، لم تصب باليأس وحاولت التقليب في صفحات الماضي لعلها تجدُ ضالتها هناك وقد كان، يوسف لم يخبرها بما حدث فترة الحزب

إطلاقاً وكان يتهرب من تلك الفترة بالذات، هو فقط من يقلبُ في تلك الصفحات ليس غيره، وأخيراً سنحت الفرصة لها لفك شفرة هذا الشاب العنيد.

كانت تعتقدُ أن صفحات الماضي كفيلة بتقريب الأمور بينهما، قد تكون هي الأولى التي تسمحُ لنفسها بالإبحار داخل أعماق يوسف، مُسبقاً جُهز لهذا اللقاء من قبل الأسرتين، الهدف من هذا اللقاء هو جعل يوسف يتحدث أكثر، لم يكن مهماً لُب الموضوع المطروح بقدر ما كان الهدفُ جعله ينطقُ العبارات، بدأ اللقاء بابتسامة جميلة من هند وبعض الأسئلة التقليدية المعتادة، كانت إجابتهُ بمثلِ مقدار الأسئلة، قبل أن تجذب انتباهه عبر ذلك السؤال " ما رأيك في تلك المشروعات الحكومية الجديدة ؟ صمت قليلاً ثم قال لا أثقُ في الحكومة إطلاقاً " مرة أخرى إجابة على قدر السؤال، صمتت هي الأخرى قليلاً قبل أن يبدأ الصدام.

" بصفتك عضواً في حزب معارض هل تعتقدُ أن الرئيس سيبقى طويلاً ؟ في الحقيقة لم يلقى بالاً للجزء الثاني من السؤال بقدر ما ألقى بالاً للجزء الأول قبل أن يسألها قائلاً " وكيف علمتي أنني عضواً في حزب معارض ؟ أصيبت بالدهشة من سؤاله هذا وأخذت أكثر من دقيقتين تفكرُ في الإجابة قبل أن تقول " حاولت معرفة بعض المعلومات عنك وحاولت أن أشاركك الأشياء التي تستهوي قلبك وتسيطر على عقلك " لم ينطق ولو بحرفٍ واحدٍ قبل أن يهُمَ بالرحيل.

أدركت لحظتها أنها مخطئة وفقدت الأمل كلية في فك شفرة هذا الشخص غريب الأطوار، ألم يكفي القدر أنها قد تتزوج رغماً عنها بل وحمل معهُ شاباً مريباً، وعندما بدأ قلبها يميلُ باتجاهه زاد من الأمور تعقيداً، كانت والدتها تجلسُ على مقربة من باب الشقة تمنى النفس في أخبار سارة تحملُها صغيرتها، فوجئت بدموعٍ منهمرة وأقدام تجرى نحو غرفتها تعرفُ طريقها مغلقة الباب ورائها، على ما يبدو أن المهمة قد فشلت فشلاً ذريعاً، بل ولم تمنع مخيلتها في التفكير في فشل الأمر برمته بعد أن كان وشيكاً.

رفضت الدخول على صغيرتها وأيقنت أن الدخول في تلك الآونة قد يقودُ ابنتها للانفجار، فضلت الجلوس معها في ساعات الصباح الباكر لربما قد يتغير مزاجها، مع الإطلالة الأولى للشمس على بيتهم، ذهبت والدتها تجاه غرفة هند واستأذنت قبل الدخول عليها، ابتسمت هند ابتسامتها المعتادة أملاً منها في إخفاء الألم الذي حل بها لكن الابتسامة خرجت ممزوجة ببعض الدموع ومن ثمَ الانهيار التام، لم يكن من الأم سوى ضمها ومحاولة احتوائها وإخراجها من تلك الحالة قبل أن تفهم ما حدث ليلة الأمس.

انتظرت حتى تهدأ هند ثمَ بادرت بسؤالها قائلة " ماذا حدث ليلة الأمس ؟ صمت مرة أخرى ؟ أم ماذا ؟ حركت رأسها يميناً وبدأت تذرف الدموع ثانية قبل أن تنطق بصعوبة " هرب وقت المواجهة " وولت مسرعة بعيداً عن الغرفة وعيناها تكاد تفيض بالدماء من شدة البكاء، رغم قلة كلام هند إلا أن والدتها أيقنت أن ذلك الجانب الذي أرادت هند التنقيبُ عنه فشل برمته، لم يكن الخوف على ابنتها هو الخوف الوحيد بالتأكيد فهي تخشى أن تفسد المسألة بينهما.

في الجانب الآخر احتفظ يوسف بكامل هدوئه ورجع إلى بيته في حالٍ لا يعبرُ عن ما جرى منذ ساعات، لكن والدة يوسف شعرت بأنه لربما أفسد الأمور مرة ثانية وهذه المرة لن يتحملهُ أحد، حاولت مسرعة تهدئة

الأجواء عن طريق الاتصال بوالدة هند والاعتذار لها دون العودة إلى يوسف وفهم المسألة من الأساس، صوتُ بالخارج يحاول تلطيف الأجواء ويقفُ من بعيد يراقب ما يجري في تلك المكالمة قبل أن ينفجر غاضباً تجاه والدته ويعنفها على ما فعلتهُ مع تلك السيدة.

" وكأنها تتجسسُ عليَّ وتحاولُ العبث في صفحات الماضي " هكذا كان تبرير يوسف لوالدته عندما حاولت فهم ما حدث بالأمس وسبب رحيله عن هند دون مقدمات، تعلمُ أن مثل تلك التصرفات تثيرُ غضب ابنها ولكن بعض العبارات الجميلة قد تؤدي الغرض وتمتص ذلك الغضب " هي تحاول التقرب لك أيها الأبله،ـ تحاول أن تحرك ذلك الجبل الذي أمامها، وتأتي أنت بكل حماقة الرجال وتنصرف بدون سبب مقنع ! لن أندهش إن رفضت تلك الجميلة الاستمرار في هذا الهراء ".

كان حديث تلك السيدة العجوز كافياً لجعل ذلك الشاب يعاود التفكير في طريقة التعامل مع هند، قرر أن يعطي لنفسه الفرصة للحديث أكثر معها وفهم ما يدورُ بداخلها، في الحقيقة لم يكن ليغير طريقته معها دون ذلك الحديث، كان يخشى غضب والدته وهو الذى لا يتحمل رؤيتها حزينة، كم هي ذكية تلك العجوز ! لعبت على هذا الجزء البسيط لتنجح في قلب الطاولة على صغيرها، كان يدركُ أن الخطوة القادمة قد تكون الأصعب في حياته ويكاد يدفعُ أقدامهُ نحوها ولكن لا بديل !

بالكاد انتهينا داخل غرفة الاجتماعات من شأن هذا الحزب المعارض حتى ظهر لنا على الساحة قلمُ جديد يبدو وكأنه يريد تكرار التجربة، مقالُ في إحدى الصحف غير المشهورة يهاجمُ الحكومة بشراسة ويتهمُهما بإخفاء التكلفة الحقيقة لتلك المشروعات التي تبنتها الحكومة والنظام، في الواقع لم يكن خفياً علينا أن حديث ذلك الشاب كان صحيحاً وأن تلك الأرقام التي ذكرت في الصحف خاصتنا لم تكن حقيقية ولكن هذا الشاب قد علم أكثر من المسموح به وانتهك قواعد المجموعة .

لم يكد أن يمر الوقت حتى انتشر هذا المقال في الإعلام وانتهز الحزب المريض تلك الفرصة عساهُ يتحسس طريق الشفاء ثانية، حاولنا عن طريق البرامج المذاعة نفي ما كُتب على يد هذا الصحفي وأنهُ مجرد إشاعة لا أساس لها من الصحة، تلك كانت الخطوة الأولى في حل تلك المعضلة، الخطوة الأهم كانت في إخفاء أية معلومة بشأن تلك القضية وتلك المشروعات، لم يتبق سوى أن يعلم هذا الشاب الطموح أن لدغات البرغوث داخل أروقة السجن لا تحتمل.

في الأسبوع التالي كان هذا الشاب ينشرُ مقالاً عن التغذية السليمة للأطفال وكيفية الاهتمام بها جيداً، كان من المفترض نشر تلك الأرقام الحقيقية لكن توخي الحذر كان كفيلاً بالحديث عن فوائد البيض وتناوله في السابعة صباحاً بصحبة الجبن، لم تهدأ المجموعة حتى تأكدت أن تلك الأرقام في أمان تام، ومرة أخرى كانت تلك القضية الصغيرة فرصة جيدة لإثبات حسن النية للشعب وأن كل الأمور تسير على الطريق الصحيح ولا يوجد أي تلاعب من جهة الحكومة ولا جهة النظام.

لكن الاسوأ لم يأت بعد، بمجرد الانتهاء من ملف هذا الشاب حتى ظهرت بعض الأقلام الأخرى تتحدثُ عن تلك المشروعات وأن ما حدث مع هذا الشاب أمرُ يثير الدهشة والتعجب، حاولت بعض الأقلام المعارضة الوصول له وفهم ما حدث معهُ، لكن الخوف أبى أن يجعل صديقهُ ينطقُ بكلمة واحدة حول تلك القضية، تحجج بأنهُ ظلم الحكومة ظلماً بيناً ولا حقيقة لتلك الأرقام التي تحدث عنها قبل ذلك، حديثهُ تفوحُ منهُ رائحة الكذب والخوف معاً لكن الأقلام المعارضة تلك أبت الاستسلام كما استسلم ذلك الصحفي.

وجدت تلك الأقلام ضالتها في هؤلاء المشجعين الذين يهتفون ضد الحكومة والنظام وضد السياسة المتبعة من قبلهم، حتماً وراء تلك الهتافات سبب معين كان لابد من الكشف عنه، محاولة الحديث معهم لن تكون سهلة فهم يعتقدون أن هؤلاء الصحفيون هم الأداة الأقوى التي يمتلكها النظام ويستطيع العبث بها متى شاء، تقديم أنفسهم على أنهم معارضين قد لا يكون كافياً بالضرورة لإقناع أولئك الشباب بالحديث، وحتى أن وافقوا على ذلك فمن يضمن لهم إيجاد معلومة مفيدة، عملية معقدة ولا خيار أمام تلك الأقلام سوى المضي قدماً ومحاولة الاستفادة قدر الامكان من تلك الألسنة.

كما توقع الصحفيون فلم تكن المهمة باليسيرة على الإطلاق وتهرب المشجعون منهم عديد المرات، بدأ الأمل يدخلُ في المرحلة الأخيرة قبل الموت والفناء، لا صحفيُ يريد المساعدة ولا حتى شباب غاضبون على سياسة النظام يحبذون الحديث، يا له من حظ عاثر ! لم يقفوا مكتوفي الأيدي هكذا وحاولوا مراراً وتكراراً الوصول إلى هؤلاء الشباب وفهم ما يدور بداخلهم وما يشعرون به تجاه النظام، تنفسوا الصعداء أخيراً بعد موافقتهم على الجلوس معهم على طاولة واحدة والتحدث بما تحملهُ أفئدتهم .

قبل الجلوس معهم على طاولة واحدة كان الصحفيون الشبان صاحبي الظهور الجديد على الساحة الإعلامية ينشرون بعض التحقيقات لهم بشأن تلك القضية ذات الضجة الكبيرة، لم يأخذ أولئك الشباب وقتاً طويلاً ودخلوا في صلب الموضوع وهاجموا الحكومة وانتهزوا الفرصة التي عادة تأتي مرة واحدة، بالرغم من رفض أغلب الصحف الكبيرة الداعمة للنظام نشر تلك التحقيقات وتكفل بعض الصحف الصغيرة بنشرها إلا أنها أحدثت هزة كبيرة داخل جنبات الحكومة ولما كانت تحاولُ استيعاب ما حدث حتى كانت الهزة تضربُ جموع الشعب .

كان الحديث معهم بمثابة حبة الكريز على الكعك ذات المذاق الحلو، ذلك الحديث سيكونُ الضربة القادمة وراء تلك التحقيقات، لكن آمال وطموحات هؤلاء الفتية في الخروج بكلمات تناسبُ أفكارهم لم تكن في محلها وأصيبوا بحالة من الإحباط الشديد عقب الجلوس مع المشجعين، كل ما استطاعوا الخروج به من ذلك الاجتماع هو كره أولئك الشباب للنظام وسياسته القمعية التي يمارسها عليهم في مدرجاتهم، فقط يريدون التمتع بكامل الحرية عن طريق الهتافات والانتقاد دون التعرض للإيذاء.

لكن الكلمة التي ظلت عالقة في أذهان الصحفيين وقتما حاولوا أن يعرفوا منهم ولو معلومة واحدة بشأن تلك المشروعات، وهل وقعت أيديهم على أي من تلك الأرقام التي قال زميلهم السابق أنه سينشرها لاحقاً جاء الرد

" نحن فقط مشجعون كرة قدم لا علاقة لنا من قريب أو من بعيد بما ينشرُ في الصفحات الأولى " تلك الإجابة قطعت الشك باليقين وتأكدوا أن المشجعين قضيتهم مختلفة تماماً مع النظام ولكنهم تعهدوا للصحفيين بمساندتهم في قضيتهم تلك ومحاولة دعمهم من المدرجات قدر الإمكان وحتى لو اختلفت القضايا فالأهداف واحدة لا غبار عليها إطلاقا وهي رحيل النظام بأكمله.

المبنى على وشك الانفجار من شدة الغضب، لا صوت يعلو فوق صوت تلك التحقيقات المنتشرة، مرة أخرى حاولنا عن طريق الإعلام تكذيب تلك الادعاءات جملة وتفصيلاً وأنها مجرد إشاعات هدفها الإيقاع بين الحكومة والشعب بعد أن ربطتهم حالة من الثقة، نجحت تلك المحاولات الإعلامية في الحد من سيطرة تلك التحقيقات على عقول الشعب حتى ولو أنها سيطرت على فئة بعينها ولكن لا يهم المهم أنها حدت من السيطرة، الفئة الشابة وجدت في حديث الصحفيين ضالتهم المفقودة منذ كلمات الحزب في البرلمان وتوسموا خيراً في هؤلاء الشباب عساهم أن يفضحوا كذب النظام الذي استمر طيلة سنوات وسنوات.

حاولنا السيطرة على تلك الصحف الصغيرة قدر الإمكان ومنعها من نشر بقية التحقيقات، أيضاً أُصدرت التعليمات لكافة القنوات بعدم السماح للصحفيين المزعومين بالظهور والحديث، الانطباع السائد داخل المجموعة يشيرُ بالخوف من حديث أولئك الفتية، مزيدُ من الحديث يعني بالضرورة مزيد من فرض السيطرة التي كنا قد نجحنا في الحد منها ولو قليلاً، سيطر القلق على أروقة المبنى ولم تتوقف العقول عن التفكير في حلول قوية وفعالة للخروج من هذا المأزق السخيف الذي تسبب به مجرد صحفي صغير امتهن الكتابة حديثاً.

خرجت الأوامر سريعاً للصحافة وللبرلمان على حد سواء بنشر أرقام بعينها لكسب الثقة مجدداً، بالفعل خرج بعض رموز النظام للحديث عن تلك المشروعات وحملوا على عاتقهم تجميل صورة النظام، حملوا في أيديهم بعضاً من المستندات التي تفيد بالأرقام الحقيقية للمشروعات وليس تلك التي زعم الصحفيون كذباً أنها ستنشرُ لاحقاً، لم يكتف رجالنا عند هذا الحد فقط بل شنوا الهجوم على هؤلاء الصحفيين وطالبوا بوقفهم عن العمل بتهمة نشر الأكاذيب وزعزعة استقرار الدولة المدنية بل ووقف عمل تلك الصحف التي مثلت المنبر الذي اعتلاه هؤلاء الشباب للترويج لأكاذيبهم تلك.

كان ذلك الحديث بمثابة حفظ ماء الوجه بالنسبة للنظام وحكومته، في اليوم التالي جاءت الأخبار بوقف تلك الصحف عن العمل بتهمة التحريض ضد مصلحة الدولة وأيضاً وقف هؤلاء الصحفيون عن العمل وتحويلهم للتحقيق، في الحقيقة فلن يستمر وقفهم طويلاً عن العمل وستعود تلك الصحف لممارسة أعمالها بشكل طبيعي وسينتهي التحقيق معهم في أسرع وقت ممكن، لكن كان لابد من اتخاذ تلك الخطوات حتى يتسنى لهم التفكير أكثر من مرة قبل الهجوم على النظام.

شهرُ واحدُ كان كافياً لعودة تلك الصحف لممارسة العمل بشكل طبيعي، على غرار الصحفي السابق فقد حملت العناوين الأولى لتلك الجريدة وصفات صحية من أجل أطفالنا وشبابنا، لقد استوعبت تلك الصحف الدرس جيداً وعلمت أن العبث مع النظام سيكلفهم الغالي والنفيس، اختاروا مسلكاً آخر يمارسون فيه أعمالهم بعيداً عن بطش النظام وقمعه، خروج أولئك الشباب من محبسهم الذي لم يدم طويلاً ورؤيتهم هروب تلك الصحف منهم كان المشهد الذي أرادهُ النظام وطبقته المجموعة حتى يتعلمون الدرس جيداً.

حاول الصحفيون العودة مرة أخرى إلى تلك الصحف لكنهم اشتموا رائحة الخوف فور صعودهم تلك المباني الصغيرة التي اتخذتها تلك الصحف مكاناً لها، ما إن يذهبوا لمبنى ما حتى يخرجوا منهُ سريعاً، كل تلك المباني رفضت وجودهم، كان الأمر صعباً عليهم فحتى صحف المعارضة باتت هي الأخرى تخشى الدخول في صدام مباشر مع النظام، وما العمل إذاً ؟ حتى تلك المعلومات التي وقعت أيديهم عليها فقد ذهبت أدراج الرياح ولم يعد لها وجود على الإطلاق حتى يتسنى لهم نشرها ولو لاحقاً في أي مكان.

كانت تلك الضربة التي أرادتها المجموعة ونجحت مجدداً في تنفيذها، لا معلومات ولا وظيفة وقد ينتهي بهم الحال في الجلوس خلف الشاشة لمشاهدة مسلسل العائلة في الثامنة مساءاً، ومن يدري فلربما يدركون أن الحديث عن الوصفات الصحية وتناول الجبن والعسل والحديث عن السينما وخلافه هو الحل الأمثل لمعاودة العمل من جديد، لا يهم ما يفكرُ به هؤلاء الفتية وكيف ستكون خطوتهم القادمة الأهم هو أن الرسالة التي أرادت المجموعة ومن خلفها النظام إيصالها قد وصلتهم بالفعل.

وصلت إلى مسامع يوسف كل تلك الأحداث رغم محاولاته الابتعاد عن كل ما يتعلق بالسياسة من قريب أو من بعيد، " يا لهم من جبناء " هكذا كان تعليقه الأول على تعامل تلك الصحف الصغيرة مع الصحفيين وأحس أن المشهد يعيدُ نفسه ثانية وكأن النظامُ يختار الطريقة المثلى لقتل الأمل بداخلك ومن ثمَّ العبث بأحلامك وطموحاتك، تمنى في قرارة نفسه أن لا يسلك هؤلاء الشباب نفس مسلكه، تمنى أن لا تقف ورائهم أمُ عجوز تحثهم على الزواج وتكوين عائلة جميلة تخرجُ أسبوعياً لمشاهدة فيلم السهرة السخيف.

بدأ يوسف يتحسس طريقه نحو معاملة جديدة تماماً مع تلك الفتاة الجميلة الصغيرة، لم يعتد النفاق في حياته ولا استعمال الألفاظ الجميلة في غير محلها، حاول التنقيب بداخل تلك الفتاة عن أشياء قد تستهويه وتمكنهُ من خلق الأعذار لنفسه لحظة الحديث بكل العبارات الجميلة، تدريجياً شعر أن محاولات التنقيب لا جدوى منها وترك الأمور تأخذ مسارها الطبيعي، انطلق في الحديث كما لو كان لاعباً يافعاً يركضُ من الجهة اليسرى في محاولة مستميتة للحاق بالكرة، انطلق كما لو كان رساماً وجد ضالته في تلك الألوان للخروج بأفضل لوحة فنية ممكنة.

شعرت العائلتين ببعض من الراحة تجاه ما يحدثُ بين الطرفين، هذا هو الوقت المناسب لبدأ الحديث عن الزواج وتحديد موعد مناسب له يرضي جميع الأطراف، لا عقبات الآن في طريقهم فكل شئ على أهبة الاستعداد لهذا الحدث الكبير، كالعادة بدأت والدة يوسف الحديث عن هذا الأمر وما إن بدأت حديثها حتى ابتسم يوسف وهند معاً وهمت هند بالدخول إلى غرفتها كنوعٍ من خجل الفتيات المتعارف عليه، دخولها هذا أعطى إشارة مسبقة بالموافقة بعد أن كانت قاب قوسين أو أدنى من الرفض.

الشتاء القادم هو موعد زواج العروسين، فقط بضعة أشهر كفيلة بالتجهيز لذلك الحدث المهم، لا يكاد يصدق عقلهُ فبعد أشهر قليلة سيدخل بيته وسيودعُ عائلته، مرت السنوات سريعاً على ذلك الشاب فمن كان يصدقُ أن هذا العنيد قد يرضخُ لفكرة الزواج، كذلك تلك الفتاة الجميلة بدأت تفكرُ في الحياة الزوجية وبدأت تفكرُ مغادرة

ذلك المنزل بعد أن عاشت عمراً ليس بالقصير بين جنباته، لم تمنع مخيلتها في التفكير في ذلك الطفل الصغير الذي يقفُ بعيداً في انتظارها لمداعبته ولأخذ حصته من الطعام من والدته.

سيطرت حالة من الهدوء في قاعة الاجتماعات بعد تلك المناوشات التي عكرت صفو المجموعة من قبل أولئك الصحفيين، جاءت إشارة البدء في المشروعات بعد أن تأجلت فترة قصيرة بسبب كل ما حدث من مقالات وتحقيقات، " بعد أن تنتهي تلك المشروعات سأضمن لكم بقاء النظام مدة قد لا تقل عن عشر سنوات بالتمام والكمال " ذلك كان تعليق السيد نزار عن بداية العمل سعياً وراء البقاء أطول فترة ممكنة على كرسي الحكم، كالعادة رُسمت الابتسامة على وجوه الأعضاء جميعاً فهذه إشارة جديدة منهُ بالاطمئنان على مستقبل المجموعة طالما حُققت الأهداف.

حالة من السعادة غمرتني في تلك الفترة، أهدافُ على وشك التحقيق وأقلامُ معارضة كُسر صوتها ومُنعت كلماتها، جلستُ أفكرُ كيف سيكون الحال لو لم يكتب لي الانضمام لتلك المجموعة والجلوس على طاولة اجتماعاتها، ربما سيجدرُ بي الوقوف ساعتين في انتظار الموظف حتى يعطيني ورقة عديمة الفائدة كي أحظى بوظيفة الأحلام وبعدها أتقدمُ للفتاة التي أحبها قبل أن يركلني أبوها خارجاً لضعف الراتب الذي أتقاضاه، ربما أجلس ثمان ساعاتٍ وراء نافذة صغيرة ومن فوقي مروحة لعينة تقتربُ من السقوط على رأسي وتحتي كرسي انتهت صلاحيته في الاستخدام وخلف كل هذا ضجيج بالصالة ومواطنون ينتظرون دورهم بفارغ الصبر حتى يُأذن لهم بالرحيل إلى بيوتهم الآيلة للسقوط قريباً وتناول بعضٍ من البطاطس الفاسدة تحت شعار تجمع العائلة الذي لا مثيل له.

كل تلك الأفكار ومثيلاتها جلستُ أتخيلها وسرعان ما طردتها حتى أحظى بقدرٍ من المتعة داخل هذا المنزل الجميل، جلستُ مع أطفالي أبادلهم الحديث وكذلك مع زوجتي التي خرجت من غرفتها تحملُ معها ابتسامة تُنسيك عناء العمل، " ما أخبار العمل خيرت ؟ " بدأت زوجتي حديثها بهذا السؤال المعتاد قبل أن أهز رأسي وتلك الحركة كافية للتعبير عن أن الأمور تجري على ما يرام، أجملُ ما في زوجتي أنها تقدرُ ما يحدثُ داخل المبنى وتقدر العمل ولازالت تملكُ نفس القدر من الشغف عند لقائي ولكن لا مانع من أسئلة الزوجة المعتادة التي نكرهها نحن كرجال ولكن ما باليد حيلة.

لازال الأملُ يسيطرُ في معسكر الصحفيين، بالتأكيد لن ينتهي بهم المطاف وهم جالسون في بيوتهم منتظرين وظيفة أخرى غير تلك التي لطالما أحبوها وتمنوها بل واعتادوا عليها كلية، لكن في نفس الوقت يجب التحلي بالحذر في قادم الخطوات حتى لا تتكرر الهزيمة مرة أخرى، جاءت لهم عديد الأفكار مثل تأسيس جريدة صغيرة خاصة بهم تجمعهم وتجمع عديد الصحفيين أصدقائهم وينشروا فيها ما يحلو لهم، قد تبدو على الورق فكرة سهلة لكنها على أرض الواقع ومع نظام كهذا فهي فكرة أقرب للخيال.

هتافات المشجعين كانت ولازالت مستمرة لم تتوقف ولو لجولة واحدة، كل الطرق قد نُفذت مع هؤلاء الشباب وفشلت جميعها، حتى أجهزة الأمن التي خُولت بتلك القضية فشلت هي الأخرى في التعامل معهم واحتواء غضبهم هذا، لكن لا داعي للقلق مادامت تلك الهتافات هي المصدر الوحيد للهجوم على النظام وسياساته، القلق قد يبدأ عندما تنتقلُ تلك الهتافات للشارع ومعها قد تبدأ العقول بالانفتاح بعد أن ظلت مغلقة تماماً لعديد السنوات، في تلك الأثناء يحاولُ الصحفيون البحث عن طريقة مثلى للعودة ثانية إلى المجال الذي ترعرعوا تحت ظله وشعروا أن فكرة الجريدة الصغيرة المستقلة لن تأتي أكلها وسيكون مصيرها الفشل في النهاية.

قبل التفكير في حلول مثالية وجب عليهم أولاً تحريك الرأي العام لصالحهم، فكانت الفكرة في تنفيذ وقفة صغيرة أمام الصحف الكبرى للمطالبة بعودتهم لتلك المهنة التي لا يجيدون سواها، في مخيلتهم يعتقدون أن تلك الوقفة قد تكون بمثابة ورقة ضغط على الحكومة والنظام في الوقت الحالي، في بادئ الأمر اعتقدنا داخل المجموعة أنها مجرد وقفة عابرة وقد لا تتكرر ثانية ولذلك قُرر التجاهل التام لمطالب هؤلاء الشباب، رأت المجموعة أن أولئك الصحفيون سيصابون بالملل عاجلاً أو آجلاً وبهذا قد تكون نجحت خطة المجموعة والنظام.

استمرت تلك الوقفة على عكس كل التوقعات، على ما يبدو أن الملل قد فشل في السيطرة عليهم، الخطوة التالية كانت تتمثلُ في إعطاء الأوامر لكافة الصحف وكافة القنوات بتجاهل ذلك الملف تماماً وكأنه غير موجود بالأساس، الإعلام يمثلُ حلقة الوصل بين هؤلاء الشباب وبين جموع الشعب وما إن ينقطع هذا الحبل فهم قد فقدوا نصف قوتهم وقد لا يجدوا دافعاً للتجمهر أمام الصحف الكبرى، لكن حتى مع تجاهل الإعلام لمطالبهم تلك لم يصبهم اليأس قط وظلوا ينادون بالعودة إلى حيث ينتمون، ينادون بالعودة إلى ديارهم الثانية.

مع استمرار تلك المطالبات فقد رضخت المجموعة لفكرة عودة أولئك الشبان للعمل من جديد، في الحقيقة كان الرضوخ في حد ذاته صعباً للغاية ولكن لا مانع من تقديم بعض التنازلات في سبيل المصلحة العامة، استمرار تلك الوقفة حتماً يشكلُ إزعاجاً لنا وللنظام فجاء التنازل على عكس ما نريد، اختفاء الأرقام الحقيقية للمشروعات الحكومية كان محفزاً هو الآخر لفكرة عودة الصحفيون لعملهم، لا مزيد من تلك المقالات النارية ولا تلك المقدمات اللاذعة، اعتقدت المجموعة أن حدة الهجوم على النظام لابد وأن تقل فور عودتهم مرة أخرى لممارسة المهنة التي تعلقت أفئدتهم بها.

لم تخفي الحكومة استيائها من تعامل المجموعة مع القضية، وحملتنا كافة العواقب المحتملة في حالة تكرار تلك المقالات، ترتعدُ خوفاً من عودة الهجوم عليهم وقضية الوزراء الفاسدون ليست ببعيدة من الحدوث ثانية وهذا السبب الأقوى لغضبهم وخوفهم، عودة هؤلاء الشباب كان الحل الأخير لتلك القضية في نظر الحكومة، ممثل الحكومة جاء للمرة الأولى للحديث أمامنا وجهاً لوجه مع السيد نزار بشأن تلك القضية وبدأ حديثه قائلاً " عودتهم لم يكن الحل الأمثل نزار، أرى أنكم قد تقاعستم هذه المرة في التعامل مع الأمر، كان من الأحرى التفكير في حلول أخرى مجدية غير ذلك الحل البائس الذي خرج من غرفتكم اللعينة تلك " أصابتنا الدهشة في الحقيقة من لهجة ممثل الحكومة فلم يسبق وأن تحدث أحد مع السيد نزار بتلك الطريقة مهما كان، من جانبه تحلى بالهدوء قبل أن يجيب إجابة أنهت كل شئ " مادامت الأرقام الحقيقة بحوزتنا فلا داعي لهذا الخوف الذي يسيطرُ على قلوبكم، اذهب ومعك رسالة الطمأنينة لهؤلاء البائسين الجالسين على مقاعد لا قيمة لها "

رد السيد نزار كان قاسياً جداً وخرج ممثلُ الحكومة ووجهه يكادُ يقوم بعمل كوب من القهوة من شدة الغليان، إجابته نالت استحسان الأعضاء واتفقنا جميعاً على أن رده كان الأمثل في الحقيقة لوقف ذلك الهجوم غير المبرر من الحكومة، كانت تلك الجلسة كافية لانتهاء فترة شهر العسل بين المجموعة وبين الحكومة وانقطعت كافة وسائل الاتصال بيننا وبينهم، اعتقدت الحكومة أن ثمة صفقة قد عقدت في الخفاء بين السيد نزار وأولئك الشباب للعودة مرة أخرى وتشويه صورة الحكومة أمام الرئيس وأمام الشعب.

السيد نزار كان على دراية تامة بأن ما فعله يصب في المقام الأول في مصلحة المجموعة والحكومة، اصيب بالدهشة من الاتهامات التي وجهت إليه من قبل الحكومة وأكد في الاجتماع أن كل تلك الاتهامات هي مجرد هراء ليس أكثر، تلك المرة كنا واثقين بأن حديثه لا يحتوى أية أكذوبة بالفعل وأنه بالفعل يرفض عودة أولئك الشباب لمزاولة عملهم ولكن استمرار وقفتهم ليس من مصلحة النظام على الإطلاق، لم تفهم الحكومة وجهة نظره وأغلقت مسامعها بالكامل عن أية أحاديث تخرجُ من داخل المجموعة واستمعت فقط لأوهامها.

عودة الشباب كانت هادئة في البداية عكس المتوقع، لم تشمل المقالات الأولى أي هجوم على الحكومة ولا النظام ولا عن تلك المشروعات التي كانوا يتحدثون عنها سلفاً، على ما يبدو أنهم تعلموا الدرس جيداً وأيقنوا أن الهجوم مجدداً قد يكلفهم الكثير هذه المرة، فقط اكتفوا بالحديث عن الشباب وعن تطلعاتهم في المستقبل القريب، مقالات من تلك النوعية التي تتمناها الحكومة ويُحبذها النظام، في نظر المجموعة أن هؤلاء الشباب يحاولون تقديم فروض الولاء والطاعة للنظام وكسب ثقته من جديد حتى يتسنى لهم البقاء في وظيفتهم تلك أطول فترة ممكنة.

البرلمان من جهته أشاد بتلك المقالات وشدد على أهميتها في تثقيف الشباب والجيل الجديد، الكل بدا سعيداً بتلك النقلة النوعية في تفكير الصحفيين وحينها وُضعت الحكومة في مأزق حرج، اتهاماتها باتت لا أساس لها من الصحة بل وأصبحوا مدينون باعتذار للسيد نزار وللمجموعة عن ما بدر منهم، لم نكن نهتم من الأساس باعتذار الحكومة ولم نفكر على الإطلاق في لوم الحكومة على ما حدث بالسابق، فقط يكفينا أنهم شاهدوا صحة رؤية المجموعة حتى تكف أفواههم عن الثرثرة مرة أخرى.

هُيئت الظروف من جديد لاستكمال العمل بالمشروعات ولاستكمال الترويج لها عبر الصحف وعبر القنوات، ممثل الحكومة من جهته خرج في مؤتمر صحفي ليتحدث عن كافة التفاصيل وعن خارطة الطريق وعن المدة المتوقعة للانتهاء منها، لم تشهد الحكومة أجواء كهذه ولا مناخاً مناسباً للعمل كهذا منذ فترة طويلة، اختفت كل العقبات في طريقهم وبدا أن لحظ الحقيقة قد اقتربت، لكن كما يُقال تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن وكأنه قُدر لتلك الحكومة أن لا تنعم بأجواء سعيدة لأكثر من أسبوع واحد على الأقل.

تلك المرة كانت الهدية خارجة من فم ممثل الحكومة، لم يفطن إلا أن التفاصيل المُعلنة في ذلك المؤتمر كانت مختلفة بعض الشئ عن تلك التي أُعلنت في بادئ الأمر، أصبحت الحكومة في موقف لا تُحسد عليه أمام الرأي العام وأمام البرلمان، صارت مُطالبة بتوضيح شامل عن ما صدر على لسان المتحدث الرسمي لها

وعن ذلك الاختلاف الذي ظهر جلياً، بالنسبة لهؤلاء الشباب فلا توجد فرصة أفضل من ذلك للانقضاض ثانية على الحكومة، ومن يعلم فلربما يكون هذا الانقضاض هو بمثابة لحظة النهاية لتلك الحكومة المتخبطة.

بينما كان الشباب منغمسون في التحضير لمقالاتهم الجديدة وكانوا قد انقطعوا عن العالم الخارجي للتركيز قد الإمكان على الخروج بمقالات جيدة قوية جاءتهم الأخبار من الخارج عن تلك الواقعة، انتابهم الشك في البداية واعتقدوا أنه مجرد فخ من الحكومة لإيقاعهم في شر أعمالهم، اعتقدوا أن الحكومة فعلت هذا عن عمد حتى تحمسهم ليكتبوا مرة أخرى عن تلك المشروعات، لم ينجرف أولئك الشباب وراء تلك الأخبار وفضلوا التركيز على ما بأيديهم عوضاً عن الانقضاض على الحكومة.

تدريجياً بدأ الشك ينسلُ إلى قلوب الصحفيين، الأخبار تشيرُ إلى إن ثمة هزة حدثت داخل الحكومة جراء ذلك الحديث وأنها تعمل جاهدة على التعافي من تلك الهزة التي صابتها، بدا لهم أن ذلك الجسد المريض يحتاجُ فقط لمقال واحد للإجهاز عليه وللتخلص منه مدى الحياة ولكن قرار كهذا يحتاجُ شجاعة لا مثيل لها، كان التردد يحيط بهم فلا أحد يريدُ العودة مرة أخرى إلى منزله في الواحدة صباحاً عقب نزهة مع الأصدقاء وسماع المزيد من السباب وفي نفس الوقت فقد لن تتكرر تلك الفرصة ثانية للقفز إلى أعلى درجات السلم المهني في فترة بسيطة.

أخيراً وبعد عناء كبير كلفهم عديد الساعات قد الاستقرار على مقال من شأنه الاجهاز تماماً على ذلك الجسد المعتل والتخلص منه نهائياً، استبعدوا تماماً فكرة العواقب التي قد تُوضع على رؤوسهم وعقدوا العزم على المضي قدماً في تلك المعركة التي هي في نظرهم أسهل من سابقتها، ساعات قليلة متبقية على خروج ذلك المقال المشترك بينهم، الكل بدأ يضعُ يدهُ على قلبه من شدة الخوف، خوف طبيعي في لحظات مثل هذه ولكنه قد يكون إيذانُ بالتخلص من ذلك السجن المُسمى الخوف أبد الدهر.

اجتمع ممثل الحكومة مع الوزراء في أحد المنازل وكان ذلك المنزل بمثابة غرفة العمليات الذي يحاولون من خلاله بحث كل السبل الممكنة للخروج من هذا المأزق الصعب، استمر الاجتماع حتى الصباح في محاولة منهم للوصول إلى حل يُمكنهم من إقناع الرأي العام بأن ما حدث يومها هو مجرد ذلة لسان ليس أكثر وأن هذا الاختلاف في التفاصيل لن يسبب أية مشاكل في طريق تلك المشروعات، الكل بدأ يتصببُ بالعرق من شدة القلق وحاول بعض الوزراء الاتصال بالسيد نزار عساهُ يجد لهم الحل المناسب.

كان السيد نزار على علمٍ مسبقاً بما يجري داخل غرفة العمليات تلك، كان يعلمُ أيضاً أنه لابد وأن يتم الاتصال به من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه، لكنهُ كان يرى أن الوقت قد فات للحديث عن حل وأنه لابد من التسليم بفشل الحكومة في التعامل مع هذا الملف الشائك ورفض الرد تماماً على تلك الاتصالات، من جهتهم حاولوا ترتيب لقاء معهُ في مقر المجموعة لتناول كافة التفاصيل المتعلقة بالقضية وكانوا يعتقدون أن السيد نزار فقط هو من يملك الحل لعتق رقابهم من النيران المحتملة.

على جانب آخر وعلى غرار الوزراء اجتمع الشباب في أحد المنازل أيضاً حتى الصباح وجلسوا يتسامرون حول ذلك المقال المتوقع نشرهُ بعد عدة ساعات، تناولوا كل الاحتمالات فور نشره وبدأ بعضهم برسم مستقبله

وبل والأبعد من ذلك رسم مستقبل البلاد، لكنهم لم يسلموا أيضاً من التفكير في النظرة السلبية ولم يستبعدوا فكرة وقوف البرلمان والشعب في صف الحكومة ثانية وحينها قد لا تجدى الوقفات نفعاً للخروج من الظلام الدامس الذي قد يحيطُ بهم لو نجحت الحكومة في الخروج من محنتها.

بين غرفتي العمليات يجلسُ رجلُ عجوز على قارعة الطريق يحاولُ التخلص من بضاعته تلك المتبقية بحوزته، فقط كل همه جمع المال المناسبُ ليذهب مسرعاً إلى بيته ويتناول جبة العشاء المعتادة بجانب ابناءه وزوجته، لا يكترثُ بشأن تلك المشروعات الكبيرة ولا يلقى بالاً للاختلاف في تلك التفاصيل المعلنة، ربما قد لا يعلمُ من الأساس بشأنها، فقط يعلمُ أن هناك ابنة على مشارف الزواج ولابد من جمع كافة الأموال لكي تظهر بالمظهر اللائق أمام أهل زوجها المحتمل، فقط يعلمُ أن هناك ولدُ في انتظار عودته حتى يستطيع أخذ المال المناسب لدفعه في مدرسته صباحاً قبل أن يلقى خارجها ذليلاً وما بين هذا وذلك يجلسُ العجوز رغماً عن أنفه منتظراً الفرج وقبل أن يلتهمه ظلام الليل الحالك.

في الصباح الباكر اتجه ممثل الحكومة بصحة لفيف من الوزراء تجاه منزل السيد نزار لمناقشة تداعيات الأزمة التي تمرُ بها وللبحث عن مخرج يضمن لهم عدم اهتزاز صورتهم أمام الشعب، قبل الذهاب تواردت لهم أخبار المقال هذا، جن جنونهم ومرة أخرى شعروا بأن السيد نزار قد أبرم صفقة في الخفاء مع هؤلاء الشباب لكي يستغل حالة التخبط التي تمر بها الحكومة وضربها في مقتل، تبدلت المشاعر وبدلاً من الجلوس معه للبحث عن حلول صار الجلوس معه لمهاجمته وإدانته.

في البداية استغرب السيد نزار من حضورهم في وقت مبكر هكذا عوضاً من الانتظار والحضور مساءاً في مبنى المجموعة، لكنه أيقن أن الامر لا يتحمل التأجيل حتى ساعات الليل الأولى، لم يكن مرتاحاً عند دخولهم وإلقاءهم السلام عليه، وإذ فجأة يخرجُ أحد الوزراء من سترته الجريدة التي حملت في طياتها ذلك المقال وألقاه أمام أعين السيد نزار بادراً إياه بسؤاله " ما هذا ؟ " ابتسم السيد نزار واندهش من ردة فعل الوزير وسؤاله قبل أن يجيب " كيف لي أن أعرف ما هذا " اشتد غضب الوزير وتابع حديثه قائلاً " هذا مقال مكتوب على يد أولئك الشباب الذين كنت أنت من أعادهم للنور مرة أخرى "

بمجرد سماعه ذلك الحديث حتى أدرك السيد نزار أنه أمام تهمة التآمر مع هؤلاء الشباب للإحاطة بتلك الحكومة أو على الأقل وضعها في موقف لا تحسد عليه أمام شعبها، أنكر تماماً معرفته بذلك المقال وأنه لا يعرف من الأساس أنهم عادوا للحديث عن السياسة، كلماته تلك أشعلت النيران في قلوبهم وبادر وزير منهم بالحديث قائلاً " صفقة جديدة تلوح في الأفق أيها العجوز " تلك العبارات كانت بمثابة انتهاء واجب الضيافة بالنسبة للسيد نزار وعندها قرر رد الهجمات " أطفال صغار يجهلون إدارة الأزمات ولا يمتلكون الحد الأدنى من الوعي يأتون إلى منزلي ويهاجمونني على خطأ لم اقترفه ولا توجد أية صلة لي به من قريب أو من بعيد " فور الانتهاء من حديثه ولى الوزراء بالخروج سريعاً نحو طريق هم يجهلوه تماماً في مشهد يبين مدى التخبط الذي تمر به تلك الحكومة .

في الوقت ذاته كان هؤلاء الشباب في موقع الجريدة يرصدون ردود الأفعال على ذلك المقال، البعض منهم يشعرُ بالخوف من بطش النظام ومن ردة فعله والبعض الآخر يعلم أنها الفرصة الأخيرة، نظرات زملائهم في العمل كانت تحمل طابع الإعجاب بما قدموه ونزلت عليهم الطمأنينة قليلاً، الأهم من تلك النظرات هو رد فعل الشارع وهل سيستمع إلى نداء الحقيقة ؟ هل سيكون هذا المقال كافياً لإزالة تلك الغشاوة من على أعينهم ومعرفة من له مصلحة في تردي الأوضاع الاجتماعية في البلاد ؟

قبل البحث عن إجابات عن تلك الأسئلة وجب عليهم الإجابة عن السؤال الأهم وهو وماذا بعد المقال ؟ قد يبدو السؤال سهلاً وبسيطاً ويتكون من ثلاثة كلمات ولكنهُ قد يحتاج مئات الكلمات عساها تكفي للإجابة عنه، ولكن الإجابة عن هذا السؤال مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بردة فعل النظام، من جهته لم يتأخر الرئيس في إعطاء الأوامر لأجهزة الأمن بإلقاء القبض على هؤلاء الشباب، الأوامر خرجت من أروقة المكتب الرئاسي بدافع الوقوف إلى جانب حكومة الرئيس.

على الفور عُقد اجتماع عاجل في مبنى المجموعة لمناقشة ما حدث خلال الساعات الماضية من أحداث قد تشكلُ خطراً على النظام وعلى المجموعة، انتقد السيد نزار وبشدة تلك القرارات ليس عطفاً منه بالتأكيد على هؤلاء الشباب فلو كان الأمر بيده لأطلق على كل واحدٍ منهم رصاصة في رأسه وأنهى الأمر في غضون دقائق، لكن انتقاده هذا حرصاً منه على مستقبل المجموعة والنظام فهو يعلم تمام العلم أن قرارات كتلك قد تشعل النيران داخل الشارع وقد يتعاطف الشعب مرة أخرى مع تلك الأقلام الشابة.

سيطر الإحباط على أولئك الشباب ومن جديد ينتهي بهم المطاف داخل أروقة السجن والمتهمون الحقيقيون بالخارج يقودون السيارات الفارهة، في الحقيقة فالمتهمون يقودون السيارات الفارهة ولكنهم ليسوا بأفضل حالاً من أولئك القابعين في السجون، حاول الرئيس الوصول إلى حل مثالي للخروج بتلك الأزمة إلى بر الأمان، كان يرى أن المجموعة والحكومة قد وضعوه في موقف لا يحسد عليه وهو الآخر يريد تحسين صورته كي يضمن البقاء أطول فترة ممكنة على هذا الكرسيً.

لم يكن خفياً عن أعضاء المجموعة أن ثمة خلاف يلوح في الأفق بين السيد نزار من جهة والحكومة والرئيس من جهة أخرى، لازالت وجهة نظره لم تتغير وهي أن الزج بهؤلاء الشباب داخل السجون سيدفع النظام ضريبته غالياً، حاول من جهته نفي كل تلك الإشاعات المنتشرة بوجود خلاف بينه وبين الحكومة والرئيس ولكن رائحة كذبه قد وصلت إلى ذلك الرجل أسفل المبنى الذي يبيع الطعام، فكرتُ أكثر من مرة بسؤاله عن حقيقة تلك الخلافات ولكن في كل مرة يعجز لساني عن النطق واكتفي بالمشاهدة من بعيد، رأيت أن هذا الوقت ليس مناسباً للحديث عن تلك الأزمة وغض الطرف عن الأزمة الأهم.

على مقربة من مبنى المجموعة كان الرئيس بصحبة مستشاريه يفكرون سوياً في إنهاء ذلك الملف تماماً مهما كلفهم الأمر، لقد ضاق ذرعاً من السيد نزار ومن الحكومة ورأى أنهم قد يضيعون عليه فرصة البقاء حاكماً لهذا الشعب، بدا وكأنه كلب جائع يلهثُ يمينا ويساراً بحثاً عن ذلك اللحم الذي قد ينهي جوعه هذا، لم يلقى بالاً

لحقيقة تلك المشروعات ولم يفكر على الإطلاق في الخروج على الشعب والاعتراف بالخطأ الذي وقعت فيه حكومته وأنه سيعاقب المخطئين أشد العقاب، جل همه يتمثل في الظهور على شاشات التلفاز والجلوس في قصره الفخم منتظراً ضيوفه من الرؤساء أمثاله.

بينما الكل بالخارج يحاول أن يجد حلاً يضمن لهُ البقاء حتى ولو على حساب هذا الشعب التعيس، توجد مجموعة من الشباب قابعة داخل مقرات الأمن وكل همها إيجاد حل يضمنُ للشعب أن يعيش حياة مستقرة آمنة، لكن تلك الأحلام يجدر بهم أن يحققوها في سيناريو لفيلم العرض الأول أو في مسرحية بائسة تحاولُ نصرة الأخيار على حساب الأشرار، لم يلتفت أحدُ على الإطلاق إلى هؤلاء الشباب حتى ذلك الشعب الذي كان كل همهم نصرته فهو قابعُ في أسفل البئر بعيداً كل البعد عن ضوء الشمس .

حاول المقربون من الرئيس إقناعه بالخروج إلى الشعب والاعتذار لهم عن ما بدر من الحكومة وتحججوا بأن الشارع يريد تفسيراً لما حدث متجاهلين فكرة أن الشارع قد سئم من كثرة الكلام وأنه لا يهتم من الأساس بحديث الرئيس من عدمه ولكن تلك الحجج كانت تمثل الورقة الأخيرة للضغط على الرئيس من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه، حتى المقربون، يدركون تماماً أن سقوط النظام يعني بالضرورة سقوطهم معه، يفكرون في مصلحتهم فهم بالتأكيد لا يحبذون فكرة أن ينتهي بهم المطاف وهم يرتدون تلك الملابس المهترئة داخل حجرات السجن.

لم تنتهي محاولات المقربون عند هذا الحد بالتأكيد، فحاولوا تهدئة الأجواء بين السيد نزار وبين الرئيس وخرجت الفكرة بأن يجلس السيد نزار بصفته رئيساً للمجموعة ونائباً عنها مع الرئيس على طاولة واحدة لإنهاء ذلك الخلاف تماماً، بالفعل نجحت محاولاتهم تلك وانتهى الخلاف بينهم وأصبح من الماضي وفي تلك الجلسة اقتنع الرئيس بفكرة الخروج على شاشات التلفاز والحديث وجهاً لوجه مع الشعب وتوضيح كافة الأمور المتعلقة بقضية المشروعات التي شغلت الرأي العام.

كان الاتفاق في المكتب الرئاسي ينصُ على الإطاحة بممثل الحكومة حتى تخف وطأة الانتقادات ووافق الرئيس على بنود هذا الاتفاق تماماً، لكن المفاجأة لم تأت بعد، انتهى المؤتمر الصحفي ولم يعلن الرئيس عن الإطاحة بهذا المتحدث الذي كان السبب الأول لتلك الأزمة، لم يكن غريباً أن يتجاهل الرئيس بنود تلك الاتفاقية فهذا المتحدث يعد من الأشخاص المقربين للرئيس وكان عينه الوحيدة داخل أروقة الحكومة ولا يجدر به التخلص من عينه الوحيدة بالتأكيد.

من جديد عاد الخلاف مرة أخرى بين السيد نزار والرئيس، وأمر بحضور كافة الأعضاء إلى اجتماع عاجل ومهم لا يتحمل التأجيل، بدا عليه القلق وتأخر كثيراً في حديثه قبل أن ينطق أخيراً قائلاً " لا يدرك الرئيس بأن فعلته آنذاك قد تطيحُ بها خارج ذلك القصر الفخم " لم يكد ينهي حديثهُ حتى بادرت بسؤاله مسرعاً " وما هو هدف الرئيس من بقاء هذا الغبي داخل المطبخ السياسي ؟ " صمت لوهلة قبل أن يجيب " هذا الغبي هو عينه الوحيدة داخل الحكومة، أعرف أنك ستقول أن الوزراء يدينون بالولاء للرئيس ولكنه لا يريد تكرار ما حدث في السابق مع أولئك الوزراء الفاسدين "

بقدر ما كان السيد نزار غاضباً من الرئيس إلا أن لغة التواصل بينهم مازالت مستمرة وهذا ما ظهر جلياً في الاجتماع، فلا يزال السيد نزار يتحدث عنه بصورة جيدة ولكن هذا منطقي عندما تعلم أن السيد نزار يريد بقاء الرئيس أطول فترة ممكنة حتى يتنسى له تقوية المجموعة قدر الإمكان بحيث إن وقع النظام في يوم من الأيام تكونُ المجموعة في مأمن تام بعيد عن أي سقوط محتمل، ومن هنا جاءت فكرة العمل على خطة تكفل له وتكفل لنا البقاء ولو حتى خلف الستار نلقنُ من يقفُ على خشبة المسرح الحديث.

في بادئ الأمر كان هدف السيد نزار حماية النظام قدر المستطاع والعمل على بقاء الرئيس أطول فترة ممكنة، ثمة أشياء قد تغيرت وجعلت تفكيره يتغير مائة وثمانون درجة والحقيقة أن تلك الخلافات التي نشبت كان لها تأثير مهول على بث أفكار جديدة في عقل الرأس الأكبر للمجموعة، بعد أن خرج للشعب في حديثه وتجاهل تماماً الحديث عن المخطئين أدرك تماماً أن ذلك النظام قد لا يستمر طويلاً وأن عليه العمل على تقوية مجموعته حتى لا تصيبها هزات الزلزال إن حدثت، كان يريدُ أن يتقدم بخطوة على الرئيس وقرر التفرغ تماماً لتلك القضية المهمة.

في الجانب الآخر لم يتغير الشئ الكثير داخل المكتب الرئاسي ولازال مؤشر التفاؤل مرتفعاً ببقاء سيادته فترة رئاسية أخرى، من جهته تنفس ممثل الحكومة الصعداء عقب ذلك المؤتمر وكان أشد المستفيدين من انعقاده وكان بمثابة شهادة ميلاد جديدة له، لم يكن الرئيس قلقاً بشأن تلك الخلافات الدائرة بينه وبين السيد نزار وكان يعتقد أنها لن تطول وأن مصير المجموعة مرتبط بالضرورة بمصيره، اعتقاده هذا جعله في الآونة الأخيرة يتناول عديد القضايا مع حكومته عوضاً من عرضها على المجموعة.

" من الجيد أنه قد انفرد بعديد القضايا مع حكومته البائسة تلك، لا يعلم أننا كنا نريد مثل هذه القرارات، فتلك هي الفرصة الأمثل للتركيز على الخطة الأهم على الإطلاق في المرحلة الحالية " هذا كان تعقيب السيد نزار على ما بدر من الرئيس ومن هنا دقت ساعة العمل، أعضاء المجموعة كانوا يعلمون أنهم مقبلون على منعطف تاريخي قد يغير حياتهم بالكامل، منعطف عليهم تجاوزه دون التشبث بتلابيب النظام، غير مسموح بالخطأ على الإطلاق في تلك اللحظات الحرجة.

ما لبثت الحكومة أن تريح جسدها الذي نالته أسهم الانتقاد حتى أُطلق عليها سهم جديد لم تضع له حسباناً، مقال ينتقد ما حدث لأولئك الشباب وأن سياسة النظام تلك لن تجدي نفعاً في حل القضايا والأزمات، هذا المقال كان عن طريق صحفيين أصدقاء لأولئك الشباب، فقط القلم وحده من يقدرُ على جذب الانتباه إلى تلك الغرف المظلمة، فقط القلم وحده من سيذكر الأمن بأن هناك مجموعة من الشباب كل جريمتهم أنهم انتقدوا الحكومة على خطأ لا يستهان به ولا يغتفر مهما خرج من أعذار.

شاب لتوه بدأ يفيق من آثار تلك الضربة الموجهة نحو رأسه ولما بدأ يستجمع قواه حتى ضُرب مرة أخرى ضربة أفقدته الوعي وجعلت الدماء تسيل منه في منظر يوحي بالوهن، هكذا كان حال النظام والحكومة وبمجرد أن حاولت التخلص من تباعات المقال الأول حتى جاءهم مقال من حيث لا يحتسبون خلط كل

الأوراق، من جديد اعتقدت الحكومة أن هذا المقال الجديد قد صيغت كلماته ورُتبت عباراته داخل أروقة الغربان وأن ما فعلته المجموعة هو رد فعل لما حدث ليلة مؤتمر الرئيس.

في مكان هادئ بعيداً عن ضوضاء العاصمة تجلسُ هند وتعلوها الابتسامة الجميلة أمام ذلك الشاب الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى من أن يصبح زوجها، نسمات الهواء اللطيفة ووضوح القمر في تلك الليلة كانا لائقان على العروسين، كلُ منهما يفتحُ قلبه للآخر دون تكلف يذكر، لقد ذابت جبال الجليد التي كانت تمثل حاجزاً كبيراً في بداية تعارفهما، هكذا هو الشعور بالحب يُنسيك نفسك ويغير من شاكلتك تماماً، تبدو سخيفاً أمامهُ وكأنك قد شربت كاساً من الخمر ولا تدري متى ستفيق ولا حتى كيف ستفيق.

بعيداً عن كل مشاعر الحب تلك تقف فتاة أتعبها الملل من وراء نافذتها ترقبُ حدثاً جديداً، لقد سئمت ذلك النظام وكأنها تريدُ شيئاً فوضوياً يكسرُ كل حواجز الرتابة تلك التي أحاطت بها من جميع الاتجاهات، حاولت مراراً وتكراراً إيجاد نفسها هُنا كما فعل والدها سابقاً لكنها تفشل في كل مرة أو بالأحرى لازالت رافضة أن تعطي نفسها الفرصة الكاملة للخروج من كل هذا، لازالت تفتح التلفاز كل يوم وتراقب أخبار الديار والبلاد، لازالت تحلمُ بالعودة مرة أخرى رغم لهيب نيرانها.

هنا في الديار لازالت الأجواء مشحونة كلية عقب تلك الأحداث المتتالية، كانت المجموعة قد قررت الإغلاق على نفسها تماماً وترك معظم القضايا للحكومة وللنظام، عقب ذلك المقال المتضامن مع هؤلاء الشباب لم يكن أمام النظام خيار سوى إطلاق سراحهم وإلا فالعواقب قد تكون أكبر من سقف توقعاتهم، النظام تجاهل تماماً مطالب المقال وأصر على رفض خروج أولئك الفاسدين في نظرهم، الأوامر هذه المرة خرجت من المكتب الرئاسي طالبة من الإعلام تكثيف الهجوم عليهم وعلى من يدعمهم.

" هذا الهجوم المكثف يعد من أسوأ القرارات التي اتخذت في تاريخ النظام " هذا كان تعقيب السيد نزار على قرار تكثيف الهجوم من الإعلام، كان يرى أن مثل هكذا قرار يوضح مدى الترهل الذي أصابهم وانعدام الإبداع في اتخاذ القرارات، كل تلك الأحداث كانت المحرك الأول لفكرة الاستقلال، لا يريد أن يرى كل ذلك المجهود أن يذهب أدراج الرياح بسبب نظام أصيب بدوار البحر وأصبح لا يدري ماذا يفعل، أراد أن يحمي نفسه ويحمي مجموعته من توابع دوار البحر هذا ويتجنب الفناء.

لم يكن أمام كُتاب المقال سوى الخروج إلى وقفة تدعو لخروج زملائهم من سجنهم هذا، يعلمون تمام العلم بأن النظام قد يتجاهل تلك المطالب بل وقد يتم الزج بهم داخل السجون مع زملائهم ضريبة كثرة استخدام لسانهم، جاءت الأخبار إلى مسامع النظام وحكومته وكانت الأوضاع لا تتحمل وقفات أخرى وجاءت القرارات بالتجاهل التام من جديد لتلك الوقفة وإن لزم الأمر فيجب إبعادهم ولو بالقوة، رجال الأمن بدورهم باتوا لا يتوقفون عن العمل تارة مع المشجعين وتارة مع الصحفيين وكأن النظام استخدمهم للهروب من مواجهة الحقيقة.

يوم تلو الآخر ولازالت الوقفة كما هي ولازالت الحناجر تهتف ولم تكل أو تمل، يوم تلو الآخر ولازال النظام يهربُ من مواجهة الحقيقة كما لو كان طفلاً صغيراً يرتعد من الأشباح، الحقيقة تكمنُ في الجلوس وجهاً لوجه أمام الوزراء ومعرفة أوجه القصور والخلل لكنهم مشغولون بكيفية الحفاظ على مقاعدهم تلك، لن يسمحوا لأحد بسلبها مهما كلف الأمر، لم يدركوا أن ذلك الهروب المتكرر قد يكلفهم الكثير والكثير، فالأمر أكبر من مجرد مقاعد وأكبر من مجرد مكاتب كبيرة واسعة.

انقطعت كافة الاتصالات مع الحكومة والرئيس وصارت المجموعة تعمل وحيدة منعزلة عن البقية، السيد نزار كانت له رؤية ثاقبة فالمرض قد انتشر بالكامل في جسد النظام ونال منه ما نال، وبالكاد يستطيع الحراك من فراشه كي يعطي أوامر لا فائدة منها، لكنه لازال يظهر بمظهر القوة والسيطرة أمام الشعب، أخفى علته تلك التي أوشكت أن تطرحه أرضاً وأظهر التماسك أمام الحشود، وبمرور الأيام واستمرار الوقفة يزداد انتشار المرض وتمكنه من ذلك الجسد الضعيف الذي لا يقدر حتى على مقاومة برد الشتاء.

انضم العديد من الصحفيين لتلك الوقفة وازدادت أعداد الحناجر المطالبة بخروج زملائهم من محبسهم، شُل تفكير النظام تماماً وتوقف عن الحركة مثلما توقف جسده أيضاً، يحتاجون لمعجزة من السماء كي تنقذهم من هذا الوضع، حاولوا كثيراً الوصول للسيد نزار كي يجد لهم الحل المناسب للخروج من تلك الأزمة العصيبة ولكن دون جدوى، عادت غرفة العمليات لتكون موقع الوزراء للتشاور في كيفية المرور من هذا الظرف الصعب بأقل الأضرار الممكنة وبدون التضحية بأحد منهم.

الأعداد في ازدياد والوقفة صارت اعتصاماً كاملاً لا يتحرك منه أحد، أخبار الاعتصام بدأت تصل لعامة الشعب وصارت المطالب تنادى بإقالة الحكومة بعد أن كانت تنادي فقط بخروج زملائهم وضمان الحرية في المستقبل القريب، اعتقد النظام خاطئاً أن ذلك الاعتصام لن يستمر طويلاً وأن الرتابة والملل سيحلُ عليهم عاجلاً أو آجلاً، في الحقيقة لم تكن لدى النظام خطة واضحة لمواجهة ذلك الاعتصام، الدعوات وحدها لن تكفي لحفظ مكانهم فيجب عليهم الأخذ في الاعتبار أنهم يواجهون شباباً سئموا تربع هذا النظام على عرش البلاد وسئموا طريقته في إدارة شئون وطنهم.

أُصدرت الأوامر كالعادة إلى الإعلام بتجاهل كل ما يحدث داخل الاعتصام والحديث عن بقية القضايا ومنها تلك المشروعات، صدى صوت المعتصمين أجبر النظام بتغيير الأوامر وهذه المرة كانت مهاجمة المعتصمين وأنهم يقفون عائقاً أمام مصلحة البلاد وأشياء من هذا القبيل، ولكن على ما يبدو فقد فات أوان تلك الهجمات وأيقن كبار رجالات الإعلام بأن استمرار الهجوم على هؤلاء الشباب لن يصب في مصلحتهم في حالة سقوط النظام وقد ينتهي بهم الحال قابعين في منازلهم فاقدين لوظيفتهم.

أدرك الرئيس بأنه بات محاصراً من كل الجهات، مجموعة انعزلت عنه وحكومة لا تقوى على مساعدة نفسها وإعلام بات يقف بجوار المعتصمين ورجال الأمن ضاقوا ذرعاً من كثرة التعليمات، لكنه كان متردداً بشأن أولئك الشباب الماكثين في السجون وهل سينتهي الاعتصام فور إطلاق سراح زملائهم ؟ لكن الشئ الأكيد بأن

استمرار تجاهل الاعتصام بات أمراً غير مقبولاً على الإطلاق وعلى الفور خرج القرار أخيراً بالإفراج عن الصحفيين أملاً في انتهاء ذلك الاعتصام إلى الأبد.

كان الرئيس في مكتبه يراقب ساعته قلقاً وينتظر وصول أخبار انتهاء الاعتصام عقب تلبيته أهم طلباتهم، لكنها كانت لحظات بسيطة قبل انفجاره كالقنبلة الموقوتة ، جاءت الأخبار إلى مكتبه ولم تكن مبشرة نهائياً، الاعتصام مستمر حتى يتحقق الطلب الآخر وهو رحيل الحكومة بالكامل دون استثناء أي وزير منهم، " يبدو أنه جن جنون هؤلاء الخارجين عن القانون، يطالبون برحيل حكومة بأكملها، لقد تمادت طلباتهم ولابد أن يتذكروا مع من يتحدثوا " تفوه الرئيس بتلك الكلمات بوجه أحمرَ من شدة الغضب ورأى أن رحيل الحكومة يعني بالضرورة فقدان القوة الوحيدة المتبقية له بعد أن خسر الإعلام والمجموعة.

حاول الرئيس تنسيق اجتماع مع أولئك الشباب بعد إلحاح متزايد من مقربيه، كانت وجهة نظر المقربين أنه يمكن للرئيس عقد اتفاق معهم من خلاله ينتهي الاعتصام ويرحل بعض الوزراء وليست الحكومة بأكملها، لكن الغضب أبى أن يفارقه في تلك الآونة ورفض المعتصمون رفضاً قاطعاً فرصة الجلوس معه وجهاً لوجه وكرروا طلباتهم إلى مسامع النظام، لم يكن أمامه سوى الخروج إلى شاشات التلفاز بخطاب يستجدي فيه تعاطف الشعب بعديد الكلمات الرنانة والعبارات البراقة، كانت آخر فرصة له حتى يضمن على الأقل البقاء لنهاية مدته بعد أن كان سابقاً يخطط للجلوس طيلة سنوات وسنوات.

بدا على ملامحه الضعف والعجز، كانت تلك المرة الأولى الذي امتُزج حديثه بلحن الانكسار، غاب الكبرياء عن حديثه، غاب الغرور عن أساليبه الكلامية، بات ذليلاً يستعطف العامة كي يقفوا بجانب النظام، نظام لطالما أغلق مسامعه أمام شكاوى الشعب، لطالما أُغلقت مكاتبه أمام طلبات الشعب، يأتي الآن ويطلب بكل وقاحة أن يقف الشعب بجواره كي نمر سوياً من تلك الأزمة، انتهى الخطاب وولى مسرعاً إلى مكتبه حيث عديد الصحف الملقاة على طاولته وشاشة التلفاز ينظر من ورائها إلى أولئك الشباب التي لا تزال حناجرهم تزلزلُ الأرض من تحتهم.

رفض الخروج من مكتبه وأمر بأن تقام الاجتماعات عنده وكان ينام ساعات قليلة ويفكر ساعات كثيرة، يتمنى أن يغلق عينه ويفتحها ثم يجد الاعتصام قد تبخر تماماً لكنها مجرد أحلام لا تمس للواقع بصلة، كلما اقترب أن يوافق على طلبهم برحيل الحكومة كلما تذكر أنه قد يصبحُ عارياً بعدها، المقربون منه نصحوه بأن يجتمع مع كبار رجالات الأمن المحتفظين بولائهم له للبحث عن الطريقة المثلى لفض هذا الاعتصام نهائياً وإنهاء تلك القضية للأبد حتى لو كلفه ذلك حياة بعض المعتصمين.

كانت الأجواء داخل المجموعة تشير بقرب رحيل الحكومة رغماً عن أنف الرئيس، السيد نزار رفض من جديد الذهاب إلى مكتبه مع رجالات الأمن للحديث عن طريقة تُفض بها الاعتصام، " لن ينجحوا في فض ذلك الاعتصام، الأفضل له أن يرضخ ويعلن رحيل الحكومة حتى يمتص غضبهم، ولكنه في المرحلة الأخيرة، إنه يصارع الموت ! رجل عنيد سيرحل ضحية لأفكاره تلك " على قدر ما كان السيد نزار رافضاً سياسته تلك على ما قدر ما كان حزيناً على ما يجري لهذا الرجل العجوز.

كل تلك الأحداث لم تخفى على يوسف ورفض أن يتعلق بذلك الخيط الرفيع، رفض مجرد التفكير في رحيل هذا النظام، كل يوم يفكر بالانضمام إلى هذا الاعتصام ولكنه يخشى ظلمات السجن، يخشى أن تكون تلك الآمال سراباً في نهاية المطاف، لازال أمر الحزب عالقاً في ذهنه، لازال يتذكر كيف أُزهق حلمه وهو يحبو خطواته الأولى، في السابق كان وحيداً عكس تلك اللحظات التي تقف بجواره فتاة في مقتبل العمر لن تسمح بالتأكيد أن يرمى زوجها القادم خلف القضبان وتنتهي حياتها حتى من قبل أن تبدأ.

أخبار الاعتصام قد وصلت إلى نضال، هي الأخرى لازالت مترددة بشأن العودة مرة أخرى للديار، لا تريد أن تكبت عناء السفر ومن ثمَّ العودة ثانية إلى والدها يحدثها عن تطور تلك البلد التي يقطنها وعن مدى تخلف موطنهم الأصلي، لقد سئمت الجلوس قابعة في غرفتها متذكرة كل ما مر عليها في بلادها، لازالت تحلمُ بالتغيير، لازالت تحلم بأن تمشي في الشوارع والحارات ويعلو صوتها منتقداً الحكومة دون أن ينتهي بها الحال في قضية تناول المخدرات، لازالت تحلمُ برفع اللافتات دون أن يلقى عليها القبض وتخرج وهي تذرف الدموع من سوء معاملة رجال الأمن.

في النهاية وبعد شد وجذب وبعد تفكير عميق قررت أخيراً السفر إلى البلاد، لقد كان هذا القرار مغامرة من الدرجة الأولى فهو بمثابة العودة إلى المجهول، أي فشل محتمل قد يطيح بأحلامها تلك إلى البلد، قد تنكسر هذه المرة ولا أحد يعلم كيف ستفيق في حالة انكسارها، أبى والدها أن يجبرها على البقاء بجواره والجلوس أمامه، لطالما أعطاها الحرية في اختياراتها، رأى في عينها الثورة على التقاليد وعلى النظام، رأي في عينها طفلاً صغيراً يجري بكل ما أوتي من قوة سعياً وراء الحرية فقط الحرية !

الثانية عشر صباحاً ولازال النوم لم يعرف لي طريقاً قط، فشلت في منع مخيلتي في التفكير فيما يجري داخل البلاد وفشلت أيضاً في صد الأسئلة هذه المرة، كنت مع تفكير السيد نزار قلباً وقالباً في فكرة الاستقلال ولكن في نفس الوقت لا أخفي تعاطفي مع الرئيس، ليس تعاطفاً مع شخصه بل تعاطفاً مع بقاء سياسة النظام كما هي، رحيله يعني بالضرورة استنشاق هؤلاء الشباب هواء الديموقراطية والحرية بعد أن كانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة من شدة القمع، لا مزيد من هواء الحرية والديموقراطية !

في اليوم التالي عقدت العزم على التحدث مع السيد نزار وجهاً لوجه والكشف له عن تلك المخاوف التي أحاطت بي عساه يحاولُ نجدة المجموعة قبل نجدة النظام، عساه ينقذنا من ريح الديموقراطية الذي من الممكن أن يطيح بنا أرضاً، القدر أراد أن تبقى تلك المخاوف بداخلي فقط ولم استطع الحديث معه بشأنها، كان في عجلة من أمره وعلى ما يبدو أن المرض قد تفشى تماماً في جسد النظام وكل ما تبقى هو إعلان وفاته، رفضتُ أن أجلس هكذا دون التحدث مع أحد بشأن ما يدور وحاولت معرفة ردود فعلهم حول المستقبل المجهول الذي نحن بصدده وكيف سنتعامل فيما بعد ؟

اكتشفت أني الوحيد بين أعضاء المجموعة تقريباً الذي يحيط به الخوف من كل جانب، الكل أجمع على ثقته بالسيد نزار وعلى قدرته في الحفاظ على مستقبل هذه المجموعة بعيداً عن وباء الأمراض الذي حل بالنظام، يا لهم من حمقى ! فلا أحد شكك بقدرته على فعل ذلك ولكن ماذا سيفعل حيال الديموقراطية التي ينادي بها

أولئك الشباب ؟ هل ستجدي سياسة العصى نفعاً بعد كل التضحيات التي قدمها أفراد الاعتصام ؟ تباً لذلك الجسد اللعين الذي شارف على الموت وسيهلكنا معه .

حاولت الاتصال بالوزراء لإنقاذ ما يمكن إنقاذه لكن على ما يبدو أن الغباء هو الآخر قد تفشى تماماً في أروقة النظام، لقد رفضوا تماماً الحديث مع أي عضو يتبع تلك المجموعة التي في نظرهم هي سبب كل ما يحدث لهم، تناسوا تماماً أنهم من أدخل البلاد في تلك المرحلة الصعبة، الكل أغلق آذانه ورفض الحديث ولم يتبقى سوي نفسي أحدثها عما يدور وأحدثها عن كل ما أشعر به، ذهبت إلى منزلي مثقلاً بالهموم وكأنني عجوز أتعبته الدنيا وما فيها .

السابعة صباحاً كانت موعداً لاجتماع آخر بين الرئيس وبين رجال الأمن، كل الاجتماعات السابقة كان متردداً بشأن الكيفية التي سينهي بها رجاله هذا الاعتصام، لم يرد أن يلجأ للعنف في البداية حتى يظهر للشعب حسن نيته لكن في قرارة نفسه يتمنى وأن يحمل السلاح ويفتك بهم واحداً تلو الآخر، بدأ الاجتماع دون مقدمات وبدأ حديثه سريعاً " لا أريد العنف في البداية، لا أريد تعاطفاً قد يطيح بنا في النهاية، قطع الامدادات قد يكون كافياً لرحيلهم " انهى تلك الكلمات وولى مهرولاً إلى غرفته منتظراً الأخبار الجيدة .

ما لبث أن انتهى الاجتماع حتى قام رجال الأمن بوضع خطة محكمة تمكنهم من فض ذلك الاعتصام دون إطلاق رصاصة واحدة، قطع الكهرباء كان الركن الأول من أركان تلك الخطة الأمنية، بالطبع لم يكتف رجال الأمن بذلك وهددوا كل من يمد المعتصمين بالطعام والشراب، أراد رجال الأمن بداية التنفيذ ليلاً حتى تكون الأجواء أكثر صعوبة، كان المعتصمون يظنون أن الأمن لن يتدخل وأن الطريق أصبح يسيراً أمامهم وما هي إلا بضع خطوات حتى ينتهي أمر ذلك النظام إلى الأبد، لكن رجال الأمن لم يدلوا بدلوهم بعد ومازالت هناك مفاجأة قد تقضي على كل تلك الأحلام.

ما بين استعداد رجال الأمن وما بين غفلة المعتصمين كانت هناك فتاة ترتقبُ من العودة مرة أخرى إلى بلادها حاملة معها الكثير من الطموح والأمل، كانت تتابع من وراء تلك النافذة الصغيرة الشوارع والطرقات، كانت تتابع وجوه المارة وتحدث نفسها بأن وجوهم العابسة تلك ستصبح باسمة غداً، كانت تريد أن تنزل من السيارة وتتحدث إلى كل واحد منهم، فقط بضع دقائق وكانت قد وصلت إلى منزلها، كانت قد قررت تأجيل فترة الذكريات مع منزلها وارتاحت قليلاً ومن ثمَ ذهبت إلى مكان الاعتصام، كانت مفعمة بطاقة وحيوية افتقدتها منذ الأيام الأولى لذلك الحزب.

بعد تفكير استغرق الكثير من وقته وبعد شد وجذب مع عقله وقلبه عقد يوسف العزم أخيراً على الذهاب إلى الاعتصام، كان يرى أنها الفرصة الأخيرة لركل مؤخرات أولئك الفاسدين بعيداً عن مركز الحكم، قد لا تأتي تلك الفرصة مرة ثانية، يعلم أن بقاءهم بعد تلك الظروف العصيبة لن يزيدهم إلا قوة وحينها سيجد كل من في الاعتصام نفسه داخل السجون بانتظار أن تلين قلوب حراسهم قليلاً ويعطونهم الطعام والشراب، هذه المرة المعارضين يتقدمون بخطوات ليست بالقليلة عن النظام، فرصة جيدة للانتقام من نظام أجلسه بجوار أمه يندب حظه على مستقبل مشرق كان يلوح في الأفق، حان الوقت لعودة المستقبل المشرق.

مساءاً ذهب يوسف إلى مكان الاعتصام وأحس وكأن الروح قد عادت مرة أخرى إلى جسده، أحس وكأنه أرض بور انتعشت بجريان المياه العذبة فيها، أحس وكأنه صبي يلامس لعبته المفضلة للمرة الأولى، فشل في إخفاء الدموع قبل أن ينسل إلى الداخل، لكن المفاجأة لم تأت بعد، من كانت يوماً تقف بجانبه تراقب تلك العبارات والكلمات ها هي من جديد تقف بجانبه في سبيل تحقيق ذات الهدف، نظرات وابتسامات كانت عنوان اللقاء الأول بعد خيبة الأمل تلك، اختفت الكلمات وحلت مكانها الهتافات، لازال هذان الشابان على قيد الحياة.

لكن تلك الابتسامات لم تدم طويلاً، نفذ الطعام والشراب من المعتصمين وحاولوا كعادتهم الاتصال لجلب الامدادات اللازمة لهم، لا أحد يجيب، حتى من تطوع وأجاب عليهم رفض بصوت يحمل في نبراته الخوف مساعدتهم، لا توجد أية أسباب قوية لرفضهم، دقائق قليلة كانت تفصلهم عن انقطاع الكهرباء، في غضون ساعات انقلب الوضع رأساً على عقب وكأن النظام يريد أن يلعب لعبة مع المعتصمين، تسلل الاحباط إلى بعضهم وازداد شعورهم بالفشل من جديد بعد أن كادت أيديهم تلامس النجاح، لكن البعض الآخر لم يفقد الأمل وظلت حناجره تهز أرجاء المكان في رسالة قوية للنظام مفادها أن الأمور لن تنتهي بتلك السهولة.

الساعة العاشرة صباحاً وكأن شيئاً لم يكن، الهتافات تهز الاعتصام والحناجر وكأنها لم تتأثر بقلة المياه، الأجواء مازالت كما هي، يبدو أن الرسالة التي أراد أولئك الشباب إيصالها للنظام قد وصلت بالفعل ، كان رجال الأمن يقفون من بعيد يراقبون الأوضاع، يعتقدون أنها الجولة الأولى وأن تلك الحناجر لن تستمر بنفس القوة وأن خطتهم ستنجح رغماً عن أنف المعتصمين، بدأ الارهاق والتعب يحل على بعض أفراد الاعتصام وحاولوا الاتصال بكل الأماكن القريبة منهم ولكن لا فائدة تذكر، كان عليهم قطع مسافات كبيرة كي يتسنى لهم أن يأكلوا ويشربوا، ما زاد من تعقيد الأمور هو رفض رجال الأمن دخول المعتصمين بالطعام، من يريد الطعام فليذهب بعيداً ويملأ بطنه ومن ثُمَ يمكنه العودة مرة أخرى إلى أحضان الاعتصام.

لا حل سوى أن يقسم أعضاء الاعتصام أنفسهم إلى مجموعات، مجموعة تجلس وتراقب المكان ومجموعة تخرج للطعام والشراب، كانت تلك هي الثغرة الأولى التي أحدثتها الخطة وبالرغم من أنها قد لا تعني شيئاً إلا أنها أصابت رجال الأمن ببعض من التفاؤل الحذر، كانت قد وصلت إلى مسامع الرئيس تلك الأخبار ولكنها لم تصبه بالسعادة على قدر ما أصابته بالإحباط، كان يظن أن تلك الخطة قد تنجح بين ليلة وضحاها، في الحقيقة كان يسابق الزمن للتخلص منهم، صمود أكثر يعني بالضرورة فرص أقل في البقاء في سدة الحكم.

كانت المجموعة تراقب كل ما يدور في الخارج، البعض حذر بشأن المستقبل والبعض الآخر لا يلقي اهتماماً لما يحدث على الإطلاق، من كان حذراً بشأن المستقبل يرى أن المجموعة حتماً قد تتأثر برحيل النظام وأن النظام القادم قد يطيح بها من اللعبة السياسية ومن كان لا يلقى اهتماماً يرى أن المجموعة ستظل تحظى بهذا الدور في حضور هذا النظام أو غيره من الأنظمة الأخرى، كنت أشاطرُ من كان حذراً فلا أحد يعلم ماذا قد يحدث بالمستقبل وكيف سيتعامل النظام الجديد مع المجموعة وكنت أشاطرُ من كان لا يلقى بالاً فقد نجحت

المجموعة في الاستقلال بذاتها وتقوية نفسها من الداخل ولكني كنت أحمل مخاوف مختلفة، كنت أخشى أن نبتلع جرعات من ذلك الُسم المدعى الديموقراطية.

الرجل الأهم داخل غرفة الاجتماعات كان يرى أن المجموعة لن تتأثر بأي حال من الأحوال في حالة إقصاء النظام وكان يدرك أنه بمقدوره التعامل مع الأمور بحكمة في المستقبل، بقاء النظام قد يعني بعض التأثر في مستقبل السيد نزار نفسه وليس مستقبل المجموعة، كان على علم بأن بقاء الرئيس يشكل تهديداً على مكانته داخل المجموعة وكان الرئيس يعتقد أن السيد نزار سبب كل ما يجري في البلاد فبقائه قد يبقى الرجل الأهم داخل منزله يتابع كل الأخبار بعد أن كان واحداً من صانعيها طوال سنوات كثيرة.

لم أفطن لحقيقة كم من المرات جلستُ أفكر وجلست أحاول البحث عن إجابات، بات شيئاً معتاداً كثرة التفكير والأسئلة، وهذه المرة كانت الأسئلة تتعلق بالسيد نزار نفسه، هل السيد نزار على دراية بذلك السُم الذي هو بانتظارنا في حالة رحيل النظام ؟ هل سيفكر في مقعده داخل أروقة المجموعة على حساب البقية ؟ كل تلك الإجابات عند شخص واحد فقط، كل ما أملكه هو التكهن بشأنها، كل ما أملك هو التفكير في كافة الاحتمالات الممكنة، كالعادة غلبني النوم في وقت متأخر من الليل قبل أن أفيق على بعض من الأخبار الصباحية التي حملت المفاجآت في عناوينها .

صوت العصافير كان يحمل معهُ عناوين صادمة من الصحف، لم أحتج كثيراً من الوقت كي أعلم أن تلك العناوين تحمل النكهة الحكومية، " واقترب انتصار النظام " ذلك كان العنوان الأبرز في كافة الصحف المطبوعة، الصحافة كانت ترى ان انقطاع الامدادات يعني بالضرورة نجاح النظام في خطته دون أن يتكبد أية خسائر بشرية وفوق كل ذلك بالطبع فالحكومة لن ترحل، كنت على علم بأن الحكومة حاولت بث اليأس في معسكر المعتصمين وإيهامهم بأن تلك الأيام التي قضوها لم تأت أكلها البتة وأنه لا مفر من الفشل.

على خطى الصحف كانت القنوات تعيد نشر ما قيل في الصباح وتؤكد أن الاعتصام قاب قوسين أو أدنى من الانتهاء، هذه الأخبار أثارت غضب كل من في الاعتصام وحاولوا الوصول إلى بعض القنوات للتأكيد على استمرار الاعتصام والتمسك بمطالبهم، رفضت جميع القنوات استقبالهم ولو حتى عن طريق الهاتف وأحس البعض أنهم قد يعودوا إلى نقطة الصفر، فرصة رائعة للنظام لترتيب أوراقه جيداً حتى لا يقع في الفخ مرة أخرى، يبدو وأن الرئيس قد استعاد بعض من نشاطه عقب تلك الأخبار وألقى نظرة من بعيد على ذلك الكرسي، نظرة مُغلفة بالابتسامة والثقة.

لن يجد الرئيس ظروفاً أفضل من تلك للخروج إلى شعبه والحديث إليه قليلاً، كان يرى أنها الفترة المناسبة لتصحيح الأوضاع ولتحسين الصورة من جديد، بوجه ناصع البياض وبابتسامة عريضة وبجسد تخلص من كل آثار المرض هكذا خرج الرئيس على شعبه، تجاهل تماماً الاعتصام والمعتصمين وتحدث على أن النظام سيعمل جاهداً على خدمة الرعية وأن المشروعات قيد التنفيذ، رفض الحديث بشأن فكرة البقاء حتى تعود العلاقات كما كانت في السابق، نعم لم يكن يدري أن الملايين يعانون كثيراً، لطالما رأى أن العلاقة جيدة ولا تشوبها شائبة على الإطلاق.

بعيداً عن ضوضاء المعتصمين، جلس يوسف ونضال مع بعضهم البعض يتذكرون كل ما مضى، الصمت كان اللغة السائدة في البداية، على غير العادة كان يوسف هو من كسر تلك اللغة قائلاً " ها نحن قد عدنا ثانية يا نضال، كنت أظن أن اللقاء لن يتكرر " ابتسمت نضال وقالت " القدر يريد أن نكتب بأصواتنا فصلاً من فصول النجاح بعد أن رفض سابقاً كتابته بأيدينا " أحس بنبرة التفاؤل في حديثها وتابع " اقتلاع الطائرة لم يختطف منكِ التفاؤل والأمل " ضحكت ضحكة لم تضحكها منذ فترة ليست بالقصيرة وأكملت حديثها قائلة " ذلك هو الشئ الوحيد الجيد الذي لم تسلبني إياه الخطوط الجوية "

رفض يوسف الحديث عن هند ورأى أن الوقت ليس مناسباً عنها وأشار عليها بالقرب أكثر من مكان أصدقائهم المعتصمين، كانت كلمات الرئيس قد انتشرت بين أولئك الشباب، لقد أحكم الغضب قبضته عليهم جراء ذلك الحديث، تجاهله لهم قد يعني مزيداً من الساعات في هذا المكان سعياً وراء التغيير، ومن هنا جاءت الفكرة التي قد تعيد لهم التقدم من جديد، كاميرا صغيرة قد تكون كافية لإلقاء خطاب مصور ينشرُ على شبكات الإنترنت من شأنه قلب الموازين، ما هي إلا ساعة واحدة فقط وانتشر هذا الخطاب انتشار النار في الهشيم ووصلت عباراته إلى آذان النظام، " نحن مستمرون، لن نتخلى عن مطالبنا ولن نرحل دون تنفيذها مهما كلف الأمر " كانت تلك جزءاً بسيطاً من الجمل التي رددها المعتصمون في ذلك الخطاب والذي أحدث هزة كبيرة في مكتب الرئيس.

في الحقيقة لم يكن الرئيس وحده من استشاط غضباً، كنت أشاركه نفس الغضب، بقدر ما كنت أكذب أحاديث الصحف والقنوات بقدر ما كنت أملك بعضاً من الأمل في انتهاء ذلك الاعتصام للأبد، بدأت اشتم رائحة الحرية وشعرت بشئ من الضيق، كلما شعر أنفي بتلك الرائحة كلما أصبت بالدوار، لابد وأن تكون هناك خطة محكمة لفض هذا الهراء نهائياً، فكرت في الحديث إلى السيد نزار وأن أبوح له بكل ما يحمل قلبي ولكني خشيتُ غضبه، لم يغب عن ذهني محاولة الوصول إلى الرئيس وإلى حاشيته لمحاولة الوصول إلى حل يضمن بقاؤه ولكن الاتصال قد انقطع تماماً، كدت أفقد عقلي من شدة التفكير، لن أستطيع الجلوس على السرير ومشاهدة التلفاز والاستمتاع بالطقس الجميل وتناول ما لذ وطاب من الطعام كمثل البقية ونسيان تلك الأزمة التي قد تنهى على حياتهم تلك.

كل ما كنت احتاجه هو الحديث مع شخص أثق به حتى ينزاح ذلك الهم، من تلقاء نفسها جاءت وحاولت معرفة سبب ذلك القلق، وكأن زوجتي أتت من السماء في تلك اللحظة لتنقذني من براثن التفكير التي كادت تطيح بي أرضاً، " أولئك الشباب مستمرون في اعتصامهم والنظام مستمر في تعنته والمجموعة مستمرة في استقلالها، لا أحد يشعر بحجم الخطر الذي يداهمنا من كل جهة، المجموعة تخشى زاولها والنظام يخشى فنائه، وكأن حاسة الشم قد فُقدت من عندهم، ما بالهم لا يلقون اهتماماً لهؤلاء الشباب، ما بالهم وهم يلهثون وراء مقاعدهم ولا يفكرون في مصلحة البقية ولا يفكرون في الديموقراطية اللعينة ! "

حاولت التهدئة من روعي قليلاً وجلست تنطق ببعض الكلمات التي يتفوه بها من يحسبون أنفسهم سفراء للتنمية البشرية، تباً فكم أكره تلك التنمية وتلك الأحاديث التي لا تسمن ولا تغني من جوع، حاولت الاسترخاء قليلاً قبل العودة مجدداً إلى غرفة الاجتماعات لمناقشة ما يدور داخل البلد التي أوشكت أن تسلبنا عقولنا ! من

جديد كانت بجانبي قبل الذهاب إلى مقر المجموعة وحاولت بث روح التفاؤل بذلك الجسد المتشائم، في الطريق إلى الاجتماع جلست أدقق النظر إلى بعض المارة وسألت عديد الأسئلة، هل حقاً يستحق هؤلاء الحرية ؟ هل يستحق أولئك الكسالى مناخاً أفضل من ذلك ؟ هل يدركون من الأساس معنى الديموقراطية ؟

قررت تأجيل الإجابة عن تلك الأسئلة والتركيز قليلاً في الاجتماع المهم في ذلك اليوم المشمس، كنت أرى وجوهاً يعلوها التفاؤل، حتى كبير المجموعة لازال يتحلى بابتسامته، أردت وأن أمسك برأس كل واحد منهم وأحاول إيقاظها من سباتها العميق، لكن حتى الامساك بالرؤوس لن يكون كافياً للتخلص من ذلك المخدر الذي ملأ أجسادهم، قررت الصمت في نهاية الأمر ومتابعة كل ما يجري دون التعليق ولو بكلمة واحدة، كانت تلك واحدة من الاجتماعات القليلة جداً التي لا أنطق فيها بكلمة واحدة.

قبل العودة إلى المنزل كنت قد ذهبت لإلقاء النظرات على هذا الاعتصام، يبدو وكأنه يخلو من وجود قائد بعينه وهذا ما قد جعله يستمر رغم محاولات الحكومة المستميتة في القضاء عليه، ابتسامات وهتافات وجو يشبه جو العائلات القديمة، يستحيل أن يتفكك هذا الاعتصام، أيقنتُ أن النظام بحاجة إلى معجزة إلهية لفضه، مرة أخرى بدأت رائحة الحرية تلوح في الأفق وسريعاً لذت بالفرار حتى لا أختنق، لقد انسل اليأس بداخلي واعتقدت أنها بضعة ساعات فقط تفصلهم من تحقيق حلهم، وبعضة ساعات تفصل النظام عن السقوط والرحيل بطريقة يعجز العقل أن يصدقها.

في تلك الأثناء كانت الرئيس يكثف من اجتماعاته مع رجال الأمن في محاولة بائسة منه للحفاظ على نظامه من الرحيل، " لقد أمرتم الصحافة والإعلام بالتعاون مع الحكومة بأنكم قد اقتربتم من تحقيق هدفكم، وها هو ذلك الخطاب المصور يفيد بأنهم لن يذهبوا حتى تتحقق مطالبهم، فما العمل الآن ؟ " حل الصمت على أجواء المكان قبل أن ينفعل قائلاً " يبدو وكأن العصفور قد أكل ألسنتكم بما بكم لا تنطقون " وسط كل هذا الخوف خرج واحد منهم وقرر الرد عليه " هناك حل واحد سيدي الرئيس وهو استخدام القوة في فض ذلك الاعتصام " هدأ الرئيس قليلاً وجلس يمسك على رأسه ويتمتم بكلمات غير مفهومة وفي نهاية المطاف لم ينطق سوى بكلمة واحدة " نفذ "

رجال الأمن كان ينتظرون بدورهم الإذن المباشر من الرئيس حتى يباشروا عملهم في فض الاعتصام، لقد ضاقوا ذرعاً من أولئك الشباب وها هو القدر يتيح لهم فرصة من ذهب للنيل منهم، في تلك اللحظات كان قد انضم بعض من المشجعين إلى مكان الاعتصام، كيف لا وهم من حمل على عاتقه مهاجمة النظام وقت ما كان البعض يخشى حتى مجرد نقده، لحظة الحقيقة تقترب شيئاً فشيئاً وكان الرئيس متفائلاً بشأن خطة رجال الأمن تلك ورأى أنها السبيل الوحيد لضمان الاستمرار كرئيس للبلاد.

لم تكن المجموعة على علم بذلك الاجتماع، لم يفكر السيد نزار في ذلك الحل، كان يرى أن حل القوة مستعبد تماماً وقد يعجلُ برحيل الرئيس وحكومته، كان غرفة الاجتماعات جاهزة لاستقبال الأعضاء وقتما جاءت الأنباء من الخارج بحدوث اشتباكات بين بعض من رجال الأمن والمعتصمين، هُنا تأكد السيد نزار أن الرئيس يلفظُ أنفاسه الأخيرة وأن النظام قد تمكن منه المرض ولا مفر من الموت ! " كان ذلك هو الحل الأخير الذي قد يلجأ إليه، هو لا يعلم أن القوة لن تجدي نفعاً وأنها قد تطيح به خارج مكتبه " بنبرة حزينة خرجت كلمات السيد نزار، نبرة تؤكد تلك المخاوف عندما أحاطت بي رائحة الحرية .

كانت التعليمات للإعلام بالتغاضي تماماً عن تلك الاشتباكات، رفض الرئيس فكرة وصف نظامه بالنظام الذي يستخدم القمع لمحاربة معارضيه، وكأنه يتعامل مع القمع للمرة الأولى ! لكنه تناسى أن تلك اللحظات هي اللحظات الوحيدة التي لا يجوز له استخدام القمع لتأكيد سلطته على البلاد، وصف الإعلام رجال الأمن بأنهم ملتزمون بأقصى درجات ضبط النفس وأن هؤلاء الشباب من نسيج الشعب وقليل من الكلمات الرنانة لتحسين تلك الصورة الوحشية والقمعية.

كان الرئيس في مكتبه يتابع الأحداث لحظة بلحظة، يدعو الله بأن ينفض الاعتصام ويبقى رئيساً حتى إشعار آخر، كان يعتقد أن تلك الهجمات من شأنها بث الرعب في قلوب هؤلاء الشباب، لطالما اعتقد أن الخوف هو سلاحه الأول في مواجهة المعارضين وكل من تسول له نفسه بأن يهاجمه، يبدو أن هذا السلاح قد فقد جزءاً كبيراً من بريقه هذا ويبدو أن الرصاص الذي بداخله أوشك على النفاذ.

صوت الرصاص لم يهز المعتصمين ولو قيد أنملة، جريان الدماء على الأرض لم يقذف الرعب بداخلهم قط بل زاد من إصرارهم على مطالبهم تلك التي خرجوا من بيوتهم خصيصاً لتحقيقها، كان رجال الأمن ومن فوقهم الحكومة والرئيس يعتقدون أن تلك الهجمات كافية لجعل الشباب يتراجعون عن أفكارهم، كلما مرت الساعات كلما ارتفعت أصوات الهتافات وكأن ذلك الهجوم كان بمثابة المحفز لهم، اهتز المكان مطالبا هذه المرة برحيل النظام بأكمله وليس الحكومة فقط، لقد خسروا كثيراً في الماضي والآن لا شئ يخسرونه، إما البقاء تحت قبضة هذا النظام القمعي وإما الحرية .

للمرة الثانية أحس رجال الأمن بأن خطتهم أوشكت على الفشل، لازال الرئيس يقبع في مكتبه منتظراً تلك الأخبار التي تفيد برحيل المعتصمين، أيدُ ترجف ووجه يتصبب عرقاً ورأساً قاب قوسين أو أدنى من الانفجار وقلب ينبض بسرعة فائقة وعين ترمق ذلك الكرسي الذي جلس عليه سنوات وسنوات وخلف كل هذا فم يتمتمُ بكلمات عشوائية غير مفهومة ، حاول المقربون نجدة الرئيس والبحث عن حل يحفظ للرئيس مكانته ولو مؤقتاً وطالبوه بإعلان إقصاء الحكومة في خطاب رسمي، اندهش من هذا الطلب لكن لا حل سوى التضحية برجالاته من أجل البقاء قليلاً في سدة الحكم، ذلك الوجه الذي خرج آخر مرة وهو ناصع البياض خرج شاحباً باهتاً وتلك الأقدام التي كانت تتسابق للوقوف على المنصة بدت ثقيلة لا تقدر على الحراك.

انتهى الخطاب وأعلن الرئيس إقصاء الحكومة وتشكيل حكومة جديدة تعيد الأمور إلى نصابها، بقدر ما كان الأمر صعباً عليه بقدر ما كان يخشى أكثر على منصبه، ذهب مسرعاً إلى غرفته ليجلس من وراء شاشته تلك متمنياً رحيلهم فقط لبى المطلب الأهم لهم، المقربون منه أخبروه بأن الاعتصام لازال موجوداً ولن يرحلوا حتى يسقط النظام بأكمله، اشتد غضبه ورأى أن القوة وحدها هي من ستدفعهم للفرار ولا مانع من استخدام القوة مرة ثانية حتى ينهي على هؤلاء الثرثارين للأبد.

فوراً خرجت التعليمات من مكتبه بشن الهجمات مرة أخرى على أماكن المعتصمين، هذه المرة رائحة الدماء ملئت المكان وتلك الطاقة المتفجرة اختفت في غمضة عين، اعتقد رجال الأمن أن تلك الأيادي قاربت على رفع الراية البيضاء، لكن صمتهم ما هو إلا إعادة شحن لتلك الطاقات وبعدها عادت الهتافات تهزُ أرجاء المكان، تسلل الإحباط إلى المقربين وإلى من نفذوا تلك الهجمات وأيقنوا هم الآخرين أنها بضعة ساعات ويرحل ذلك الداهية القابع في مكتبه دون عودة.

جلستُ في غرفتي وحيداً أنتظر سقوط الرئيس، جلستُ أتخيل ريح الحرية الذي قد يهبُ علينا ويطيح برؤوسنا جميعاً، جلست أتخيل تلك الأفواه التي ظلت مكتومة طوال سنوات وهي لا تتوقف عن الحديث بشأن مستقبلها، تلك الرائحة التي أصابتني بالضيق يومها قد تودي بحياتي، كنت قد حاولت الاتصال ببعض حاشية الرئيس لأعرف منهم ماهي الخطوات القادمة، علمتُ أنها دقائق ويخرج إلى الجموع في خطاب قد يعلن فيه أخيراً رحيله وانتهاء فترته الرئاسية.

بدأ الخطابُ وجلستُ منتبهاً أتابعُ كلماته الأخيرة كرئيس للبلاد، يبدو عليه الحزن والانكسار، نعم ذلك العجوز الذي كان يهز قلوب الرجال جاءت طائفة من الشباب وهزت عرشه وقلبه، حديثه كان طويلاً يحاولُ سرد الكلمات والعبارات، يعلمُ أنها ساعته الأخيرة فلا مانع من الإطالة ولو قليلاً، حاول إخفاء انكساره هذا بالحديث عن الإنجازات والمشروعات ولكن لا جدوى فلو مر طفلُ من أمام التلفاز محض صدفة ورأى حديثه هذا فسيعلم أن ذلك الرجل سينفجر بالدموع الآن من شدة الحزن.

أخيراً انتهى أمره ورحل وترك الأمر للبرلمان يقرر من هي الحكومة التي ستقود البلاد حتى وقت الانتخابات المقبلة، ما إن أنهى حديثه من هنا حتى كنت أغلق التلفاز من هنا وأحاول أن أفيق من ذلك الكابوس الذي حل علينا جميعاً، سقوطه يعني مزيداً من الأقلام تكتبُ ليل نهار تحت شعار الديموقراطية، سقوطه يعني مزيداً من الملفات والقضايا، مزيداً من الهتافات ومزيداً من الأفواه ومزيداً من الشجاعة، حاولت النظر إلى الجانب الإيجابي ولكنه وجدته ضئيلاً لا يرى بالعين المجردة.

بدأ الرئيس يعد عدته للرحيل نهائياً من مكتبه ومن قصره الفخم، بدأت حاشيته هي الأخرى تحذو حذوه كي تستعد للرحيل، لا أحد يتكلم لا أحد ينطق، وكأنهم يجلسون في سرادق للعزاء مرتدين الزي الأسود الكامل، وفي الخارج أفراحُ هزت العاصمة، رحل ذلك الكابوس في نظرهم الذي كان مطبقاً على قلوبهم وصدورهم، رحل من كانت يده تطال الصغير قبل الكبير، لم يستطع أولئك الشباب منع دموعهم وانفجروا بالبكاء من شدة الفرحة، بين الأفراح والأحزان وبين الخوف وبين القلق أسدل الستار على واحد من الفصول المهمة من فصول البلاد ومن فصول مجموعة الغربان.

اليوم التالي ولازالت الاحتفالات مستمرة بإزاحة ذلك الكابوس من على مقعده بعد سنوات الظلام، النظرات متبادلة داخل أروقة الاعتصام غير مصدقين أنهم نجحوا أخيراً في تلك المهمة الصعبة، أدرك يوسف أن ما قام به مسبقاً لم يذهب سدى وأن اللحظة التي كان يعتقد أنها لن تأتي إلا في الأحلام صارت واقعاً ملموساً، أما تلك الفتاة الجميلة التي تكبدت عناء السفر الآن فقط بمقدورها التباهي أمام والدها بما حدث على أرض ذلك البلد الذي ظن مسبقاً أنها لن تفيق من سباتها هذا.

لم أكن مصدقاً ما حدث بعد، كنت أتمنى أن يكون كابوساً قارب على الانتهاء، ابتعدت عن شاشة التلفاز وحاولت تجنب قراءة عناوين الصحف، زوجتي حاولت الحديث معي مراراً وتكراراً ولكن دون فائدة، لقد أحكم الصمت قبضته تماماً، كنت أحاول جاهداً أن أغط في النوم ثانية، كنت أحاول الهروب من تلك الحقيقة

ولكن دون جدوى، حتى تلك الأسئلة التي كانت تصارعني ليل نهار تركتني وحيداً أصارع ذلك الكابوس المفزع، تركتني لقمة سائغة أمام فم يملك نهماً جنونياً، يملك نهماً لطعام الحرية.

على الجانب الآخر تماماً كان السيد نزار مفعماً بالنشاط والحيوية، كانت الابتسامة لا تفارقه، تنفس الصعداء أخيراً بعد نجاح ذلك الاعتصام، في الحقيقة لا يملك أية ذرة تعاطف من الأساس مع أولئك الشباب ولا كان مقتنعاً من الأساس بفكرة الديموقراطية والحرية ولكنهم استطاعوا الإطاحة برأس النظام وهذا ما قد يجعله ينظر لهم بقدر ولو بسيط من الاحترام، لكنهُ لم يرد أن ينشغل بالاحتفالات كثيراً وبدأ يعيد ترتيب أوراقه من جديد حتى يستطع التقرب أكثر فأكثر من النظام الجديد.

انتصف اليوم ولازال الصخبُ مستمراً داخل الاعتصام وانضم الكثير للاحتفالات، انتصف اليوم ولازلتُ منتظراً خروج الحكومة لتتلوا علينا بياناً يشرح أهمية المشروعات الجديدة، في ذلك اليوم اعتذرت زوجتي بالنيابة عني عن الذهاب إلى اجتماع المجموعة معللة ذلك بأن زوجها المسكين أصابته الحمى وجعلته طريح الفراش غير قادر على الحراك من مكانه، لقد أصابت القول رغم صحتي، فقد أطاحت بي حمى الهتافات وجعلتني كالوردة التي قاربت على السقوط أرضاً بعد أن كانت تسرُ أعين الناظرين.

تدريجياً بدأتُ أفيقُ من الصدمة رغم شدتها، رغم ذلك لم يكن الوقت مناسباً بعد للانضمام إلى طاولة الاجتماعاتِ، من جديد تحججت زوجتي بعلتي وأني لا استطيعُ الالتحاق بهم، في تلك الأثناء حاولتُ الابتعاد عن عناوين الصحافة ونشرات الأخبار والبرامج التليفزيونية، قررتُ الاستمتاع ببعضٍ من الهواء النقي في الخارج حتى يعود الجسد للحياة من جديد، لكن الخروج كان الفكرة الأشد سوءاً في الحقيقةِ، لازال صدى تلك الهتافات في الأزقة والشوارعِ، بعد أن كانت فاقدة للنطقِ بين ليلة وضحاها صارت العاصمة كثيرة الحديثِ.

في مبنى المجموعة تُعقد الاجتماعات يومياً للتخطيط لمرحلة ما بعد الرئيسِ السابقِ، كيف ستتعامل المجموعة مع ملف المرشحين ؟ وهل ستزجُ باسم موالي لها كي تضمن السيطرة ؟ لم أملك أية معلوماتٍ واضحة بهذا الصدد، لم أكن مكترثاً من الأساس بتلك القضية، شعرتُ وكأن ذلك الكابوس قد يطول وأن المسألة أكبر بكثيرٍ من مرشحٍ تتفقُ سياستهُ مع سياسة المجموعةِ، كنتُ أتمنى وأن تخبرني زوجتي بأن كل هذا الهراء ما هو إلا كابوس وأن سيادة الرئيسِ سيخرجُ غداً لإلقاء كلمتهِ.

وأخيراً نفضتُ الغبار عن ذلك الجسدِ الكسولِ، صباحاً ذهبتُ إلى منزل السيدِ نزارٍ في اجتماعٍ خاصٍ ومغلقٍ للحديثِ عن سبب الانقطاعِ وأشياء أخرى، " مرحباً بالعضو الذي أصابتهُ حمى الاكتئاب " بكثيرٍ من السخرية بدأ حديثهُ معي، كان يعلمُ أن تلك اللهجة وحدها هي من قد تعيدُ خيرت إلى سابقِ عهدهِ، لم أبُح بأية كلمة وفضلتُ الابتسام فقط، ثُمَ تابع حديثه قائلاً " أعلم أن حزنكَ هذا ليس له أدنى علاقة بالرئيسِ وأن مخاوفكَ تلك بشأن المجموعة وبشأن الحرية، تحدث يا فتى أعلم أنكَ على وشك الانفجار"

كلماتهِ تلك كانت بمثابة الإشارة إلى الحواسِ خاصتي كي أتحدث، شعرتُ أنهُ يشاركني نفس الأفكار وها هو لساني لم يتوقف قط عن البوح بكل تلك الأسرار التي عذبتني طيلة الفترة الماضية، " الحرية سيدي الحرية هي من تُؤرقُني وتسلبُ من أعيني النوم " صمت قليلاً وبادر بسؤالي " هل تخشى الحرية ؟ كيف ذهبَ عقلُكَ بعيداً إلى هذا الحد ؟ أنت تعتقد أن الحرية قد تخفي المجموعة للأبد ؟ حقاً يبدو وكأنني أقفُ أمام فتى في المرحلة الابتدائية وأحاول أن أشرح لهُ بان حاصل ضرب اثنين في اثنين يساوى أربعة يا للعار يا للعار !!

تلك العبارات قد أصابتني بالصدمةِ ولم أحرك ساكناً، للمرة الأولى يتحدثُ السيد نزار معي بتلك اللهجة الحادة، كان من الصعب عليه رؤية أحد أكبر أعضائه في المجموعة بهذا الضعف والانكسار، " يا ولدي تلك الحرية التي ترتعدُ منها خوفاً لن تحط الرحال هُنا، نحنُ فقط من نسمحُ بمرورها أحياناً وبترحيلها أحياناً أخرى، الحرية تفرضُ نفسها في تلك البلاد التي تجلسُ أنت وزوجتكَ ليلاً أمام شاشاتها وتشاهدا معاً فيلماً رومانسياً مليئاً بالقبلات أيها الفتى البائس ! " تلك الكلمات كانت كافية لبث الطمأنينة بداخلي، لا يهم من يكن المرشح الأهم أني قد علمتُ مصير الحرية.

في تلك الأثناء كان البرلمانُ يعقدُ جلساتهِ حتى يختار أعضاء الحكومة الجديدة التي ستقودُ زمام الأمور حتى موعد الانتخابات، كانوا يحاولون انتقاء الأعضاء بعناية تامة فلاتزالُ صدى الهتافات تهزُ مكانهم هذا، استقرَ أخيراً على جميع الوزراء الجديد وكلها لحظات قليلة ويعلم الشعبُ من هم المخولون الجدد، المثير للدهشة أن السيد نزار لم يتدخل في الاختيارات قط وأبى التعليق نهائياً وترك المسألة برمتها إلى أعضاء البرلمانِ، لا يريدُ إضاعة وقتهِ في تلك القضايا الفرعية.

كانت تلك الفترة هي الأكثر نشاطاً بالنسبة للصحافة المعارضة وللأحزاب التي لم يكن لها دور أثناء فترة النظام السابقِ، الكل يرى أنها فرصة ذهبية لتقديم نفسهِ إلى الشعب باسم التغيير والديموقراطية، كان الأمرُ أشبه بسباقاتِ السياراتِ، لا أحد يود أن يرى سيارتهُ في الخلفِ أو حتى في الوصافةِ ! كلما اقترب موعدُ الانتخابات كلما باتت السيارات أكثر جاهزية لخوض غمار هذا السباق الشاق، حزب يوسف بدوره لم يرد تفويت تلك الفرصة وهذه المرة بمساحة كبيرة من حرية التعبير عكس ما حدث أثناء حكم الرئيسِ السابق.

من بعيدٍ كان يراقبُ بابتسامتهِ المخيفة تلك، السيد نزار كان المنظم الأول والراعي الأكبر لهذا الحدث الضخم الذي أوشك على الانطلاق، أكثرُ ما كان يخشاهُ هو فكرة الاتحادِ وكان يرى أن الاتحاد قد يعني بالضرورة انتهاء مصير تلك المجموعة للأبد دون رجعة ! ولكن حينما رأى الغرف المغُلقة والاختلافات وهي تطفو على السطحِ أيقنَ أنه أمام مجموعة من المهرجين لا يعلمون كيف تدار الأمور وبالطبع لن يسمح كلية بأن ينتهى الأمر في إعطاء زمام الأمور إلى تلك الحفنةِ من المهرجين.

تلك المرحلة كانت هي المرحلة الأهم في نظر السيد نزار، كان يريدُ الإيقاع بأولئك الشباب وبتلك الأحزاب واحداً تلو الآخر، سريعاً عقد اجتماعاتهِ مع الحلقة الأهم في ذلك النزاع وهي الإعلام، يؤمنُ بأن الإعلام بمقدوره خلق الخلافات بينهم، وبمجرد أن تبدأ الخلافات حتى تصير جبهتهم جبة هشة ضعيفة لا تقدرُ حتى على مواجهة الهجوم وصده، تلك الجبهة الهشة ستُخرجُ منتجاً ضعيفاً لن يقدر على الفوز بالنهاية ولو تمكن من الفوز فلن يضمن البقاء طويلاً في صورة الحاكم، كان أعضاء المجموعة على علمٍ تامٍ ومسبق بتلك التحركاتِ التي يقودها رئيسُ مجموعتهم.

في الجهة المقابلة عاد يوسف من جديد ذلك الشاب الطموح الذي يغلبُ عليه طابع الحماس والشغفِ، كانت لديه عديد الأفكار التي قد تنقلُ البلاد من مرحلة الظلامِ الدامسِ إلى مرحلة الضوءِ الساطعِ، حماسهُ هذا جعلهُ يشارك تلك الأفكار مع المقربين منهُ بقدرٍ من السعادةِ، هند كان الشخص الأكثر سعادة على وجه الأرضِ في تلك الأيام، ترى بأم عينها ذلك العبوس يضحك من جديد، ترى أمامها طفلاً مقبلاً على الحياةِ ويريد الاعداد للمستقبل القريب في أسرعِ وقتٍ ممكن.

نضال بدورها قد استقرت على البقاء حتى إشعارٍ آخر وأبلغت والدها نيتها بذلك، في الحقيقة رغم ابتعادها عنهُ بالآلاف الكيلو مترات إلا أنه كان سعيداً لسعادتها التي فشل في منحها إياها، هي الأخرى استعادت طاقتها المفقودة وشغفها الذي سُلبَ منها عمداً، الكل في تلك المرحلة استعاد عافيته وكانت الأفكار لا تغيبُ عن عقولهم، كل شخص يريدُ أن يُشكل البلاد على طريقتهِ هو وأن يضيف لها ما يضيف ويخفى منها ما يخفي وهذا بمثابة الخطأ الفادح والجسيم الذي وقعت فيه عقولهم !

القنوات التليفزيونية والصحف كانت تحاولُ عقد اللقاءات يومياً للحديث معهم بشأن المستقبل وعن الأفكار المقترحة لتحسين مستقبل البلاد، فرصة على طبق من ذهب للسيد نزار كي تظهر أفكار كل فئة للفئة الأخرى ويبدأ من هنا نقطة الخلاف المتوقعة والتي قد تقلبُ الأمور رأساً على عقب في نهاية المطافِ، السيد نزار كان يريدُ أن يصور لهم بأن الطرف الفائز سيطيحُ بالطرف الآخر المختلف معهُ في الأفكار والمعتقدات وأنه لا يوجد مكان للنقاشاتِ الحضارية المثمرةِ.

جلستُ أفكرُ قليلاً في حديث الرجل الأول للمجموعة عن الحرية، السيد نزار يراها وكأنها فتاة ساقطة ثملة تلهثُ في الشوارع بحثاً عن شهوتها، لابد وأن يطهر البلاد من تلك الفتاة الثملة حتى لا تفسد المجتمع وتقلبهُ تماماً، أولئك الشباب كانت الحرية بالنسبة لهم تلك الفتاة الجميلة التي تخرجُ في الشوارع بحثاً عن حقوقها وتنادي بها بأعلى صوتٍ ممكن، وما بين الساقطة والثائرة يندلعُ الصراع من جديد، حتى وإن كنتُ أجدها ثائرة فحتماً في بلادنا وحرصاً على مُستقبلِنا فستكونُ ساقطة وخارجة.

الحسنة الوحيدة ربما في رحيل النظام هو توقف بعض المشجعين ولو قليلاً عن الهتاف والصراخ ! كُنا نعلمُ أن الحكومة الجديدة ستكونُ موضع خلافٍ كبير ولكن بالتأكيد أفضل من بقاء ذلك النظام، الحكومة من جهتِها كانت تعلمُ أنها قادمة لهدف معين وبعد ذلك ستعودُ الأمور كما كانت، لا يريدون مزيداً من الصدام مع الشعب

كُلِ همِهم انقضاء تلك المدة بأقصى سرعة، في المقابلِ كان المرشحون يعدون العدة لذلك العُرس الانتخابي، كلماتٍ تُجهز وأوراقٌ تُفند وحناجر تهتف في سبيل الذودِ بكرسي الرئاسة.

خلف الستار يقبعُ السيد نزار متابعاً ما يدورُ بالخارج وما يُعد داخل القاعات، خطتهُ كانت تسيرُ بنحو جيد، بعض الخلافات بدأت تطفو على السطح وأحس البعضُ أنهم قد يتم إقصائهم فور انتهاء الانتخابات، حتى اللقاءات بدأت تطغو عليها النزاعات، اللُعبة أصبحت مكشوفة للجميع وهذا ما أرادهُ تماماً، وقعت الأحزاب ووقع المتنافسون في ذلك الفخِ وأصبحت القلوب مليئة بحقد دفين تجاه الخصومِ، هذا ما قد يجعلُ الشعب يشعرُ ببعضٍ الحنين إلى النظامِ السابقِ.

كان ينتظرُ الإشارة من الشعبِ فذلك الشعورِ في حد ذاتهِ بمثابة الإذن لعودة نظامٍ كما السابق ولكن بشكل مغاير متماسك، يعلمُ أن حُلمه هذا لن يحدث في التو واللحظةِ ولكنهُ سيعملُ على تحقيقهِ مهما كلفهُ الأمر من انتظار، كان يريدُ أن يكون الرئيس قريباً من المجموعة ليس بالضرورة أن يكون واحداً منها بل على الأقل أن تكون وجهات النظر بينهم متقاربة لتمكنهُ من البقاء، تلك الأفكار ومثيلاتِها مجرد حبر على ورق ومجرد حلم لم يدخل حيز التنفيذ بعد.

لم تحمل تلك الفترة أية أحداث مثيرة للجدل تستحقُ الوقوف عندها، الانتخابات أخذت قلوب وعقول البعض، عادت ثنائية يوسف ونضال لتعمل سوياً برفقة الحزب من أجل دعم مرشحِهم، حُبل الأفكار هناك في مقرِ الحزبِ لا ينقطع البتة، رغم مشقة العملِ ليلاً ونهاراً فالابتسامة لا تكاد تفارقُ وجوهَهُم، أخيراً وبعد عناء بدأت تلك الفتاة العنيدة تشعرُ بالهواءِ يدخلُ قلبها مضيفاً لها إحساس السعادة والانتماء لتلك البلد، مع بداية يومٍ جديدٍ تكبرُ أحلام تلك الفتاة في مستقبلٍ أفضل وأجمل مما سبق.

على غرار نضال فهناك كثيرُ من الشبابِ يمتلكون أحلاماً يسعون لتحقيقها، الأغلبية منهم كانت مؤمنة إيماناً شديداً بأن تلك الفترة هي الأنسب لبدأ العمل على تحويل الحلم إلى حقيقة ملموسة، رجال الأمن صاروا هادئين مقارنة بما كان يجري في السابق من بطشٍ وظلم بين للجميع، كانوا يريدون تقديم أنفسهم بصورة جيدة أمام النظامِ الجديدِ، أقلام الصحافةِ بدورها لم تتوقف عن الحديثِ، تارة تدعمُ مرشحاً على حساب الآخر وتارة تنتقدُ حزباً لتبنيه وجهة نظر بعينها، أدركت الأقلام أن تلك العيون المحدقةِ لن تعود مجدداً فراحت تتحدثُ كما تشاء ومتى أرادت في مشهدٍ دخيلٍ على تلك البلاد.

لم يكن واضحاً بالمرة موقف الشعبِ من هؤلاءِ المرشحين وأحزابِهم، مزيداً من الوقتِ قد يكون كافياً لتكوينِ صورة كاملة عنهم وعن ما قد يحدث في حالة فوزِ أحدهم بالرئاسةِ، البرامج المُتلفزة بدورها كانت منبراً لهم، بعضهم نجح في استغلالِه لصالحهِ وبعضهم فشل، كانوا يؤمنون بأن تلك البرامج هي السبيل الأول لدخول قلوب أولئك المواطنين، الخطأ كان ممنوعاً بالنسبة لهم فقد يُكلفُهم الكثير والكثير، من المهم الدخول إلى مبنى البرامج وأنت مُحملاً بكم من الحديث المُنمقِ ليمكنُكَ من كسب الرهانِ.

بدت الصورة تضحُ يوماً تلو الآخر وبدأت فئات كبيرة من الشعب تحديد مُرشحِهم القادم، كلما اقترب الموعد كلما زادت ساعات العملِ، لا وقت للراحةِ ولا وقت للنومِ، اللافتات ظهرت هُنا وهُناك، لا صوت يعلو فوق صوتِ الانتخاباتِ، رغم أن المدة المتبقية على الانتخابات ليست بالقصيرة إلا أن الأحزاب أحست بضيقِ الوقتِ بل وشعر بعضُهم بأنهم قد فشلوا فشلاً ذريعاً في ذلك الصراعِ، لا مكان للجبناء ولا من يُساورُهم الشكُ في تلك المعركةِ الطاحنةِ.

لكن فترة الهدوء تلك أبت الاستمرار طويلاً، حدثٌ اهتزت له جموع البلادِ، قواتُ الأمنِ التي أيقن البعضُ أنها صارت مسالمة شنت هجوماً ضارياً على فئة كبيرة من المشجعين الذين لم تعجبُهم قرارات الحكومة الجديدة، ذلك الصمت الذي كان يخيمُ عليهم لم يكن سوى الهدوء الذي يسبقُ العاصفة، عاصفة قوية من الهتافاتِ والهجومِ، رجالُ الأمنِ نالوا حظهم من تلك الغارات ولذلك فقد نفذ صبرهم وهاجموا دون الرجوعِ إلى المسئولين والتشاورِ معهم بشأن تلك الواقعة.

جُنَ جنون الحكومةِ وبات المكتبُ الخاصِ بهم على وشكِ الانفجارِ من شدةِ الغضبِ، لم ترد الدخول في صراعاتٍ مع تلك الفئة الشبابية وكانت تودُ الوصول إلى الانتخاباتِ دون أية مشكلة تذكر، لم تحرك تلك الهتافات أية مشاعر للغضبِ بداخلِهم واعتبروها طبيعية معتادة، ذلك الهجوم قد يعني بالضرورة أنهم من أعطوا الإذن لرجالِ الأمنِ بمهاجمتِهم وتنفردُ الصحفُ الصادرةِ صباحاً بعناوين ساخنة من شأنها إثارة الجدل أكثر وأكثر، سريعاً تم التجهيز لعقدِ مؤتمر لشرحِ ملابساتِ ما حدث في المدرجاتِ والاعتذارِ لأولئك الشباب المتضررين منهم والعفو عن من طالتهُ أيادي رجال الأمنِ.

بدأ المؤتمرُ في وقتٍ مبكرٍ من الليلِ، وتحدثَ المتحدثُ الرسمي للحكومةِ عن تداعيات ذلك الموقفِ وانتقد المسئولين عن الهجومِ بشدةِ وأن هؤلاء الشبابِ في النهاية هم أبناء ذلك الوطن ولغة الحوارِ هذه لن تجدي نفعاً، المطبخ الحكومي كان على علمٍ بأن الهجوم على رجالِ الأمنِ قد يكونُ السبيل الوحيد للخروجِ بهذهِ الأزمة إلى برِ الأمانِ، الهدفُ يكمنُ في إنهاء ذلك الملفِ سريعاً قبل أن يكبرُ وحينها قد يأخذُ وقتاً أطول كي يتم غلقهُ للأبدِ، لذلك تم اتخاذ القرارِ بخروجِهم من تحتِ قبضةِ الأمنِ.

لم تعلم الحكومة أن هذا المؤتمر ومكبرات الصوتِ تلك والكلماتِ الجميلةِ لن تجدي نفعاً معهم، بمجردِ خروجِهم وفي وقت إحدى المباريات تكررَ الهجومُ ثانية، هذهِ المرة لم يتدخل رجالُ الأمنِ قط واكتفوا بالمشاهدةِ عن قرب، على ما يبدو أن بعضاً من الشبابِ لم يكن مقتنعاً بفكرةِ موتِ النظامِ إلى الأبدِ وأنهُ لازالَ موجوداً بينهم، يقفُ خلفهُم ممسكاً بعصاهُ منتظراً اللحظة المناسبة للفتكِ بهم، كانوا معتقدين أن تلك الحكومة هي امتداد لذلك النظامِ وأن الأوضاع لم تتغير كثيراً رغم استنشاقِهم بعضاً من هواءِ الحريةِ.

تلك الأحداث جاءت على طبقٍ من ذهبٍ للمرشحين، فرصة قد لا تتكرر ثانية ويجبُ استغلالها الاستغلال الأمثل، كسب ودِ الشبابِ كان الغاية المرجوة بالنسبةِ لهم، خرجت الأحزاب تنتقد ما حدث في المدرجاتِ وخرج المرشحون يدعمونهم بطريقتِهم، على غرارِ المرشحين خرج رجالُ الإعلامِ يقفون جنباً إلى جنب مع

هؤلاء الشبابِ في مشهدٍ يصفُ حالة الانكسارِ التي تعرض لها أولئك المغرورين، البرامج التلفزيونية التي كانت بالأمسِ القريبِ تريدُ التخلص منهم الآن تقفُ خلفهُم وتدعمهم في قضيتهم.

الصحافةُ بدورها وقفت تدعمُ تلك القضية وارادت هي الأخرى عن طريقِ الأقلامِ المؤيدة للنظام سابقاً تحسين صورتها التي شُوهت في العهدِ القديمِ، الكل أدرك مؤخراً مدى خطورةِ تلك الهتافاتِ، بالطبعِ لن تريدَ أن ينتهي بك المطاف الجلوس في منزلِكَ وأنت فاقدٌ لوظيفتِكَ، لا مانع من كلماتٍ تظهرُ التعاطف والتأييد حتى ولو كان ظاهرياً، الدرس كان قاسياً للغاية وتعلمَ منهُ رجالات الإعلام والصحافةِ بأن دوام الحالِ من المحالِ وأن الاعتماد على النسيانِ اعتماد خاطئ بالمرةِ.

لن تجد شخصاً واحداً لا يتكلمُ فيما يخصُ السياسة، السياسة التي كانت ترتعدُ لها الأجساد صارت مرتعاً للآراء والأحاديث، الشباب أعادوا الروح إلى ذلك الجسدِ الهامدِ وأصبحَ قادراً على مزاولة العملِ بعد أن كان طريح الفراشِ بانتظار سكراتِ الموتِ، الشوارع التي كانت صامتة ولا تسمعُ لها صوتاً بات صدى صوتها يهز العالم بأجمعهِ، وكأن ساحراً مر على تلك البلادِ بعصاه مغيراً كل التفاصيلِ، وكان رساماً قرر أن يغير بريشتهِ تلك اللوحة القاتمة الكئيبة ليجعلها لوحة مُبهجة جميلة.

كنتُ أمرُ يومياً لأراقب عن قربٍ تلك التطورات الكبيرة التي شهدتها البلاد، كُلٌ يبدي رأيهُ في هذا المرشحِ وكُلٌ ينتقدُ ذلك الحزبِ، يا للعجب ! من كانوا يخشون التفوه بكلمةٍ واحدة ضد النظامِ حتى لو كان مخطئاً أشد الخطأ باتوا يتحدثون في السياسة دون أية قيود ! تلك معضلةٌ كبرى، مجرد حديثِهم عن السياسةِ دون أي رقيبٍ هو كارثة في حدِ ذاتهِ، لا نعلمُ متى قد تنتهي تلك الكارثة ولا نعلمُ هل يملكُ السيد نزار حلاً جذرياً لها أم لا، كل ما نعلمهُ أنها قد تستمرُ على الأقل في تلك الفترة الحالية.

رغم تلكَ الخُطةِ التي حيكت بواسطةِ السيدِ نزار بإيقاعِ تلك الأحزاب وأولئكَ الشبابِ في بعضِهم البعض إلا أني لزلتُ قلقاً، كُلِ خطة قد تفشلُ وقد تنجح لكن عنده لا يوجد مسمى للفشلِ، يعلمُ تمام العلمِ بأن الفشلِ قد يودي به إلى المقصلةِ برفقةِ أعضاء مجموعتهِ، الصبر هو المفتاح الأهم في تلك المرحلةِ ويجبُ أن تسوى الأمور كلها على نارٍ هادئة، لكن ذلك الشخص القلق بداخلي لازال يُحدثُني قائلاً بأن التفاصيل لن تظل تخدمُنا طيلة الوقت، لن تظل تُمهد لنا الطريق من جديد.

كل تلك المخاوفِ حدثتُ بها زوجتي على غير العادة، لطالما كنتُ أحتفظُ بأسرار المجموعة ولا أتحدثُ عنها كثيراً داخل المنزلِ، لكن هذهِ المرةِ شعرتُ بوجوبِ خروجِ الكلماتِ من هذا الفمِ الصغيرِ، لم تجب في البداية عني لكن عندما تحدثت كانت إجابتها كافية وافية " لن تستمر الحريةُ في بلادِنا تلك " قالتها بشيءٍ من الحُزنِ والألمِ، لربما كانت تعلمُ أن تلك الخلافاتِ على الساحةِ بين الأحزابِ وبين المرشحين قد تعجلُ بتلك الصغيرة " الحرية " التي لم يتجاوز عُمرها الشهرين بعد.

يوماً بعد يوم يزدادُ الاعتقادُ بأن الفائزَ بالنهايةِ سيقصي من كان نداً لهُ في تلك المعركةِ، بدأ الشكُ يتسللُ لهم خفية ويبثُ الرعبَ بداخلِهم، أصبحت معركة حياة أو موت، يبدو أن تلك الحناجر التي ظلت تنادي وتنادي ونال منها التعبُ ما نال فشلت في خلقِ مناخٍ مناسبٍ، إذاً فما الفائدة من رحيلِ النظام ؟ لم يعد أحدٌ يثقُ في منافسيهِ وباتت القضية شخصية أكثر منها قضية بلاد كانت تخطو خطواتها الأولى نحو الديموقراطية، يبدو أنهم تناسوا ما خرجوا من أجلهِ وتناسوا ذلك الألم الذي أهلكَ أجسادهم ونفوسهم.

تلك الخلافات كانت تجعلُني متفائلاً ولو حتى بنسبةٍ قليلة، كنتُ أتابعُها كالطفلِ الصغيرِ الذي ينتظرُ بطلهُ الخارق كي يظهرَ وينقذ بلدتهُ من الأشرارِ، أجلسُ أمام التلفازِ بالساعاتِ لأتابعَ هؤلاءِ البائسين وهم يضيعون من أيديهم فرصة ذهبية قد لا تتكررُ مرة أخرى خصوصاً في تلك البلادِ خاصتنا، لم أتخيل أنهم بهذا القدرِ من السذاجةِ والغباءِ معاً، هم من قد يُعطون المجموعة فرصة للحياةِ من جديد، بعدَ الساعاتِ التي قضيتُها قابعاً أمام التلفازِ صرتُ متأكداً بأن تلك الطفلة الصغيرة ستموتُ قريباً.

حزبُ يوسف هو من يتصدر المشهد حالياً وفرصته كانت كبيرة في انتزاع الحكم في النهاية، إدارة الحزب كانت ذكية ولم ترد الدخول في مهاترة أمام الملايين القابعين خلف شاشات التلفاز، كانت حديثهم شافياً كافياً رغم قلته، كانوا مقتنعين بأن سياسة الصوت العالي لن تجدي نفعاً بعد اليوم وقد تجلبُ خسائر لا حصر لها وأن فوائد الكلام القليل أفضل من الثرثرة يومياً في منابرِ الإعلامِ، سياستُهم تلك نجحت بشكلٍ كبير في خطف قلوبِ السواد الأعظم من الشعبِ وهذا هو الشئ الأكثر أهمية في الوقتِ الراهنِ.

" أملكُ شعوراً كبيراً بأننا وضعنا قدم داخل مكتبِ الرئاسةِ " كانت نضالُ تبوح بتلك الكلماتِ وهي مبتسمة بطريقة لم تعهدها من قبل والتفاؤل أصبح مسيطراً بالكاملِ على حديثِها، ابتسم يوسف قبل أن يرد " يجب أن نكون حذرين مهما زادت فرصتُنا في الفوز " ، بداخلِه كان يعلمُ أن الفوزَ قادمٌ لا محالة وأنها فقط بضع خطوات على الانفرادِ بكرسي البلادِ ولكنهُ رغم ذلك كُلهِ كان حذراً أشدَ الحذرِ، القائمين على الحزبِ بدورِهم كانوا متفائلين فيما بينهم بأنهم قد قطعوا شوطاً كبيراً ولم يتبقَ سوى القليل على تحقيقِ الانجازِ.

بقية الأحزاب المُتنافسة كانت في سباقٍ مع الوقتِ لمحاولة خطفِ قلوبِ وثقةِ الشعبِ، أيقنت متأخرة بأن تلك اللقاءاتِ المتكررةِ لم تكن سوى مضيعة للوقتِ وأنها سرقت من وقتِهم وطاقتِهم الكثير والكثير، حاولوا إنقاذ ما يُمكنُ إنقاذه عن طريقِ بياناتٍ هدفُها الأول استعطاف الغالبية العظمى من المواطنين دون النظر إلى ما تحتويه تلك البيانات من كلماتٍ وجمل من شأنها تغيير الدفة، تسلل اليأسُ إلى نفوسِهم وصاروا متأكدين بأن الفشل سيقفُ بجانبِهم في تلك الانتخابات المزمع إقامتها بعد عدةِ أسابيع .

كلما مرت الأيام والساعات والدقائق كلما خرج حزبٌ من السباقِ من قبلِ حتى بدايتِه، على ما يبدو أن تلك الأحزاب لم تعتد التنافس داخل الأجواءِ الديموقراطية ولم تكن مهيأة لها من الأساسِ وأصيبت بالاندهاش فور علمِها بأنها تملكُ فرصة الفوزِ، في غمضةِ عينٍ وجدوا أنفسهم يربطون الأحزمة ويستعدون للسباقِ وهم لا

يعلمون أية تفاصيلٍ مُسبقة عن قواعدهِ، حزبُ "الأمل" الذي كان "يوسف" تابعاً لهُ ولازال هو الوحيد تقريباً الذي كان يملكُ بعضِ التفاصيلِ التي أفادتهُ كثيراً طوال الفترةِ الماضيةِ.

بقدرِ ما كان الحزبُ سعيداً بتلك المؤشراتِ الأوليةِ إلا أنهُ كان قلقاً في حالة فوزهِ بالانتخاباتِ، لن يتحمل الشعب مزيداً من الوعودِ دون تطبيقٍ حقيقي على أرضِ الواقعِ، كانوا يعلمون أن ضريبةِ النجاحِ ستكونُ باهظةَ الثمنِ ولن يتهاونوا بالطبعِ مع أي نظامٍ قادم، لكنهم لم يفكروا كثيراً بهذا الشأنِ حتى لا تختلطُ الأمور عليهم وفضلوا التركيز الآن على ما هو أهم، الوجوه مُتعبة والأيادي مُنهكة والأجساد مُستهلكة والكل يتمنى قدومها سريعاً حتى ينتهي هذا التعب مهما كانت النتيجةُ في نهايةِ المطافِ.

قاعةُ اجتماعاتِ المجموعةِ لم تتوقف عن العملِ، المبنى لم يتوقف عن الحركةِ، أعضاء المجموعةِ لم يتوقفوا عن الحضورِ يومياً لمراقبة ما يدورُ على الساحةِ، لم تكن هناك آراء واضحة وصريحة بشأن الانتخاباتِ، حتى الرجل الأول لم يكن أحدٌ يعلم مع من يفضلُ العملَ خلال الفترةِ المُقبلةِ، لكن النقطة الأهم والتي كانت مُتفقٌ عليها بالإجماعِ أن الحزب الفائز بالانتخابات يتوجبُ عليهِ عدم إقصاءِ المجموعةِ من خياراتهِ وأن المصلحة العامة هي العمل سوياً تحت سقفٍ واحدٍ لتحقيقِ التقدمِ المرجو .

على عكس الحزبِ الذي كان يملكُ بعضاً من القلقِ تجاه الشارع والمواطنين لم تكن المجموعة مكترثة بالشعبِ ولا بطموحاتِهم ولا بأحلامِهم، تحقيقِ التقدم وعمل المشروعاتِ ما هو إلا شعاراتٍ من شأنها كسب ودِ أولئكَ البائسين العجزة، ذلك القلق هو الثغرة التي قد تصيبُ الحزبَ في مقتلٍ في المُستقبلِ القريبِ، عندما يشتمُ الشعب رائحة الخوفِ وقتها قد يتصببُ عرق هؤلاء القائمين عليه وقد تصابُ سفينتَهم بالانهيارِ وهم على مقدمةِ الشاطئ ولم يتحركوا بعد .

السيد "نزار" قام ببعضِ الاتصالات مع المشاركين في ذلك العُرس الانتخابي، كان من المهمِ تقديمِ المجموعةِ على أنها تقفُ خلف الفائز وتدعمهُ في تلك الظروفِ الصعبةِ، تلك الإجراءات الروتينية كانت مهمة للغايةِ في نظرهِ ولم يرد التغافل عنها، كانَ يعلمُ هو الآخر من هو الشخص الذي وقع اختيارُ الشعبِ عليهِ ليكون رئيساً للبلادِ في الفترةِ القادمةِ، كان أمراً غريباً عليهِ أن يقفَ من بعيدٍ يراقبُ ما سيحدثُ في الانتخاباتِ بعد أن كان يضعُ تفاصيلِ كُلِ كبيرةٍ وصغيرةٍ ويعرفُ النتيجة حتى قبل الرئيسِ السابقِ نفسهُ.

الإعلامُ كان المُستفيد الأول من ذلك الصراعِ الانتخابي، يومياً كانت تُقام اللقاءات المُباشرة على عديدِ القنواتِ، لكن الأمر ليس مجرد سويعات مع المرشحِ هذا أو المرشحِ ذاك الأمرُ يكمنُ في أن ذلك الصراع وتلك التغطية الشاملة لربما أنست الشعب قليلاً أنهم كانوا يقفون خلف النظامِ ولا يتوقفون عن مدحهِ ليلاً

ونهاراً، أكادُ أجزمُ أن مقدمي تلك البرامجِ يتنفسون الصعداء الآن بعدما التفتُ الشارعُ إلى الانتخاباتِ وأن هتافات الشبابِ تلك لم تطح بهم كما أطاحت بأولياءِ أمورِهم سابقاً.

الصحف اليومية لم تقف متفرجة هي الأخرى وسارت على خطى البرامج التلفزيونية وحاولت بشتى الطرق محو آثار انبطاحِها للنظامِ السابقِ، كانت فرصة على طبقٍ من ذهبٍ لعديدِ الإعلاميين والكتاب والصحفيين وبالتأكيد لن يفوتوا مثل هكذا فرصة على أنفُسِهم، أيقنوا أن تلك الانتخابات بمثابة صفحة جديدة مع الشعبِ بجميع طوائفه، كانوا الطرف الأكثر استفادة من ذلك الصخب الانتخابي بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من الإقصاء للأبدِ بعيداً عن شاشاتِ التلفازِ والأقلامِ اليوميةِ.

لم يغفل الشبابُ عن تلك الأمورِ ولم تتح لهم الفرصة كاملة كي يتخلصوا من هذا الإعلامِ نهائياً، كانوا يريدون انتظار الرئيسِ الجديد وما سيفعلُه معهم وما هي خطتهُ المُستقبلية، بعض الشبابِ الذين تجمهروا وهتفوا و لم تكن لهم ميول واضحة تجاه أي رئيس كانوا يعتقدون بأن الوقت قد فات لمحاسبةِ صوت النظامِ المُتمثلِ في الإعلامِ، الأجدرِ بتلك الأحزابِ محاولةِ إقصائهم بدلاً من الجلوسِ معهم على طاولةٍ واحدة، يا للغباء !! كيف لهم بأن يجلسوا مع من ظلوا يُشككون في وطنيةِ تلك الأحزابِ يا للغباء يا للغباء !!

أدركوا مؤخراً بأن تلك الأحزاب وكأنها وقعت تحت تأثيرِ التنويمِ المغناطيسي وعينهم لا ترى سوى صناديق الاقتراعِ ورموزِ المُرشحينِ، عينهم لا ترى سوى الخوف والخيانةِ ومحاولة انتزاعِ ذلك المقعدِ عوضاً عن الجلوسِ على طاولة واحدة يتفقون فيها على مناصرة الأصلحِ ومبايعتِه كرئيسٍ للبلادِ، كل تلك الأشياء عززت من موقفِ المجموعةِ وجعلت موقف الشبابِ ضعيفاً للغاية وبدأ الاعتقادُ فيما بينهم بعدمِ جدوى تلك الحناجر التي ظلت تهتفُ لأيامٍ وأيام راغبة في مُستقبلٍ أكثرُ إشراقاً من ذي قبل .

حاول بعضُ الشبابِ من أصدقاءِ "يوسف" الجلوس معهُ على انفرادٍ والحديثِ بشأنِ تلك المخاوفِ في محاولة أخيرة لإنقاذِ ما يمكنُ إنقاذه، لكنهُ كان مشغولاً للغاية ولم يرد على اتصالاتِهم ولم يتبقَ أمامهم سوى حلٍ واحدٍ وهو الذهاب إليهِ في قلبِ الحزبِ ومقابلتِه وجهاً لوجه، " لقد مرت فترة كبيرة منذُ آخر لقاءٍ لنا أصدقائي" هكذا كانت كلماتهِ الأولى ترحيباً بهم مدعومةً بالابتسامةِ، " نعم يوسف لقد مر وقتٌ طويلٌ وها أنت تغيرت عن السابق وصرت منغمساً هنا لدرجةِ تجاهل اتصالاتِنا " كلماتِهم تلك خرجت بنبرةٍ حادة بعض الشئ، لم يكن منهُ سوى الاعتذارِ لهم وتحججَ بأن الوقت ليس ملكهُ.

" لسنا هنا لمحاولة أخذِ الاعتذارِ منك إنما نحنُ هنا لموضوعٍ أكثرَ أهمية يتعلقُ بمُستقبلِ تلك البلادِ " من نظرة أعينِهم فَهِمَ "يوسف" السبب وراء زيارتِهم تلك وتبدلت تلك الابتسامةِ التي ظهرت في البدايةِ وصار اللقاءُ يحملُ الطابع الرسمي لا الودي، " إذاً ما هو الموضوع المهم الذي جئتم من أجلهِ ؟ " نظر بعضُهم إلى بعضٍ وقرروا أن يتحدثَ واحدٌ منهم بالنيابةِ عن البقيةِ " لقد أخذكَ الحزبُ تماماً ويبدو أنكَ تناسيت ما قد خرجنا من أجلِه في بادئ الأمرِ، ها أنت وحزبكُ تدخلُ في معركةٍ قد تطيحُ بكُلِ تلك المكتسباتِ في النهاية، معركة قد تنهي ذلك الحُلم الذي عشنا نحاولُ تحقيقهُ لسنواتٍ وسنوات " صمت قليلاً في مُحاولةٍ منهُ لاستيعابِ ذلك

الحديثِ ومن ثمَ ردَ قائلاً " لا شئ قد يطيحُ بحُلمِنا ونحنُ كنا نقفُ بعيداً عن معركةِ الأحزابِ الباقيةِ وحملنا على عاتقِنا مهمة تحقيقِ أحلامِكم " .

نبرة يُوسف لم تُعجب أولئك الشبابِ وشعروا بأنهُ لا يريدُ الحديثَ كثيراً بهذا الشأنِ واعتذر منهم عن استكمالِ اللقاءِ نظراً للأعمالِ الكثيرةِ التي تنتظرُ إنجازها، تلك الجلسةِ لم تزدهم إلا إحباطاً وصاروا يشعرون بأن نسمةِ الهواءِ التي كانت تحملُ الحرية قد تختفي في أي وقتٍ وأن رحلتها في تلك البلدِ لن تدومَ طويلاً، لم يكن أمامهم سوى تفريغِ الغضبِ بداخلِهم عن طريقِ صفحاتِ مواقعِ التواصل الاجتماعي في محاولة يائسة منهم لتنبيهِ البعضِ وتوعيتِهم بخطورةِ الأمرِ وهذا بالطبعِ لن يكون كافياً ولا مجدياً لكنهُ أفضل بكثير من كتم طاقةِ الغضبِ تلك .

صناديق الاقتراع قد جُهزت تماماً ورجال الأمنِ قد أخذوا مواقعهم لتأمين تلك العمليةِ الانتخابيةِ، اللجنة المشرفة قد وصلت في ساعةٍ مبكرةٍ من صباحِ اليومِ الأولِ للانتخاباتِ، يبدو أن العاصمة قد استعدت جيداً ولم يتبق سوى البداية، الأعداد تزدادُ بمرورِ الوقتِ والمشاركة لم تقتصر على الشبابِ فقط بل حتى كبار السنِ توافدوا على اللجانِ الخاصةِ بهم من أجل الإدلاء بأصواتهم، اللجنةُ من جهتِها أبدت تفاؤلاً كبيراً وتوقعت أن يستمر توافد الملايينِ من الشعب.

القنوات التليفزيونية نشرت مراسليها في أنحاء البلادِ لتغطية الانتخاباتِ وتسابقت القنوات على الخروجِ بسبقٍ قد يضمنُ لهم مشاهدة أكبر في المستقبلِ، مثل تلك المحافلِ مهمة للغايةِ في نظرِ الإعلامِ، لم تتوقف التغطية عند هذا الحد بل تواجد مُراسلون من أمامِ مقارِ الأحزابِ لمتابعةِ ردودِ الفعلِ هناك ومتابعة غرفة العمليات هناك ومحاولة الخروج بتصريح من أحد المسئولين عن الحزبِ، الصحف هي الأخرى أرسلت بعضاً من محرريها للخروجِ بعناوين قوية تجذبُ انتباه القراء في الصفحة الرئيسيةِ غداً.

مقار الأحزاب كانت تعمل على قدمٍ وساق، كانت تحاولُ دفع الناسِ للمشاركةِ، الاتصالات لا تتوقف هُناك، الكل يريد معرفة مسار العميلة الانتخابية، لا أحد يرتاحُ هُناك، بالكاد تلتقطُ أنفاسك وتشربُ كوباً من الماءِ ومن ثُمَ تتابعُ لحظة بلحظة ما يحدُث، لا وقت للحديثِ كثيراً مع القنوات التليفزيونية ولا بإدلاء تصريحاتٍ لأحد الصحفِ الكبيرةِ، كُل ما تبقى هو جزء بسيط من الثانية قبل أن تقع تلك الأجساد على الأرضِ من شدةِ التعبِ والجهدِ المبذول في اليومِ الأولِ لذلك الحدث المهم والتاريخي.

المواطنون كانوا الطرف الأكثر تمتُعاً بالراحةِ في اليومِ الأولِ، لم يتكبدوا سوى عناء الوقوفِ تحت أشعةِ الشمسِ الحارقةِ لمدة لا تزيدُ عن الساعةِ وبعدها يتسنى لهم الدخول للتصويتِ وأخيراً يأتي دور الجزء الأجملِ بالنسبةِ لهم في هذا اليومِ الحارِ وهو الهروب إلى منازلِهم، المتابعة من أمام الشاشةِ هو الجزء التالي بالنسبةِ للمواطنين الذين انتهوا من صداعِ الانتخاباتِ، الدور القادم سيكون على الذين لم يتمكنوا من المشاركةِ في اليومِ الافتتاحي ومن المتوقعِ أن يكون الاقبالُ أكثر في اليوم الثاني.

صباح اليوم الثاني قد حل وها هم رجالُ الأمنِ قد وقفوا على اللجانِ وها هم المواطنون قد التزموا الصف كي يشاركوا ويدلون بأصواتهم، مراسلو القنوات التليفزيونية حضروا منذُ الصباحِ الباكرِ وهذهِ المرة لمحاولة أخذ بعض التصريحاتِ من رجالِ الأمنِ لمعرفةِ سيرِ العميلة وهل من مشاكل تواجهُهم، فرصة ممتازة لهم للظهورِ أمام شعبِهم والحديث بصورة لبِقة قد يعيدُ الثقة من جديد بهم، اللجنة المشرفة بدورها كان لها نصيب من تلك اللقاءاتِ وأكدت أن كل شئ يسير بصورة جيدة ولم ترصد محاولات حتى الآن للتزوير.

لازالت غرفة العملياتِ تعملُ بشكلٍ مستمر ولازال النومُ لا يعرفُ طريقاً لهؤلاءِ المساكين الذي يرجون هماً كبيراً، كانت محاولاتهم مستمرة لمحاولة حشد الفئات التي لم تتحرك من مكانها للمشاركةِ في الانتخابات، يدركون جيداً أن ثمة صوتاً واحداً قد يغيرُ من الأمورِ تماماً، لليومِ الثاني لم يتحدث كبار المسئولين في تلك الأحزابِ لانشغالهم تماماً وباتت عربات القنوات قابعة هُناك دون أي فائدة تذكر، انتصفُ اليومُ وبدأ التعبُ يحلُ على عديد الأعضاءِ في تلك الأحزابِ ولكن من يكترث ؟! فمواصلة العملِ كانت السمة السائدة هُناك.

رؤساء القنواتِ يدركون تماماً الأهمية الكبيرة لذلك الحدثِ، لذلك فلم تخلو بقعة من البلادِ إلا وكنت تجدُ فيها مراسلاً يرصدُ ردود الفعلِ من أمام اللجانِ، كانوا يؤمنون بأن السبق في ذلك الظرفِ لن يعوض إطلاقاً وسيُشكلُ ضربة قوية تعززُ من قوةِ القناةِ، البائسون هم من يحاولون تحقيقِ أحلامِ المُلاكِ ورؤسائهم في العملِ متحدين التعب والظروف، أغلبهم كان ينجح في الخروجِ بتصريحٍ من المواطنين وبعضُ منهم خرج بتصريحٍ من رجال الأمنِ وقليلٌ منهم انفرد بلقاءٍ مع أعضاءِ اللجنةِ المُشرفة .

اليوم الثاني أوشكَ على الانتهاءِ والأعداد المُسجلة للحضورِ أكثر من اليومِ الأولِ وهذا ما أدخل السرور إلى قلوبِ أعضاء اللجنةِ، الأهم من ذلك بالنسبة لهم هو عدم تسجيلِهم لأي حالة من حالاتِ التزويرِ، لكن ما عكر صفوهم قليلاً هو تسجيلِهم لعديدِ الحالاتِ من الأصواتِ الباطلةِ ولكنهم في النهاية اعتقدوا أنها مجرد حالات فردية وليست مُنظمة، كانوا يتوقعون بأن الأعداد المُشاركة في اليومِ الثالثِ والأخيرِ قد تفوقُ الأعداد التي سُجلت في اليومين الأولِ والثاني.

حديث جانبي دار بين "يوسف" و"نضال" بشأن الانتخابات واليوم الثالث المتبقي لهم ولمرشحهم، "هل تعتقد أن أحمد بإمكانه الفوز بالنهاية ؟ الإجابة كانت سريعة وبثقة كبيرة "نعم أعتقد" ، كان على علمٍ بأن المتنافسين لا يملكون الذكاء والنضج كمرشح حزبهم، اليوم الأخير سيكون فرصة من وجهة نظره لتأكيد كلامه هذا عندما تعلن اللجنة المشرفة على الانتخابات اكتساح مرشح حزب "الأمل" "أحمد عبدالرحمن" بمقعد الرئاسة لمدة أربعِ سنواتٍ قادمة بالتمام والكمال، ذلك هو المشهد الذي رُسم في مخيلةِ "يوسف" ولن يرضى بغيرهِ في النهايةِ.

اليوم الثالث بدأ بحضورٍ أكبر من سابقيه كما توقعت الأغلبية، كل الأحزاب تحاولُ دفع ما لم يصوتوا إلى اللجان الانتخابية عسى أن تكون أصواتهم تلك سبباً للفوز، رغم الزحام الذي شهدته اللجان إلا أن العملية سارت كما أرادوا لها والنظام كان المحرك الأول لها، تلك التجمعات أدخلت السرور إلى اللجنة المشرفة التي كانت قلقة في البداية بشأن الحضور العام في تلك الانتخابات ولكن على ما يبدو أن الملايين كانوا متعطشين لتلك التجربة الفريدة من نوعها ويريدون تجربة الشعور بالتصويت دون أية ضغوط تذكر.

لازالت القنوات تقفُ هُنا وهُناك محاولة الخروج بسبقٍ قوي فيما تبقى من ساعاتٍ، بعض القنوات أطلقت عديداً من الإشاعات فيما يخص الرئيس المحتمل للبلاد، بعضها أكد أن "أحمد عبدالرحمن" بات الأقرب لانتزاع المقعد الرئاسي والبعض الآخر يقول أن "محمد شكري" يتصدر السباق بفارق مريح، في الحقيقة لم تكن تملك القنوات معلومات مؤكدة وموثقة بالأرقام ولكنها كانت بعض الاجتهادات من الصحفيين وعلى أثرها تحدثت القنوات بها ولكن تبقى مجرد اجتهادات لا أساس لها من الصحة حتى الآن.

غرف العمليات قاربت على إنهاء العمل المطلوب منها وأصبحوا مستعدين لاستقبال النتيجة بصدرٍ رحبٍ مهما كانت تحمل من فرحٍ أو حزنٍ، الكل فضل البقاء في مكانه منتظراً لحظات الفرز ولحظات إعلان النتيجة على أن يشد الرحال إلى منزله ويأخذ قسطاً من الراحةِ، لحظة الحقيقة تقتربُ شيئاً فشيئاً وها هم يضعون أيديهم على رؤوسِهم من شدة القلقِ وينتظروها خروجها الآن ولا يهم إن فازوا أو خسروا المهم أن يرتاحوا من عناء التفكير والقلق وأن ينتهي ذلك الحدث.

على غرارِ أولئك الشباب جلستُ في منزلي أتابعُ لحظة الفرزُ وكنتُ متشوقاً في الحقيقةِ لمعرفةِ الرئيسِ القادمِ للبلادِ، بعكسِ السيدِ "نزار" الذي كان يرى بأن الرئيس القادم مهما كان من هو فقد يهددُ بقاء المجموعةِ كنت أرى بأنه من الوارد التعاون مع الفائز، كنتُ أحبذُ عدم الدخول في صراعاتٍ أخرى قد تنهى مصير هذه المجموعةِ للأبدِ، من الأفضل الانتظار ومعرفة نوايا النظام الجديد وعلى أثرها نعرفُ كيف نتحرك في المستقبل وهذا ما كان يرفضهُ الرجل الأول للمجموعة.

حاولتُ دعوة أحد الأصدقاء من المجموعةِ في ذلك اليومِ لمشاهدةِ تلك اللحظة لكنهم تحججوا بأنهم يقضون لحظات مع العائلةِ، قدرتُ حديثهم واعتذارهم وبقيتُ مع عائلتي في المنزل، لكن الملفتَ أنهم تقبلوا حديثي في البداية عن متابعةِ لحظة الفرز بنوعٍ من السخريةِ، لم أكن أدري هل مازال أحدهم يدينُ بالولاءِ للنظامِ السابقِ لدرجةٍ تجعله يكره مشاهدة مؤتمر النتيجة ؟ أم أنهم لا يكترثون من الأساسِ للرئيسِ القادمِ ؟ أم قضاء الوقت مع العائلة جعلهم يسخرون من دعوتي تلك ؟ كعادتي فصغائر الأحداث قد تخرجُ عديد الأسئلةِ التي قد أفشلُ في النهايةِ بالإجابة عنها ولكن لا بأس غداً قد تتضحُ كل التفاصيل.

بدأت وقائع المؤتمر الصحفي للجنةِ المشرفةِ على الانتخاباتِ وسط تغطية كبيرة من القنوات التلفزيونية ووسائل الإعلام الخارجيةِ، بدأ الحديث بشكرِ كافة المواطنين الذين شاركوا في هذا الحدث وساهموا في خروجهِ بتلك الصورةِ الجميلةِ، بعدها تم رصد الأعداد المشاركة والأصوات الباطلة وعديد الأشياء المعتادة

في مثلِ هكذا محافل، اللحظة الأهم قد حانت، اللحظة التي ينتظرُها الجميع في جميعِ أنحاء البلادِ، لحظة إعلان الرئيس القادمِ وهو "أحمد عبدالرحمن" مرشحِ حزبِ "الأمل".

وضعتُ يدي على رأسي قليلاً بعد سماعي لتلك الكلماتِ، فذلك الرئيس القادم يمثلُ حزباً ليس على وفاقٍ كبير مع سياسات المجموعةِ، قُدرَ للرجلِ الأولِ لمجموعتنا أن يدخل في ذلك الصراع المُحتملِ، كنتُ أتمنى نجاح مرشحٍ آخر ليس خوفاً منه بالتأكيد ولكن لتجنبِ مثل هذا النوعِ من الصراعاتِ، ما هي إلا دقائق فقط وكان جرسُ الهاتفِ يناديني بالتوجهِ مسرعاً نحو مبنى المجموعةِ لاجتماعٍ طارئ وعاجل، يبدو أن السيد "نزار" لا يريدُ إهدار الوقتِ والانتظار حتى ينقض "أحمد عبدالرحمن" على المجموعة ويفتكَ بها.

ما أن انتهت اللجنة من وقائعِ المؤتمرِ الصحفي هذا حتى انطلقت الاحتفالات في جميعِ الأماكنِ التي تدعمُ الرئيس الجديد، مقرُ الحزبِ كان المكان الأشد صخباً وبدأ الجميعُ يتبادل الأحضان والقُبلات، لا مانع من بعضِ دموعِ الفرحِ والسعادةِ، تناسوا لوهلة التعب الذي حلَ بأجسادِهم ولامست أيديهم السماءِ من شدةِ السعادةِ، أصبح بمقدورِهم الآن تنفيذ تلك الأفكار التي لطالما حملتها مخيلتِهم ولم تيأس من حملها يوماً ما، لن يذهبوا في الثامنة صباحاً للوقوفِ أمام المسئولين ومحاولة استعطافهم لتنفيذ تلك الأفكار ومن ثمَ ينتهى بهم المطاف خارج الصفِ الكبيرِ.

في تلك اللحظاتِ استطاع المراسلون تسجيل بعض اللقاءاتِ التي كانوا يريدونها منذ البدايةِ، الكل عبر عن سعادتهِ بتلك النتيجةِ وشكروا الشعب بأكملهِ للثقة التي وضعوها في رئيسهم، لم يتناسوا التأكيد على أن الحرية والديموقراطية هما المحرك الأساسي لذلك العصرِ الجديدِ وأن لغة الحوارِ ستكونُ أسهل مما سبق، لكن المراسلون كان يطمعون في أكثر من هذا وهو لقاءٌ مع الرئيسِ الجديدِ ولكن لسوءِ حظِهم أنهُ كان يحتفلُ هو الآخر في مسقطِ رأسهِ ولن يستطيع الحديث على الأقل في تلك الأثناءِ.

بعض من الأحزاب المُشاركة بدوها بنوعٍ من الحزنِ باركت للرئيسِ الجديدِ مُتمنية له التوفيق في تلك المهمة الصعبة وأنها ستقفُ خلفهُ داعمة وناصحة، البعض الآخر تأثر كثيراً بالنتيجةِ وفضل عدم الخروج على الشاشاتِ حالياً على أن يتحدثوا في وقتٍ آخر، واحدة من القنواتِ استطاعت عقد مكالمة مع الرئيسِ وخرج يشكرُ الشعبَ على مشاركتهِ في نجاحِ ذلك العرس الانتخابي ووعد الجميع بأنهُ لن يقصر في حقِ بلدهِ مادام حياً يُرزق وأن وقت الظلم والفساد قد رحلَ بلا عودة وأن المرحلة القادمة هي مرحلة الشباب بامتياز.

أثناء ما كانت الاحتفالاتُ مستمرة وأثناء ما كان المقرُ صاخباً ووقت ما كان الرئيسُ يتحدث إلى شعبهُ كان مبنى المجموعة صامتاً بانتظارِ عقد الاجتماعِ العاجلِ، أعضاء المجموعةِ تفاجئوا بذلك الاتصالِ فالأغلبية منهم لم تكن مستعدة تماماً لذلك الاجتماع، بدأت التساؤلات وبدأ كل واحد يحدثُ زميله عن سببِ ذلك النداء العاجل ولكن لا أحد يعرفُ سوى السيد "نزار" نفسهُ، ما زاد من تلك التساؤلات هو العطلة التي أعطانا إياها على أن نعود في وقتٍ لاحقٍ يحددهُ هو وعلى ما يبدو فإن الوقت قد حان لقطعِ تلك العطلةِ.

" نحن الآن على أعتاب مرحلة مهمة في مستقبل تلك المجموعة، أي خطأ قد يكلفنا الكثير والكثير، لقد فكرتُ جيداً فيما يخص النظام الجديد ولا مانع من التعامل معهم إن رحبوا بذلك " حديث الرجل الأول للمجموعة جعل الأعضاء ينظرون إلى بعضهم البعض وهم يحملون الابتسامة على وجوهِهم المستديرة تلك، يبدو أنهم كانوا بانتظار خروج تلك الكلماتِ من فمهِ، اعتقدتُ أني الوحيد الذي كنتُ أودُ التعامل مع الطاقم الجديد ولكنهم أيضاً لا مانع لديهم من التعامل معه شرط عدم إغفال دور المجموعة أبداً.

في الطريق إلى المنزلِ بعد هذا الاجتماعِ شاهدتُ مجموعة كبيرة من الشبابِ لازالت تحتفلُ بفوزِ مرشحِها بمقعدِ الرئاسةِ، كنت أشاركُهم الفرحة ولكنها مختلفة قليلاً عنهم، فرحتي كانت مستمدة من الهدوء الذي ستتبعهُ المجموعة في الفترةِ القادمةِ، لا حاجة لنا في الوقوفِ أمام النظامِ الجديدِ منذ اللحظة الأولى فقد نخسرُ الحاضر والمستقبل، الآن استطيعُ الاستمتاع بالنومِ دون الاستيقاظِ في الثانيةِ فجراً للتفكيرِ بشأنِ تلك الأسئلةِ التي غالباً ما أعجزُ في الإجابة عنها وأكتفي بالتحديقِ يميناً ويساراً دون فائدة تذكر.

في اللحظةِ التي وضعتُ فيها قدماً داخل البيتِ كان الرئيسُ الجديدُ قد تحركَ من مسقطِ رأسهِ للتوجهِ نحو المقرِ لاستكمالِ الاحتفالاتِ وسط أعضاءِ حزبهِ، لازالت القنوات تغطي كل ما يحدث حتى بعد انتهاء الانتخاباتِ، المراسلون بدورِهم كان يحاولون الوصول إليه دون جدوى ولكن البعض منهم عرف أنهُ اقتربَ من الوصولِ إلى الحزبِ وشدوا الرحال إلى هُناك، كان من المتوقع أن يستمر ذلك الصخب وتلك الاحتفالات حتى ساعة مبكرة من صباحِ اليومِ التالي ولذلك فقد تمركز رجال الأمن في مواقعِ الهرجِ كنوعٍ من الإجراء الاحترازي.

لسوءِ حظِ المراسلين فالرئيس لم يستمر طويلاً في مقرِ الحزبِ وفشلوا في تسجيلِ ولو لقاءٍ واحدٍ معهُ، يبدو أنه أمام يومٍ طويلٍ قد لا ينتهي في تلك اللحظاتِ، على الفور بمجردِ الانتهاء من زيارة الأعضاءِ توجهَ مسرعاً إلى أحد القنواتِ لعقدِ لقاءٍ معهُ للحديثِ أكثر عن كواليسِ الانتخاباتِ وعن الاستعدادات قبلها وعن الخطط القادمة بعد أن أصبح الرئيس الرسمي للبلادِ، بعد ثلاثةِ أيام وأكثر من الجهدِ والتعبِ آن الأوان للأعضاءِ أن يذهبوا إلى منازلِهم كي يتمتعوا بقسطٍ من الراحةِ قبل معاودةِ العملِ من جديد، ربما قد يحلمون بصناديقِ الاقتراعِ بعد كُلِ هذا المجهود المبذول.

لم تكن الأحزاب المتنافسة وحدها حزينة بل هناك فتاة صغيرة كانت أشد حزناً منهم وأوشكت على الانفجارِ، لا تعلمُ شيئاً عن خطيبِها منذُ أسبوع كاملٍ وكلما حاولت الاتصال به كان الهاتفُ مغلقاً، "هند" لربما المتضرر الأكبر من رحيلِ النظامِ السابقِ، فتلك الهتافات وتلك الحرية سلبت منها خطيبِها وصار مشغولاً عنها طيلة الوقتِ وما زاد الطين بلة هي تلك الانتخابات اللعينة، كم تمنت أن يخسر مرشح الحزبِ التابع له "يوسف" حتى يعود لها مرة أخرى بعد أن خطفتهُ رياح الديموقراطيةِ.

جسد "يوسف" كان متعباً للغايةِ ومنذ دخولهِ لشارعِهم وهو يحلمُ بغرفةِ نومهِ وهي تلوحُ بيدها منتظرة إياهُ كي يخلدَ إلى النومِ ويتناسى كل هذا الصخب، لكنهُ كان يعلمُ أن ثمة شئُ قد يعكرُ صفوهُ في تلك الليلةِ، بعد أن صار هاتفهُ مفتوحاً للجميعِ أيقن أن الاتصالات لن تتوقف وعلى الأغلبِ ستكون مباركة من الأصدقاءِ بالفوزِ ومن يعلم لربما يريدون الانضمامِ إلى الحزبِ، ولكن يبدو أنهُ تناسى تلك الفتاة الصغيرة التي لو رأتهُ في التوِ واللحظةِ فقد تقتلعُ رأسهُ من مكانِها من فرطِ الحُزنِ والغضبِ.

ها هو الهاتفُ يرنُ وها هو اسمُها يظهرُ على الشاشةِ واضحاً للأعمى وذو النظرِ الضعيفِ، " مرحباً أيها العضو النشيط، أتمنى أن تكون قد قضيت وقتاً لطيفاً مع الانتخاباتِ" بنوعٍ من السخريةِ والاستهزاء بدأت الفتاة الجميلة حديثها مع خطيبِها المفقودِ، " هند أظنُ أن الوقت قد لا يكونُ مناسباً للحديثِ فجسدي أوشك على أن يسبُني، غداً في الصباحِ الباكرِ سأشرحُ لكِ كل ما مررتُ به " لم يكن يعلم ذلك المسكين أن تلك الكلمات قد تزيدُ من حدةِ غضبِها لدرجةِ أنها أغلقت في وجههِ في التوِ واللحظةِ.

مسرعاً حاول معاودة الاتصالِ بها لكي يخرجها من تلك الحالةِ السيئة التي تمرُ بها ولكن لا جدوى، في النهاية أُغلقَ الهاتف وتأكدَ لحظتها أنهُ لا فائدة اليوم ويجدرُ به الذهاب إلى النومِ وحينما تشرقُ الشمسُ سيكون لهم حديثٌ آخر، أما تلك المسكينة فقد انهمرت في الدموعِ وألقت بهاتفِها بعيداً عنها وتذكرت الأيام الأولى معهُ التي كانت تعاني فيها الأمرين وخشيت أن يعودَ إلى حالتهِ السابقةِ، بينما كان البكاءُ مسيطراً عليها إذ كان النومُ يخطفُها خطفاً لينقذها من عناءِ التفكيرِ المريرِ.

في الصباحِ الباكرِ وبينما "يوسف" يحاولُ الاتصال بتلك الصغيرةِ التي حل عليها النومُ وهي حزينة جاءهُ اتصالُ من الحزبِ يطلبُ حضورهُ على الفورِ في مؤتمرِ تقديمِ الرئيسِ الجديدِ، لم يلبث أن يرتاح قليلاً حتى جاءت المعاناة مرة أخرى، في الناحية الأخرى كان هاتفُها يرنُ وظهر اسمُ حبيبها على الشاشةِ وأيقنت أنهُ يحاولُ الاتصال بها منذُ الليلة البارحةِ وما كان منها سوى الرد عليهِ لأنها تعلمُ مسبقاً أن ذلك الشاب حتماً لن يرضى رؤيتها في ذلك الحالِ المحزنِ.

لكنها كانت متفائلة بدرجة أكبر من اللازمِ عندما اعتقدت أنهُ سيحاولُ مصالحتها وقضاء اليومِ كلهِ بجوارِها تعويضاً لها عن تلك الأيامِ التي اختفى فيها كلية، " صباح الخير هند أعرفُ أنكِ مستاءة جداً ولكني عندما أنتهي من ذلك المؤتمرِ سأعودِ لكِ على الفورِ" جُنَ جنونها فور سماعِها تلك الكلماتِ وتمنت لو أنهُ أغلقَ فمهُ وذهب إلى ذلك المؤتمرِ اللعين دون أن يخبرها وأبت إلا أن تترك بصمتها قائلة " حسناً بالتوفيق أيها الولد النشيط عسى أن تسمع بعض كلمات الحُبِ والودِ هناك " فوراً أغلقت الهاتف في وجههِ ثانية وما إن انتهت المكالمة حتى تغيرت ملامحهُ وأمسكَ برأسهِ من شدةِ الحيرةِ.

في الطريقِ إلى هناك جلس يفكرُ في طريقةٍ مُثلى يحاولُ من خلالِها كسب ثقةِ زوجتهِ المُستقبلية مرة أخرى، لم يفكر في المؤتمرِ بقدرِ ما كان يفكرُ بها، تلك اللحظات اثبتت بما لا يدعُ مجالاً للشكِ أنهُ قد أحبها رغماً عن أنفهِ، لم يتخيل نفسهُ محباً عاشقاً في يومٍ من الأيامِ ولكنَ تلك المراهقة خطفت قلبهُ بعد معاناة استمرت طويلاً معهُ، لم يشعر بنفسهِ سوى عند توقفِ السيارةِ التي تقلهُ وعند حديثِ السائقِ " ها قد وصلنا سيدي " وحينها حاول طوى صفحة الحُبِ ولو مؤقتاً على أن يتم فتحُها مرة أخرى عقب انتهاء فعاليات المؤتمر.

في تلك الأثناء كانت أعينِ "هند" مليئة بالدموعِ وتأبى الحديث مع عائلتها ولا حتى صديقاتِها التي حاولن الوصول لها عن طريقِ والدتها بعد إغلاقِ هاتفِها، كانت تنتظرُ منهُ بعض الكلماتِ الرقيقةِ التي من الممكن أن تزيل بعض الألمِ الذي حل بها طوال الفترةِ الماضيةِ، لكنهُ زاد من جرعةِ الألمِ تلك وتركها لقمة سائغة

يفترسُها الحزنُ كما شاء، تواردت بعضُ الأفكارِ السيئةِ إلى ذهنِها وشعرت بأنها عديمة القيمةِ بالنسبةِ لهُ وأنها مجرد جسد بلا روح في حياةِ ذلك العضو المثابرِ.

بعد محاولاتٍ متكررة من جانبِ والدتِها كي تحثها على الحديثِ تكلمت أخيراً وانفجرت في البكاءِ من جديد، لم تكن الأمُ قاسية على "يوسف" وحاولت التماس العذرِ لهُ وهذا ما أثار حفيظة ابنتها وجعلها تصرخُ في وجهِ والدتِها، ابتسمت أمام صغيرتِها وتركتها في غُرفتِها على أن تعود لها مرة أخرى بعد أن تكون قد هدئت تماماً وحينها يكون الحديث أسهل من ذلك، الأمُ هي الأخرى كانت حزينة ولم تكن تريدُ رؤية ابنتها في تلك الحالةِ وعقدت العزم على محاولةِ لمِ الشملِ من جديد مهما كلف الأمر.

بينما كانت "هند" تتعافى من آثار الألم إذ كانت والدتُها تحاولُ الاتصال به لتفهم منهُ أكثر سبب كُلِ هذا، لم تكن تعلمُ أن المؤتمر سيعقدُ في ساعةٍ مبكرة من الصباحِ ولهذا عاودت الاتصال بهِ من جديد دون فائدة تذكر، محاولاتها توقفت تماماً فور سماعِها صوت خافت يقولُ لها بأن "يوسف" لن يستطيع الرد على الهاتفِ لانشغالهِ في تلك اللحظاتِ مع الرئيسِ الجديدِ بمناسبةِ فوزهِ بالانتخاباتِ الرئاسيةِ، ذلك الصوت الخافت كان صوتُ ابنتها التي خرجت أخيراً من غرفتِها في محاولة منها للتماسكِ بقدرِ الإمكانِ.

اعتذرت الفتاة الصغيرة لوالدتِها عما بدر منها في الغرفةِ ومن جديد انكبت على والدتِها وهي تذرفُ الدموع دون توقف، كانت الأمُ مُتفهمة لذلك وقالت " لا تعتذري أيها الصغيرة فأنا أعلمُ جيداً ما تشعرين بهِ ولكني كنت أقصدُ أنهُ يفعلُ ذلك كله عن غير عمد " وما إن أنهت حديثِها حتى كان صوتُ الابن الصغير يملأ جنباتِ المنزلِ "يوسف" على التلفاز !! سريعاً تناست "هند" كل ما تشكو منهُ وولت مسرعة نحو شاشةِ التلفازِ لمشاهدةِ خطيبِها في مشهدٍ جعلَ الأم تبتسمُ تلقائياً لعلمِها بأن ابنتها واقعة في حُبِ ذلك الشاب.

جلست أمام الشاشةِ كتلك الفتاة المراهقة التي تنتظرُ مسلسلها التركي المُفضل، كتلك الفتاة الصغيرةِ التي تنتظرُ الفيلم الكارتوني المُحبب إلى قلبِها، كذلك الفتى الذي يجلسُ منتظراً فريقهُ كي يلعب، كذلك العجوز الذي ينتظرُ النشرة الإخبارية التي تفيدُ بأن المعاشات قد ارتفعت أخيراً، كانت تمسحُ بيدِها آثار الدموعِ وتزيلُ من وجهِها علاماتِ الحُزنِ، تناست مؤقتاً كُلَ ما حدثَ بالأمسِ وتناست ما حدثَ طوال الفترةِ الماضيةِ، لكن بداخلِها تعلمُ أن كل التفاصيل تلك لن تمرَ مرور الكرامِ وستعاتبهُ فور لقائهِ.

بينما كانت الفتاة غارقة في مشاعرِها المضطربةِ كان الرئيسُ قد انهى حديثهُ لوسائلِ الإعلامِ بكافةِ أنواعِها، الخطوة القادمة هي الذهاب إلى مكتبهِ الجديدِ وممارسةِ عملهِ كرئيسٍ فعلي للبلاد، بقدرِ ما كان سعيداً لتحقيقهِ هذا الانجاز الكبير بقدرِ ما كان قلقاً من المُستقبلِ، بدأت الأسئلة تجولُ بخاطرهِ وتعبثُ به أشد العبثِ، هل ستكون المشروعات كافية ؟ هل سيكون البرنامج الجديد مرضياً في نظرِ الشعب ؟ هل سيصبرون عليه ؟ كل تلك الأسئلة عليه إيجاد إجابات لها قبل أن يخوض غمار التحدي الجديد.

لم يستغرق الرئيس وقتاً طويلاً حتى بدأ يشكلُ حكومتهُ الجديدة التي قد كان حدد بعضاً من أركانِها بالفعلِ قبل فوزهِ في الانتخاباتِ، كان حريصاً أشد الحرصِ على عدمِ تكرارِ أخطاءِ النظامِ السابقِ وكان حريصاً وبشدة على انتقاءِ الوزراءِ الجُددِ، لم يرد الاعتماد كثيراً على حزبهِ حتى لا تبدأ الأقاويل بأنهُ شكل حكومتهُ من حزبهِ واكتفى بثلاث وزراء فقط على أن تكون البقية من أحزاب أخرى بشرطِ أن تكون على قدرٍ عالٍ من الكفاءةِ والجودةِ، وهُنا قد تكون قد شُكلت الحكومة الأولى في العصرِ الجديدِ.

بمجردِ انتهاء اجراءات التشكيلِ حتى كان الاجتماع الأول قد جُهز مع الحكومةِ الجديدةِ، اجتمع معهم في القصرِ الرئاسي وشدد على أهمية تحقيق الأهداف المنشودةِ في أسرعِ وقت وأنه لا مكان للتراخي هُنا ولن يسمح بوجودِ متكاسلٍ بينهم، فور انتهاء الاجتماعِ صدقَ رسمياً على قرارِ التعيينِ حتى يتسنى لهم مزاولة أعمالِهم كوزراء جدد للبلادِ، لم يكن يريد إضاعة الوقتِ فبمجردِ انصرافِهم حتى كان يعقدُ اتصالاتهِ مع حزبهِ ورتبَ لاجتماع كبير في مكتبهِ لمناقشة الخطة التي سيتبعُها الحزب في قادمِ المواعيدِ.

في البدايةِ كان الرئيسُ حريصاً على الحديثِ بشأنِ التعيين الوزاري الصادرِ منذُ لحظاتٍ قليلة، يعلمُ أن بعض الأعضاءِ الذين لم يحالفُهم الحظ قد يشعرون بالضيقِ منهُ ولذلك فلم يغفل تلك النقطة وأراد التحدث بشأنِها في البدايةِ، " أعلمُ أن بعضاً منكم يشعرُ بالحزنِ بسببِ التشكيلِ الجديدِ ولكني لا أقدرُ كما تعلمون على تكوينِ حكومةٍ بالكاملِ من الحزبِ " حاول بعض الأعضاءِ مقاطعة حديثهُ قبل أن يكمل " أعلمُ أنكَ ستتحدث عن النظامِ السابقِ ولكن الأمور مختلفة تماماً عن الماضي " وهُنا قد أنهى الجدلَ نهائياً بشأن تلك النقطة وطلب عدم مناقشتِها من جديد.

لم يغفل الرئيس عن عدمِ حضورِ "يوسف" وسأل عنهُ ولم تجب سوى "نضال" التي قالت بأن والدتهُ قد أصابها التعبُ وذهب للاطمئنانِ عليها، في الحقيقةِ لم تكذب فهذا بالفعلِ ما قد أخبرها إياهُ، أكمل حديثهُ وقال بأنهُ سيطمئن على والدةِ "يوسف" في وقتٍ لاحقٍ من هذا اليومِ، النقطة الأكثر أهمية التي تحدث عنها بعد نقطة التشكيلِ الجديد هي عدم الحديثِ كثيراً إلى وسائلِ الإعلامِ والتركيزِ على الأهدافِ التي عقدنا العزمَ على تحقيقِ سوياً وعدم الالتفات كثيراً مع شاشاتِ التلفازِ، كان على علمٍ مسبقٍ بأن الثرثرة يميناً ويساراً لن تكون في صالحهِ أبداً خصوصا في الأيامِ الأولى لهُ كرئيسٍ للبلادِ.

والدةُ "يوسف" كانت بصحةٍ جيدةٍ وكانت تقبعُ أمام التلفازِ لمشاهدةِ ابنها بجوارِ الرجل الأولِ للدولةِ حالياً، اضطر الشابُ للكذبِ على "نضال" وعلى الحزبِ بأكملهِ حتى يذهب ويخفف من ألمِ خطيبتهِ، في طريقهِ نحوها كان هاتفهُ لا يتوقفُ عن الاهتزازِ، لو كان يعلمُ أن تصدر المشهدِ سيجلبُ له كل هذا لاستقال على الفورِ من الحزبِ وجلس بجوارِ خطيبتهِ يقرأُ لها بعضاً من الشعرِ القديمِ، لم يكن يعلم أنهُ الآن يمثلُ الطريق التي يودُ الكثيرون العبور من خلالهِ وتحقيقِ أحلامِهم وطموحاتِهم.

وصل "يوسف" أخيراً إلى بيتِ "هند" والتقط أنفاسهُ أولاً قبل أن يطرقَ الباب، لم يتوقع من في الداخلِ بتاتاً أن يكون الطارق هو "يوسف" واعتقدوا أنهُ قد يكون واحدٌ من الجيرانِ، ذهب الابنُ الصغير كي يفتح البابَ وإذ بهِ يبتسمُ وينادي بصوتٍ عالٍ "يوسف" واحتضنهُ ورحبَ بهِ، صوتُ الابنِ كان كفيلاً بتحريك المياهِ

الراكدةِ في المنزلِ وابتسمتُ الأمُ وذهبت مسرعة تستقبلهُ، الفتاة الصغيرة ابتسمت وكانت تودُ الخروجَ الآن للقائهِ ولكن كبرياء الفتياتِ جعلها حبيسةَ الغُرفةِ في انتظارِ دخولِ والدتِها عليها ومن ثمَ تفكرُ في الخروجِ أو البقاءِ.

تأخرت والدتُها في الدخولِ إليها وشعرت بأنها قد جلست تتحدثُ مع خطيبِها وتناستها، أخذت تتحركُ في جنباتِ الغرفةِ يميناً ويساراً تفكرُ في طريقةٍ جيدةٍ للخروجِ عليهِ، جهزت نفسها أخيراً وخرجت ووجهُها لا يعرفُ طريقاً للابتسامةِ قط، " مرحباً أيها العضو الكادح ومباركٌ عليك الفوز " بطريقةٍ يشوبُها السخرية والاستهزاء تحدثت "هند" في البدايةِ، ضحكَ كثيراً لكلامِها هذا وكان ظاهراً بأنها تسخرُ منهُ، " أعلمُ جيداً أنكِ تسخرين مني ولكن على أيةِ حال فباركَ الله عليكِ والآن فلتنضمي معنا في تلك الجلسةِ بدلاً من الوقوفِ "

وافقت على طلبهِ وانضمت إلى تلك الجلسةِ الوديةِ، لكنها لم تتوقف عن السخريةِ منهُ وبادرت بسؤالهِ " هل يعلمُ أعضاء الحزبِ الموقرين بأنكَ جالسٌ هنا ؟ أخشى عليكَ من كلماتِهم وعتابِهم " ابتسم من جديد وقال " لا ليس لديهم معلومة واضحة أين اختفيت وإن بادروا بالسؤال عني فقد أخبرت "نضال" بأن والدتي متعبة وذهبت للاطمئنان عليها " توقع "يوسف" بعد إجابتهِ تلك بأن تخف حدة السخريةِ منهُ قليلاً وتتغير اللهجة إلى لهجةِ تعاطفٍ ولكنهُ كان متفائلاً فلم تتوقف عن النيلِ منهُ معلقة " يا للهولِ العضو المحترم يكذبُ عليهم من أجل عيونِ فتاةٍ مراهقة " تلك الكلمات هذه المرة أزعجت والدتها التي طلبت منها الحديث بصورة أفضل من تلك وإلا فعليها الدخول إلى غرفتِها.

رغم أنها كانت متلهفة لرؤيتهِ وتحمست عندما شاهدتُه على شاشةِ التلفازِ إلا أنها لن تدع تلك الجلسة تمرُ مرور الكرامِ، لن يستمر بالكذبِ عليها ببعضٍ من كلامهِ المعسولِ هذا، "يوسف" اعتذر عما حدث الليلة الماضية واعتذر عن كُلِ ما سبقَ وتحججَ بالانتخاباتِ وأنهُ في تلك الفترةِ لم يقدر حتى على التواصلِ مع عائلتهِ حتى يطمئن عليهم، جلس يعدُ الفتاة الصغيرة بأنهُ لن ينشغل عنها مجدداً ومهما تراكمت الاجتماعات سيحاولُ الوصول إليها والحديث معها مهما كلف الأمر.

هدأت "هند" قليلاً وتغيرت ملامحُها قليلاً ورغم ذلك لم تبادلهُ الحديثَ كثيراً، لم ينزعج من ذلك طالما تغيرت اللهجة عن البدايةِ، حاول إثبات صحة كلامهِ ودعاها على العشاءِ سوياً في مكانٍ هادئ وجميل، كبرياء الفتيات أبى الموافقة على الفورِ وبدأ يفتعلُ التفكير من دقيقة إلى دقيقتين على أقلِ تقدير، في النهاية وافقت على دعوتِه تلك وهذا ما أثلج صدر والدتِها التي كانت تخشى استمرارِ الجفاءِ بينهم، رحل "يوسف" إلى بيتهِ سريعاً للاطمئنانِ على عائلتِه ريثما تكونُ "هند" قد استعدت تماماً للخروجِ بصُحبتهِ، العائلة كانت في انتظارِه على أحرِ من الجمرِ وبمجردِ علمِهم أن ابنهم يقفُ على البابِ منتظراً حتى بدأت الاحتفالات.

أثناء الاحتفالاتِ في منزلِ "يوسف" كان صوتُ التلفازِ يذيعُ نبأ التشكيل الوزاري الجديد على الهواءِ مباشرة، حتى تلك اللحظةِ لم يكن يعلمُ هذا الشاب بشأن ذلك التشكيل الوزاري، حاولت "نضال" الاتصال بهِ لإخبارهِ ولكن دون جدوى فالصخبُ كان على أشدهِ لدرجةٍ تجعلهُ ينسى هاتفهُ من الأساسِ، بعد انتهاء ذلك الضجيج بدأ

يجهزُ نفسهُ للخروجِ مع خطيبتهِ وحينها تذكر أنهُ يحملُ هاتفاً وقبل أن يتصل عليها وجد "نضال" تحاولُ الوصولَ لهُ ولكنهُ تجاهلها مؤقتاً حتى لا يجن جُنون الفتاة الصغيرة.

بعد أن أنهى "يوسف" حديثهُ مع خطيبتهِ واتفقا على التحركِ في ساعةٍ محددةٍ عاود الاتصال بزميلتهِ في الحزبِ، اعتذر منها على عدمِ الردِ في التوِ واللحظةِ لانشغالهِ مع عائلتهِ وتفهمت "نضال" موقفهُ تماماً وأنها فقط كانت تريدُ الاطمئنان على والدتهِ وتخبرهُ بالحكومةِ الجديدةِ وبحديثِ الرئيسِ حولها، لم يستوعب "يوسف" بعض الكلماتِ لأنهُ كان مشغولاً بتجهيزِ نفسهِ واعتذر منها مجدداً وانهى الاتصال على أن يحدثُها في وقتٍ لاحقٍ لم يعرفهُ بعد وحاول أن يتناسى أمور السياسةِ ولو لبضعِ ساعاتٍ فقط.

في نفسِ التوقيتِ كنتُ أجهزُ نفسي للذهابِ إلى مقرِ المجموعةِ، كنتُ أعتقدُ بأن سبب الاجتماعِ متعلقاً بالحكومةِ الجديدةِ وأن السيد "نزار" يعترضُ عليها، هذا الاعتقاد لم يكن صحيحاً على الإطلاقِ وظهر هذا جلياً فور حديثهِ بأن الرئيس المُنتخب يريدُ عقد جلسة مع أعضاءِ مجموعتِنا، بالنسبةِ لنا فهذا كان أمراً متوقعاً وهذا ما جعل السيد "نزار" يتأخرُ قليلاً في المباركةِ للرئيسِ وأجلها حين يتم عقد تلك الجلسة، لم تكن لدى المجموعة أدنى فكرة عن سببِ هذا اللقاءِ المرتقبِ ولكن الأغلبية توقعت بأنه قد يكون لقاء روتيني من الطرازِ الأولِ يتحدثُ فيه الرئيسِ عن أهمية دور المجموعةِ للنهوضِ بالبلادِ من جديد.

حان وقتُ العشاءِ بين الزوجينِ المُستقبليين وكان كلاً منهم يظهرُ بصورةٍ تشبهُ القمرَ ليلةِ كمالهِ، اعتذر منها مجدداً عما بدرَ منهُ وطلب منها نسيان كل تلك الأشياءِ السيئةِ، ابتسمت وقالت بأنها قد تناست جزءاً كبيراً منها فور رؤيتهِ بجوارِ الرئيسِ في المؤتمر ولكن الجزء الآخر بقى في ذهنِها كي تستطيعُ مهاجمتهُ عند لقائهِ، ضحكَ كثيراً عندما سمع تلك الجُمل تخرجُ من فمِها الصغيرِ هذا وقال " أنا واقعٌ في حُبِ طفلة " علامات الخجلِ ظهرت عليها بعد تلك الجملةِ وابتسمت تلقائياً وأحست بأن روحها قد عادت إليها من جديد.

في الناحيةِ الأخرى كانت "نضال" في طريقِها للمنزلِ عقب أيامٍ ذاقت فيها كُل أنواعِ التعبِ والمشقةِ ولكنها كانت فرحةَ بأن هذا الجهد لم يذهب أدراج الرياحِ، عندما دخلت غُرفتها استلقت على فراشِها من شدةِ التعبِ وحاولت الاستمتاع ولو بقليلٍ من الراحةِ قبل أن تعاود الكرةَ والعمل من جديد، لكنها على ما يبدو تناست أن تسأل نفسها إلى متى سيستمرُ هذا الحال ؟ إلى متى ستظلُ تفيقُ من نومِها ومن ثمَ تذهبُ إلى الحزبِ لممارسةِ جدولِ أعمالِها ؟ هل ستسمحُ لهُ بأن يسرق عمرها أمام أعينِها ؟ ها هو الحزبُ قد تمكن من تحقيقَ ذاتهِ وهدفهِ وهل هي نظرت إلى هدفِها وذاتِها ؟

لم يكن من الطبيعي أن تكمل "نضال" حياتها على هذه الوتيرةِ المُملةِ، أخيراً فقد انتبهت إلى تلك الأسئلةِ وأيقنت أنها الوحيدة الخاسرة تقريباً من وسط بقية الأعضاءِ، فها هو "يوسف" متبقى شهرٌ على زواجهِ وها هم البقية ما بين متزوجٍ بالفعلِ وما بين من تزوجَ وبحوزتهِ ابناء، بالطبعِ هي لا تنظرُ إلى الزواجِ بأنه الغاية الكبرى التي تحلمُ بالوصولِ لها ولكنها تنظرهُ له بعين الاهتمامِ لا أكثرَ ولا أقل، الغاية الكبرى بالنسبةِ لها هو الاستمتاع بكل كبيرة وصغيرة في الحياةِ ولا تسمحُ لأحدٍ مهما كان من تعكير صفوها، بجانبِ عملِها في الحزبِ عادت تمارسُ الهواية التي لطالما أحبتها وهي الرسم.

في تلك الفترةِ قامت بالهروبِ قليلاً من عالم الاجتماعاتِ وعالم الكلماتِ الصعبةِ مثل "الديموقراطية" و "العلمانية" وكل ما لهُ علاقة بالسياسةِ من قريب أو من بعيد وفضلت الذهاب إلى عالمِها البسيط الذي يحملُ كلماتٍ سلسة وبسيطة خالية من التعقيد مثل "الابتسامة" و "السعادة" كانت تؤمنُ بأن ذلك الهروب سيريحُ ذهنها الذي أوشك على الانهيارِ من تتابعِ الجلساتِ ومن غرفِ العملياتِ المتكررةِ، بدأت تتحججُ ببعضِ الظروفِ وقلت نسبة حضورها مقارنة بالأيام الأولى للحزبِ ومقارنة بالفترة التي عقبت عودتها للبلادِ.

المفاجأة الكبيرة التي كانت بانتظارِها هي عودة والدُها للديارِ بعد غيابٍ طويلٍ عن موطنِه، لم تتخيل أنهُ قد يعود في يومٍ من الأيامِ ولو على سبيلِ العطلةِ القصيرة حتى لدرجةِ أنها لم تصدق نفسها عندما فتحت لهُ بالباب ورأتهُ خلفهُ، أول ما فعلتهُ هو إلقاء تلك الفرشةِ من يدها تلقائياً واحتضانهِ حضناً كتلك التي تظهرُ في الأفلامِ الأجنبيةِ، وجدت نفسها تجهشُ بالبكاءِ ولكنهُ كان بكاءً بدافعِ الفرحةِ والسعادةِ وليس بدافعِ الحُزنِ، أما والدُها فكان قوياً واكتفى ببعضِ الدموعِ قبل عودتهِ متماسكاً مرة أخرى.

" أجد أنكِ غارقةَ هُنا بجوارِ لوحاتِك وتتركين أمور البلادِ هكذا دون إدارة وعناية " هكذا بدأ والدُها الحديثَ معها بنوعٍ من المزاحِ قبل أن تجيب " لطالما أعتدت على تضخيمِ الأمورِ أيها العجوز " وانضم بجوارِها يتابعُ تلك اللوحاتِ التي لم تنتهِ بعد، أثناء ما كانت ترسمُ كان يلقى عليها الأسئلة ولم يتوقف عن الكلامِ ونظرت لهُ وهي صامتة قبل أن تحدثهُ قائلة " أريد التركيز قليلاً يا رجل وبعدها نتحدث عن كل الأشياءِ التي تودُ الحديث عنها وبعدها سأذهب للسوقِ وأشتري بعضاً من الخضرواتِ كي أطهو لك الطعام فأنا أعلمُ أنكَ تفتقدُ لمساتي المميزة فيه "

لاحظ والدُها أنها لا تذهب للحزبِ أثناء وجودِه معها وهمَ بسؤالِها قائلاً " لماذا لا تذهبين للحزب ؟ هل حدث شئُ ما ؟ " لم ترد الإجابة عن تلك الأسئلةِ التي توقعت مسبقاً أن تُطرحَ عليها ولكن لا مفر، " أحاولُ الاسترخاء قليلاً أبي وفي الحقيقةِ مجيئُكَ كان في وقتهِ كي أجلسَ معكَ طوال فترة وجودك هُنا " ابتسم والدها وقال " تريدين استغلال وجودي أيتُها الفنانة كي تقولي لهم إنكِ منشغلة معي، حيلة ذكية أيتُها الصغيرة " ضحكت كثيراً عقب كلماتِه تلك لأنهُ قالها كنوعٍ من المزاحِ، بالفعل اعتذرت "نضال" عن الغيابِ المتكررِ وتفهم قادةُ الحزبِ موقفها تماماً.

ذهبت بمحضِ إرادتِها تجاه والدِها وصمتت قليلاً وبعدها انفجرت في الحديثِ " في الحقيقة أبي فقد سئمتُ ذلك الروتين المتكرر، لم أبخل على الحزبِ قط ولكني أريدُ الاعتناء بنفسي أكثرَ من ذلك فقط حققَ الحزبُ مبتغاهُ وأريدُ تحقيق هدفي ولي الحقُ في ذلك " لم يتحدث الوالد في التوِ واللحظةِ ونظر لها كثيراً لدرجةٍ جعلتها تخشى ردة فعلهِ ولكنهُ طمأنها بابتسامةِ جميلة ثم تحدث " بالطبعِ يا ابنتي لن تركضي كل يومٍ خلفَ العربةِ التي تحملُكِ باتجاهِ مقرِ الحزبِ، لن تجلسي طيلة حياتُكِ تستمعين لتلك المصطلحاتِ الغريبةِ تلك، الانسان أحياناً يحتاجُ لبعض الراحةِ وبعدها يعاود العمل من جديد بشكل طبيعي "

بعد سماعِها تلك الكلمات انطلقت مسرعة نحو لوحاتِها وعالمِها البسيط الذي يخلو تماماً من التعقيداتِ والمشاكلِ، عودتها للرسمِ أشبه بعودةِ فتاة صغيرة فقدت أمها في منتصفِ الطريقِ ووجدتها بعد عناءٍ ومشقة، والدُها كان سعيداً بدورهِ لسعادةِ ابنتهِ ولكنهُ كان يريد الاطمئنان أكثر من هذا ولن يتحقق ذلك سوى عند

زواجها، لم يرد أن يعكر صفوها الذي تحسنَ بصعوبةٍ بالغة وفضل أن يراقبُها من بعيد وهي تترنحُ يميناً ويساراً بفرشاتِها الصغيرة تلك وتُتمتمُ بأجملِ الأغاني والمنشودات.

لم تكن "نضال" الوحيدة الغائبة عن طاولة الاجتماعاتِ وعن الحضورِ إلى مقرِ الحزبِ، "يوسف" هو الآخر قلت نسبة حضوره مقارنة بالفترةِ السابقةِ، من غير المعتادِ غيابهُ عن الحضورِ ولكنهُ اعتذر في الهاتفِ بسببِ ترتيبات الزواجِ، لم يتبق سوى أيامٍ معدوداتٍ ويصبحُ زوجاً بصفةٍ رسميةٍ ويجلسُ في منزلهِ الجديدِ مع زوجتهِ التي قد تعيشُ معهُ عمراً آخر بجوارِ العمرِ الذي عاشهُ مع عائلتِه، كان منشغلاً بدرجة كبيرة لدرجةٍ جعلتهُ يتذوق طعم النوم على فتراتٍ متباعدةٍ وجعلتهُ يتناسى كُلَ ما يدورُ على الساحةِ السياسيةِ.

حاول الرئيسُ تأجيل الاجتماعِ المُرتقبِ مع مجموعتِنا لحينِ عودةِ "يوسف" و "نضال" ، كان يريدُ أن يكون الحزب متكمل الصفوفِ أولاً لتكوين صورة جيدة في الظهورِ الأولِ للحزبِ في مواجهةِ المجموعةِ وثانياً حتى يشهد جميع الأعضاء ذلك الاجتماع ومحاولة إيصال وجهاتِ نظرِهم كاملة، في البدايةِ نجح في تأجيلهِ أكثر من مرةَ ولكنهُ خشىَ من غضبِ السيدِ "نزار" وقرر الاجتماع أخيراً في مقرِ المجموعةِ بعد عديد التأجيلاتِ بدون اثنين من أهمِ أعضاءِ الحزبِ على الإطلاقِ.

بدأ السيد "نزار" كلمتهُ مهنئاً الرئيس الجديد بفوزهِ بالانتخاباتِ وأنهُ كان ينتظرُ ذلك الاجتماع فيما بينهم حتى يعطي المباركة بشكلٍ مباشرٍ عوضاً عن استخدامِ الهواتفِ، أكمل كلماتهِ قائلاً " بصفتي الرجل الأول للمجموعة فأريدُ إخبارك بأننا على استعدادٍ تامٍ للتعاملِ مع نظامِكم وأننا لا نملكُ أية أزمة تذكر في التعامل معكم أو في التعامل مع غيركم وأن الأهمَ من كُلَ هذا هو مصلحة البلادِ وأننا سنقفُ خلفكم بصفتكم النظام الذي استطاع الفوز في الانتخابات الرئاسيةِ "

جاء دور الرئيس الجديد في الحديثِ وفي البدايةِ شكرَ السيد "نزار" لقبولهِ دعوة هذا الاجتماعِ وعبر عن سعادتهِ لتواجدهِ في مقرِ المجموعةِ وشددَ على أنها لن تكون الزيارة الأخيرة لهُ، بعدها اعتذر من الحضورِ على غياب "يوسف" و "نضال" ووعد بأن يكونا حاضرين في مناسبةٍ أخرى وتفهم الرجل الأول للمجموعة موقفهم ولم ينزعج، أكمل الرئيسُ خطبتهُ وقال " أعلمُ تمام العلمِ أن المجموعة ستقفُ داعماً لنا في المستقبلِ وها أنا أشددُ على الدور الهام الذي ستتمتعُ به المجموعةِ معنا وأنهُ لن يوجد إي إقصاء لهم سواء في البداية أو حتى فيما بعد "

لكن المفاجأة الكبرى لم تأت بعد والكل توقع عقبِ انتهاء كلماتهِ أن يرحلَ ولكنهُ عبر عن نيتهِ في عقدِ مؤتمرٍ صحفي كبير يكرمُ من خلالهِ السيد "نزار" لدوره الفعال في خدمةِ البلادِ طوال فترة عملهِ، ابتسم عقب معرفتهُ بتلك النيةِ وعقبَ قائلاً " يا للهول أخيراً شعرَ أحدُهم بأني أستحقُ التكريم " ضحكَ الجميعُ فور سماعِهم هذا التعليقِ الساخرِ منهُ وأحسوا أنها بداية مثالية بين النظامِ الجديدِ والمجموعةِ، تنفستُ الصعداء عقب هذا الاجتماعِ وكنتُ في حالٍ جيدٍ لم أشهدهُ منذُ فترة كبيرة.

في البدايةِ كنتُ قلقاً من ردةِ فعلِ النظامِ الجديدِ تجاه المجموعةِ، لم استبعد احتمالية التضحية بنا كي يتم إرضاء الشعبِ، لكن الطريقة التي تحدث بها الرئيس مع السيد "نزار" جعلتني أعيدُ التفكير مرتين في مكانة هذه

المجموعةِ وأنها تمثلُ رقماً صعباً لن يتم التخلص منهُ بسهولة حتى ولو كان داعماً للنظامِ السابقِ، كان الرئيسُ على علمٍ بغضبِ الشعب تجاهنا كوننا كنا خلف الرئيسِ بخلافِ الفترة الأخيرة لهُ ولكن في نفسِ الوقت لن يتجرأ على اتخاذ أية خطوةٍ لأننا أظهرنا حسن النيةِ.

لم يعلم بعد "يوسف" و "نضال" بشأن ذلك المؤتمرِ الضخم الذي ينوي الرئيس عقدهُ كي يكرم الرجل الأول لمجموعتِنا، بعضُ الأعضاء عبروا عن غضبهم مباشرةٍ أمام الرئيسِ وأن تلك الخطوة غير موفقة وقد لا تحوز على إعجابِ "يوسف" و "نضال" ابتسم الرئيسُ وعقبَ قائلاً " هم لا يرون أية مشكلة في التعاملِ مع المجموعةِ وبالنسبةِ للمؤتمر فأستحدثُ معهم بشأنهِ " توقع الأعضاءُ فشل رئيسِهم في إقناعِ العضوين بهذهِ الخطوةِ الغير محسوبةِ وتمنوا ولو أنهم أقنعوه في التراجعِ عن تنفيذِها.

انهالت الاتصالات على العضوين في محاولةٍ من زملائِهم لإقناعهم على حثِ الرئيسِ بالتخلي عن تلك الفكرةِ ولكن دون جدوى تذكر فلا أحد منهم قد أمسكَ بهاتفِه وردَ على تلك الاتصالاتِ، ما كان من الأعضاء سوى بإرسال واحدٍ إلى كل عضو منهم للحديثُ معهُ بهذا الصدد، بينما كان "يوسف" يحاولُ أخذ قسطٍ من الراحةِ في غرفتهِ إذ كان الباب يُطرقُ بواسطةِ أحد الغرباءِ، كانت الأمُ على معرفةٍ بالغالبيةِ العظمى من أصدقاءِ ولدِها ولكن هذا الشكل جديداً عليها، خرجَ بنفسهِ كي يرى من الطارق وها هو زميلهُ في الحزبِ يقفُ منتظراً خروجه، رحب بهِ وأجلسهُ في الداخلِ وهُنا سيبدأ الحديث لمعرفةِ سببِ الزيارةِ المفاجأةِ.

" لستُ هنا كي أجلسَ طويلاً معكَ أنا هُنا لأقول لكَ كلمتين وبعدها أخرجُ ثانية " ازداد قلقُ "يوسف" أكثر وشعر بأن ثمة كارثة تلوحُ في الأفق وقال " ما بك صديقي ؟ لقد قذفت الرعب بداخلي " بدأ زميلهُ يلتقطُ أنفاسهُ ليعاود الحديث مجدداً " سيادة الرئيس ينوي تكريم المدعو "نزار" في مؤتمر ضخم يحددُ فيما بعد وكنا نريدُ منكَ إقناعهُ بالتراجعِ عن تلك الفكرةِ " هدأ عقب سماعِه حديث العضو وتنفس الصعداء ثمَ قال " كنتُ أعتقدُ أن الأمر أكبر من هذا بكثير لا تقلق صديقي سوف أتولى الأمر عندما أعودُ إلى مزاولةِ العملِ "

أغلق الباب بابتسامة تجاه زميله وبعدها تواردت الأفكار سريعاً إلى عقله عقب تلك الخطوة المفاجئة من الرئيس التي قلبت كل الموازين، لم يفهم في الحقيقة السر ورائها ولكنه لم يرد التجني عليه ولربما يكرمه حتى يكسب ثقته ومن ثمَ يُبعده عن المسرح السياسي، لكن يا ترى هل سيفهم المارة الهاربين من قسوة البرد تلك الحسبة المعقدة ؟ خطوة كهذه في أولى أيام النظام الجديد قد تزرع الشكوك في أولئك الحالمين بمستقبل مشرق لتلك البلد التي أنهكتها كوابيس منتصف الليل.

بعيداً عن عالم الطلاسم والابتسامات الصفراء والمصطلحات الصعبة كانت "نضال" تعيش داخل عالم الفرشاة والألوان الداكنة والألوان التي لا يعرف اسمها سوى بعض الفتيات الخبيرات بشئونها، جاء دور عضو آخر ليحدث زميلته في الحزب لدقائق، استغرب والدها حضور ذلك الشاب إلى منزله وعند سؤاله قال بأنه عضو في حزب "نضال" ابتسم الأب فقد جاءت له فرصة على طبق من ذهب لمعرفة ما يدور هناك وهل له علاقة بانقطاع ابنته عن الحضور وعن العزوف طوال تلك الفترة.

لم يكثر في الحديث بطلب من زميلته وقال لها مخلص الموضوع في عجالة وطلب منها أولاً الحضور في تلك الفترة وثانياً محادثة الرئيس وإقناعه بالتراجع عن فكرة المؤتمر تلك والاكتفاء بتكريم السيد "نزار" بعيداً عن أعين الصحفيين والكاميرات على أقل تقدير، أنهى رسالته هو الآخر ورحل وأغلق الباب خلفه لكنه فتح أبواب عالم الطلاسم من جديد، لو كانت تعلم نيته في القدوم إلى هنا لطلبت من والدها إخباره بأنها غير موجودة، ألقت الفرشاة بعيداً وكادت أن تلقي باللوحة لولا تدخل الأب في اللحظات الأخيرة.

تركها وحيدة في غرفتها بعد تأكده بأنها لن تعبث مجدداً باللوحات، لقد كلفها الهروب من براثن هذا العالم كثيراً وأتى ذلك الأحمق في بضع دقائق وسحب البساط من تحت عالم الألوان المبهجة، وما زاد الطين بلة بأنه أقد أقحمها وكارثة في الطريق، كان من الأحرى به إقحامها وسط أخبار جيدة لا وسط خبر قد يزلزل أنحاء البلاد، لم ترد التفكير أكثر من هذا وتوقفت حتى عن استكمال الرسم وألقت بنفسها على فراشها عساها نسيان تلك الزيارة ونسيان تلك الكلمات المعقدة.

في اليوم التالي لتلك الزيارة ذهب "يوسف" إلى مكتب الرئيس للحديث معه بشأن ذلك الملف ومحاولة إقناعه بالاكتفاء بتكريم السيد "نزار" بعيداً عن الكاميرات، يعلم جيداً أنهُ حتى لو كُرم خلفها فسيكون الشارع في حالة من الغليان ولكن بالطبع أفضل من الخروج أمام الصحفيين وجموع الشعب والابتسامة تعلو الوجوه لذلك فلم يكن يحبذ فكرة المؤتمر، لم يأخذ وقتاً طويلاً حتى دخل على الرجل الأول للبلاد عساهُ يطفئ تلك النيران قبل اشتعالها، عساهُ يخمد ألسنة اللهب قبل تصاعدها.

بينما كان "يوسف" ينتظر الإذن بالدخول كانت "نضال" لتوها قد استيقظت من نومها عقب تلك الليلة العصيبة، آخر ما كانت تتذكرهُ هو زيارة ذلك الأحمق ليملي عليها بعضاً من التفاصيل المملة بشأن رئيسه وحزبه، كان والدها يراقبُها من بعيد وكان ينتظرُ اللحظة المناسبة للدخول عليها والحديث معها بشأن ما حدث بالأمس وهل ستذهب لمحاولة إقناع الرئيس بتغيير ذلك القرار ؟ أم ستكتفي بالمتابعة وتترك تلك القضية بعيدة عن حساباتها وتجلسُ بجوار لوحاتها وبجوار تلك الألوان المبهجة ؟

"مرحباً سيادة الرئيس كنت قد علمت بتفاصيل الاجتماع وبشأن ما تناولته وأريد طرح وجهة نظري كاملة لو لم تكن تمانع بالطبع" تلك الطريقة الهادئة والمهذبة والمليئة بالابتسامات كانت الحل الأول لفتح طرق للحوار مع الرئيس فالطبع لن يطرق الباب وينفعل عليه ويبدأ في الصياح، بدوره بادله الابتسامة وقال "بالطبع لن أمانع يوسف فأنت تعلم جيداً أني أحبُ الاستماع إلى كل الآراء خصوصاً لو كان من شاب ذو بصيرة جيدة مثلك" ذلك الرد قذف الطمأنينة في قلب "يوسف" وجعل الكلمات تتدفق بسلاسة بعد أن حاصرهُ التلعثم.

"لن أطيل عليك كثيراً سيدي فأنا هُنا من أجل ملف السيد "نزار" وقد علمتُ بشأن ذلك المؤتمر وكنت أفضل فكرة التكريم بعيداً عن عيون الصحافة وأسئلة الصحفيين التي لن تتوقف وحتى لا تهتز ثقة الشعب من البداية" أنهى حديثهُ وابتسم الرئيسُ من جديد قبل أن يتحدث قائلاً "كل الردود مجهزة تماماً وأعلم كيف

سأتعامل مع هؤلاء محبي الإثارة والحديث أما بالنسبة للشعب فلا أعتقدُ أن خطوة كهذه قد تثيرُ غضبهم كما تعتقد، أريدُ كسب هذا الرجل من البداية ولا أريد الدخول في صراعات لن تسمن ولن تغنى من جوع"

ابتسم "يوسف" ثانية لكن هذه المرة كانت روتينية ولم تكن من قلبه فقد كانت ابتسامة بنكهة الاجتماعات التي لا تثمر عن نتيجة فعالة، يبدو أن الرجل يعرف ماذا يريد ولا نية في التراجع عن هذا المؤتمر، خارج المكتب كان البعضُ يتصبب عرقاً وينتظر حركة الباب ليحمل معهُ الأخبار السارة ولكن ذلك الباب وحركته لم يحمل سوى الأخبار السيئة التي قد تشعل البلاد من جديد بعد معاناة كبيرة في إطفائها طيلة الفترة الماضية، على ما يبدو فأن العرق لن يتوقف وأن القلق سوف تزداد حدته طوال الفترة القادمة.

في تلك الأثناء كان باباً آخر قد فُتح ولكنهُ باباً يحملُ ملفاً أكثر هدوءً وصخباً عن سابقهِ، "نضال" قد سمحت لأبيها بالدخول إلى غرفتها والحديث معها بشأن غيابها المتكرر عن اجتماعات الحزب وبشأن تلك القضية، همَ بالحديث قائلاً "أجدك جالسة وسط لوحاتك طيلة الوقت ولم تهتم لأمر ذلك الرجل بالأمس ولم تفكر حتى في معاودة الاتصال به" لم تجب عليه في التو واللحظة وأخذت كامل وقتها قبل إجابته "سأعود إلى مقر الاجتماعات في اللحظة المناسبة أما عن تلك القضية فلا تقلق فسيتكلف بها واحد من الأعضاء ويُغلق ملفها سريعاً"

ذلك العضو الذي كانت تقصده هو "يوسف" فهي تعلمُ جلياً بأنهُ يملك تأثير كبير على غالبية أعضاء الحزب وكلماته تلك قادرة على قلب المعطيات تماماً لصالحه ولكنها لم تكن تعلم ما حدث داخل مكتب الرئيس وأن ذلك العبقري فشل هذه المرة في إقناع حاكم البلاد بفكرته، ها هو صوت الباب يعلو من جديد وهذه المرة لم يكن أحد الحمقى الذين يريدون قطعها عن عالمها ولكنه كان "يوسف" الذي يود التحدث معها بشأن تلك المشكلة التي فشل في حلها وبشأن تلك الكارثة التي تطرقُ الأبواب.

لم يكن يعرفُ والدها من الطارق قبل أن يجيبه بأنه زميل "نضال" في الحزب وفتح لهُ الباب وتوقع بأنه نفس الشخص الذي جاء بالأمس ولكنه وجد شخصاً آخر، "ضيف جديد من الحزب نضال" الأربع كلمات تلك كانوا كافيين لجعلها تُلقي بالفرشاة على الأرض وتهزُ اللوحة في حالة من الغضب الشديد قبل أن ترد "ومن يكون ذلك الأحمق هذه المرة" سمع "يوسف" سؤالها هذا ودخل في نوبة من الضحك وكان والدها محرجاً للغاية منهُ ولكنهُ اندهش فور رؤيته يضحكُ بتلك الطريقة.

خرجت "نضال" سريعاً من غرفتها وكانت عازمة على خلق مشكلة كبيرة مع ذلك الأحمق الذي تجرأ على طرق بابها من أجل الحديث عن بعض القضايا السخيفة التي لم تعد تهتم لها مطلقاً، لكنها هدئت مرة واحدة وكأن تياراً كهربياً قد أصاب جسدها وجعلها غير قادرة على الحراك، والدها أغلق عينهُ لتوقعه ردة فعل

متهورة ولكنهُ وجدها صامتة قبل أن يفتح عينه من جديد ليجدها تقول وهي مبتسمة "يوسف تفضل بالدخول" اندهش والدها قليلاً قبل أن يقول "ها قد علمت سبب دخولك في نوبة الضحك تلك"

لم تنجح في مقابلته بذلك الفتور الذي اعتادت عليه طوال الفترة الماضية، لطالما كان يحملُ مكاناً خاصاً في قلبها لم ولن يتغير مع الوقت، نظرة الإعجاب لم تختف على الإطلاق رغم كل ما حدث سابقاً ورغم ما سيحدثُ في المستقبل عندما يتزوج رسمياً، مرحباً بكم في العالم الثاني لتلك الفتاة العنيدة، عالم أكثر جمالاً من عالم الألوان واللوحات، عالم أقل تعقيداً من عالم المصطلحات والملفات ولكنهُ كان أكثرهم ألماً ومعاناة ولكنهُ من نوعية الألم المحبب لديها ومن نوعية المعاناة المفضلة لها.

بادر "يوسف" بالحديث أولاً وسألها عن أحوالها وعن سبب انقطاعها طيلة الفترة الماضية عن الأجواء السياسية وعن صخب الاجتماعات، لم يرد الدخول في صلب الموضوع مباشرة فهو يعلم بأنها لن تحب تلك الطريقة وقد يصيبها الغضب من جديد، وجدت قلبها يُفتح من تلقاء نفسهِ ليبوح عن كل تلك الأشياء التي لم تبح بها من قبل، وجدت لسانها يتحدث عن كل تلك المعاناة التي أحست بها طوال الأيام الماضية، تحدثت وكأنها نهراً قد جرت مائه عقب تحرك تلك الصخرة التي قيدت حركة المياه.

أخبرته بشأن ذلك العضو الذي أتى بالأمس ليتحدث معها بشأن الرئيس وسألت "يوسف" عنه فهي لم تكن تعرفه من قبل وأحست بأنه وجه جديد عليها، دخل في نوبة من الضحك من جديد وقال "هناك أعضاء جدد قد توافدوا على الحزب عقب تلك الانتخابات الأخيرة" هي الأخرى قد ابتسمت وقالت "يبدو بأن قد أطلتُ الغياب عن الحزب ولكن حدثني ماذا فعلت معه ؟ أخبرني بأنك قد نجحت في مهمتك" انقطعت تلك النوبة فجأة وغابت الابتسامة قبل أن يخبرها في جملة مكونة من كلمتين "لقد فشلت"

مرة أخرى أصيبت بالإحباط قبل أن يعاود "يوسف" حديثهُ قائلاً "حاولت إقناعه بفكرة غضب الشعب والاكتفاء بالتكريم بعيداً عن الصحافة والإعلام ولكنهُ قال بأن الردود جاهزة وأن الشعب لن يغضب كما أتصور" كانت تنتظر الأخبار السارة منهُ ولكنهُ قد زاد من مقدار الألم والحزن، حتى وإن كانت غير مكترثة بشأن الأحداث السياسية ولكن خبراً كهذا كفيلٌ بقذف القلق والحزن إلى قلبك في آن واحد، كسرت صمتها قائلة "إذا وما العمل الآن ؟ هل سنكتفي بالمشاهدة ؟ هل سنضعُ أنفسنا أمام المدفع ؟

كانت تعلمُ بأن خطوة كهذه ستضعهم في موقف لا يحسدون عليه أمام الشعب، لا توجد مبررات مناسبة للخروج من هذا المأزق وهذه الخطوة الأولى على طريق فقدان الثقة ما بين الحزب وما بين الملايين الذين ينتظرون الخير بواسطة هؤلاء الأعضاء وذلك الرئيس، لم ينجح "يوسف" في إيجاد إجابات مقنعة لأسئلتها واكتفى بالحديث قائلاً "يبدو بأن كل الطرق قد أغلقت أمامنا وها هو المؤتمر يقتربُ شيئاً فشيئاً ويجب علينا التواجد بجانبه خلال ذلك التكريم"

أدارت بوجهها تجاه "يوسف" ونظرت له بنوع من السخرية قبل أن تجيبه " نتواجد مع من ؟ نتواجد بجانبه في ذلك المؤتمر السخيف لنسمع تلك كلمات المديح في ذلك الرجل الذي كان يعمل مع النظام السابق ؟ نجلس بجانبه لكي نستمع إلى كلماته ونبتسم وتدوى القاعة بالتصفيق جراء تلك الكلمات الرنانة القوية ؟ أنا هُنا جالسة بعيدة عن الحزب وحينما أعود من جديد أعود من الباب الضيق ؟ آسفة فلن أكون متواجدة في هذا الحدث مهما كان مقدار الضغط ومهما كلف الأمر"

أثناء ما كانت تلقى خطابها هذا كان ممسكاً برأسهِ لا يعرف ماذا يقول لها فهو لا يملك عصا سحرية تمكنهُ من منع هذا المؤتمر، كانوا متفقين في فكرة عدم التكريم على الهواء ولكنهم مختلفين في فكرة الحضور إذا ما كان المؤتمر أمراً واقعياً ولن يتغير، "يوسف" يرى بأنه حتى لو اختلف مع الرئيس فيجب عليه التواجد بجانبه وبجانب بقية الأعضاء أما "نضال" فهي من الأساس لم تكن تريد العودة في تلك الفترة وذلك الخبر قد يجعلها تطيل الغياب أكثر عن مقر الحزب وعن طاولة الاجتماعات.

انتهى لقاء الشابين دون اتفاق يُذكر ولكن ملامح "يوسف" كانت تقول بأنهُ عازمٌ على حضور ذلك المؤتمر حتى لو كلفه ذلك الكثير، من جانبها "نضال" لم تغير موقفها ولكنها شعرت بالإحباط كثيراً لما رأته في أعين زميلها المقرب في الحزب، يبدو أن ذلك العالم الجميل الخاص بيوسف يزادا إيلاماً فلم تتوقع منهُ تلك الخُطوة أبداً ويبدو أن تلك الصورة الجميلة المعُلقة داخل ذهنِها لهُ طفت عليها البهاتة عن ذي قبل، لم يتبق سوى انقلاب اللوحات والألوان عليها وتهبط من سماء ألوان الطيف إلى أرض كابوس الواقع.

بعيداً عن لغة المعاني السامية والمشاعر المتقلبة كنا في مقر المجموعة نتحدثُ بلغة الاجتماعات المتكررة وبلغة الخطوات القادمة لنا في المستقبل القريب، في تلك الفترة لم يكن السيد "نزار" يجلسُ كثيراً في الغرفة وكان يختار عضواً كل يوم يقود الاجتماع عوضاً عنهُ، الكلمة التي من المفترض إلقائها في مؤتمر تكريمه أخذت من وقته وكان يعلمُ بأنها مهمة للغاية في سبيل تقديم نفسه للشعب من جديد على أنه ابنهم المخلص الذي يريد مساعدتهم في عيش حياة كريمة تليق بهؤلاء المواطنين الشرفاء.

لم تكن الاجتماعات تناقشُ عديد القضايا في تلك الآونة وكانت تقتصرُ على الحديث عن ذلك المؤتمر المُرتقب وتوقع كل عضو منا كيف ستكون كلمة الرجل الأول للمجموعة ؟ وما هو رد فعل الشعب المتوقع عقب تلك الخطوة التي تبدو مجنونة بعض الشئ، وما هو رد فعل الحزب الحاكم عقب سماعهم ذلك الخبر من رئيسهم ؟ التوقعات كانت متفاوتة من عضو لآخر فيما يتعلق بالشعب فلم يتفق أحد تقريباً على رأي واحد وتوقع بعضهم هدوء الشعب وتوقع آخرون غضباً جديداً أما بالنسبة للحزبِ فلم تختلف التوقعات كثيراً وراحت إلى غضبهم الشديد ولكن ما باليد حيلة.

تلك الفترة كانت فريدة من نوعها فلم يسبق وأن كلف السيد "نزار" رجلاً غيرهُ بإدارة شئون المجموعة وعلى عكس الهدوء الذي كان يعم أرجاء المجموعة ومقرها فخارج المقر لم يكن بذلك القدر من الهدوء، الأحزاب كانت تستشيط غضباً جراء تلك الخطوة المتهورة الغير محسوبة على الإطلاق، حاولوا مراراً وتكراراً

الوصول إلى كبار الأعضاء في الحزب الحاكم لإقناعهم بالتراجع عن فكرة المؤتمر ولكن الكبار ردوا عليهم بأنهم حاولوا بالفعل ولكن دون جدوى وهكذا عاد الغضب من جديد.

بالتأكيد لم تقف الأحزاب مكتوفة الأيدي بل وخرجت على شاشات التلفاز تدينُ بشدة تلك الفكرة وعلقت بأنه من غير المعقول تكريم رجل كان يساند النظام السابق في الماضي وحتى إن اختلف معه في آخر أيامه فهذا ليس مبرراً قويا، القنوات التليفزيونية آنذاك كانت منبراً يتبادلهُ كبار رجال الأحزاب المختلفة وتهافتت شركات الإعلانات على القنوات مستغلين حالة الجدل تلك فهي من اللحظات المناسبة التي تستطيعُ فيها تلك الشركات الترويج لمنتجاتها حتى وإن كانت متواضعة.

الصحف الورقية بدورها تقاسمت الكعكة مع القنوات التليفزيونية وأفردت صفحات كاملة تنشرُ فيها الغضب الكبير على الرئيس وعلى حزبه جراء ذلك المؤتمر القادم، لم يستطع الحزب الرد على ذلك الهجوم القوي وبدا كطفل صغير أمام أمواج البحر التي تكتسحُ من يقفُ أمامها، كانوا في موقف لا يُحسدون عليه وحاولوا الخروج على الشاشات أمام الشعب لتوضيح بقية الصورة الغائبة عنهم ولكن حتى ذلك الخروج لم يشفع لهم أمام الشارع الذي وثق فيهم وجاء بهم كنظام جديد للبلاد.

غرفة العمليات عادت من جديد وحاول "يوسف" الاتصال بزميلته المقربة داخل الحزب ولكن دون فائدة، كان يريد كل عضو بجانبه في تلك اللحظات الصعبة وخصوصاً تلك الشابة العنيدة، لكن "نضال" أغلقت كل سبل الوصول لها واكتفت بغلق باب غرفتها وظلت غارقة في أحزانها وكُلما ضاق بها الحال وضعت رأسها منتظرة ذلك اللص المدعى النوم ليخطفها من وحش الإحباط الذي يكاد يفتكُ بها في ليلة من إحدى الليالي، وجد "يوسف" نفسهُ وحيداً أمام ذلك الطوفان الذي أوشك على ابتلاعه لا محالة.

المحاولة الأخيرة تمثلت في الذهاب مجدداً إلى منزل "نضال" لعل وعسى ينجحُ هذه المرة في إقناعها بالحضور إلى جانبه والوقوف معهُ في تلك الأزمة، "تفضل بالدخول يوسف، سأخبرُ نضال بأنك هنا" هكذا رحب والدها به ودخل مسرعاً إلى غرفتها ليخبرها بحضوره، خرجت من غرفتها وهي تبتسمُ مثل تلك اللواتي يتقمصن دور الساحرة الشريرة، تعجب الشابُ من تلك الابتسامة الغريبة وبدا لهُ بأن تلك المحاولة قد تفشل ثانية ولكن لا مانع من بعض الكلماتِ القوية والجمل المتسقة.

"ماذا تريد يا يوسف ؟ تأكد بأنهُ مهما بلغت قوة كلماتك وجمال أسلوبك فلن تستطيع تحريكي من هذا المكان ولن تهزُ شعرة واحدة من رأسي الكبير هذا" بعد تلك البداية منها ازدادت المهمة تعقيداً وبات يرددُ كلاماً مثل " المصلحة العامة للبلاد" و "سفينة الوطن" ومثلها من تلك المصطلحات التي ينطقُ بها الرجال الذين تشتمُ رائحة عفنهم من بعيد، ابتسمت مرة أخرى ولكن تلك الابتسامة لم يعقبها كلام ولا رد وقامت ودخلت إلى غرفتها من جديد وهكذا أُسدل الستار على ذلك الملف الشائك.

بينما كان يفكرُ في ذلك الطوفان الذي يقتربُ شيئاً فشيئاً كانت الأصواتُ هُناك تتعالى بالتعليمات الأخيرة لترتيب أماكن الحضور داخل القاعة المخصصة للمؤتمر، كلما تبق هو أقل من عشر ساعات وكانت القنوات حاضرة لتغطية آخر الاستعدادات وآخر اللمسات، وعلى مقربة من تلك القاعة كان الرئيسُ يكملُ اتصالاتهِ بأعضاء حزبهِ للتأكيد عليهم على القدوم، على ما يبدو أن ذلك الرجل المُبتسم دائماً لم يكن يهتم بتلك الحناجر التي ظلت تهاجمهُ طوال الفترة الماضية وفضل التعليق في اللحظة المناسبة.

حلت لحظة الحقيقة واجتمعت الصحافة والإعلام وكبار رجال الدولة ولفيف من أعضاء الحزب الحاكم لحضور ذلك الحدث الكبير، قائمة الغياب شهدت عديد الشخصيات على رأسها "نضال" واحدة من أبرز أعضاء الحزب وبالطبع شهدت القائمة عدم تواجد كبار رجال الأحزاب الأخرى الذين فضلوا البقاء في منازلهم على أن يعاودوا الهجوم من جديد في الصباح الباكر على من تواجدوا في تلك القاعة، الابتسامات كانت حاضرة هُنا وهُناك كعادة اللقاءات الرسمية وها قد بدأ المؤتمر.

قص الرئيس الجديد شريط البداية ورحب بكافة الموجودين في المكان وعلق قائلاً "من الجيد رؤيتكم هُنا في ذلك الحدث الجميل وبالطبع لن أخفى عليكم حزني الشديد لعدم حضور شخصيات كنتُ أتمنى تواجدهم في تلك الليلة المهمة" حاول بشئ من الذكاء كسب ود الغائبين وإظهار بعض من الحزن لغيابهم عن ذلك المحفل وحاول إخفاء الإحباط داخله لعدم تلبيتهم الدعوة وتابع حديثه من جديد "من المحزن رؤية أشقائنا داخل هذا الوطن يقفون بعيداً في المشهد الأول للنظام الذي جاء به الشعب وجاءت به أصواتهم"

من جديد ألقى بالكرة في ملعب المعارضين لذلك المؤتمر وحاول إبعاد الأنظار عنهُ ولو قليلاً عقب ذلك الضغط الهائل الذي تعرض لهُ خلال الفترة الماضية، يعلمُ جيداً أن سياسة الهجوم قد لا تجدي نفعاً وأن بعضاً من الحكمة والفطنة سيتكفلان ببث الهدوء قليلاً إلى ذلك البلد المستشيط غضباً، السيد "نزار" بدوره واصل السير على نهج رئيسه ولم ينتهج سياسة النقد والهجوم وعبر عن حزنه هو الآخر للهجوم الشديد الذي تعرض له بصفته مؤيداً للنظام السابق في أغلب فترات حكمه.

تلك الكلمات التي رددها "يوسف" داخل منزل صديقته "نضال" كانت حاضرة مرة أخرى في أروقة القاعة ويبدو أنها العرف الرسمي لهؤلاء الرجال لامتصاص غضب الملايين، "مصلحة البلاد" كانت الكلمة الأكثر رواجاً في تلك الليلة وكأن بهم هم المخولين من قبل البلاد عن المصلحة وأن تلك الأصوات المعارضة لا تعرف الحقيقة وتريد هز الشعب، في النهاية دعا الرئيس ودعا السيد "نزار" كافة الأحزاب بالوقوف جنباً إلى جنب بجوار النظام الجديد في مواجهة التحديات القادمة لذلك البلد العظيم.

كنتُ حاضراً في تلك الليلة إلى جانب أعضاء المجموعة لتقديم أنفسنا من جديد إلى الصحافة والإعلام والأهم من ذلك كله لتقديم أنفسنا إلى الشعب وطوي صفحة الماضي بكل ما تحمل من حزن وألم والمضي قدماً في صفحة أكثر إشراقاً ولمعاناً، أجرينا عديد اللقاءات الصحفية واتبعنا نهج السيد "نزار" والرئيس في الوقوف

بجانب بعضنا البعض لتجاوز تلك الفترة الحرجة ولتحقيق الإنجازات على أرض الواقع بعد أن كانت مجرد أحلام بعيدة المنال عن هذا المواطن البسيط.

خلف الشاشات كان كبار رجال الأحزاب يتابعون ذلك الحدث ويتمنون لو أن شيئاً ما حدث لينهي ذلك العبث على الفور ولكن أمنياتهم تلك لم تتحول إلى حقيقة ملموسة وانتهى المؤتمر كما خطط له في البداية، شابة أخرى كانت تتابعُ ذلك الحدث على غير المتوقع وهي "نضال" التي بمجرد الانتهاء من مراسم التكريم حتى دخلت الحمام وتقيأت مما شاهدته للتو من ابتسامات مصطنعة ومن كذب ملأ جنبات المكان ومن كوارث تلوح بالأفق عقب تلك الخطوة الأكثر جنوناً في وقتنا المعاصر.

اليوم التالي احتفت كبرى الصحف بذلك المؤتمر وأفردت عناوين كبيرة وتناولت ما حدث في تلك الليلة المهمة بالطبع، أكثرُ ما كان يخشاهُ الرئيس هو ردة فعل الأقلام لأنهُ يعلم تمام العلم بأنها قادرة على تحريك الشعب ضده، في الجهة المقابلة تناولت بعض الصحف ردة فعل بعض المواطنين والتي كانت متفاوتة بدرجة كبيرة، الأحزاب الأخرى بدورها احتلت مكاناً ليس بالصغير في صفحات تلك الجرائد وأفردت لهم عديد العناوين ونقلت عنهم ردة فعلهم جراء ذلك المؤتمر.

لم يمر ما حدث مرور الكرام وازداد غضب تلك الأحزاب وقرروا عقد مؤتمر مماثل للرد على ما جاء في مؤتمر الرئيس وعلى ما يبدو فإن تلك الليلة ستكون بمثابة النقطة التي يبدأ من عندها الصدام بين الرئيس وبين الأحزاب التي وضعت كامل ثقتها فيه، اتفقت الأحزاب على موعد محدد للحديث بشأن ما تناوله الرجل الأول للبلاد هو والسيد "نزار" ونقلت كافة القنوات خبر ذلك الحدث الجديد فهو بمثابة الوجبة الشهية بالنسبة لهم وفي انتظار تناولها في أسرع وقت ممكن.

اجتمعت الصحافة من جديد بجانب القنوات التليفزيونية لتغطية ذلك المؤتمر الذي حضره جميع أعضاء تلك الأحزاب وعدد من الصحفيين الذين لم يكونوا راضيين عن مؤتمر الرئيس، في البداية وجهوا الشكر لكافة الموجودين وسطهم على تلبية الدعوة وشددوا على أنهم من ابناء هذا الوطن وأنهم مخلصين له ويريدون الخير له وأنه لا داعي لتلك المزايدات التي لن تغير من واقع حبنا لتلك البلد وأن ذلك الرفض والعزوف عن الحضور لا علاقة له من قريب أو من بعيد بتعلقنا الشديد بتراب الوطن.

تلك الأحزاب بدورها استخدمت المصطلحات التي استخدمها السيد "نزار" والرئيس من قبلهم وباتت وكأنها حرب مفردات ومصطلحات وسباق لمعرفة من يحب البلد أكثر من الآخر، معركة ليس لها أهمية من الأساس بالنسبة للمواطن في الشارع الذي يريدُ أن تهب عليه رياح التغيير لتزيح عنهُ غبار الفقر وغلاء الأسعار، تلك الكلمات وتلك المؤتمرات لن تكون مجدية بالنسبة له فهو يريد قرارات سريعة وعاجلة تنقذهُ من ذلك الحبل الذي التف حول رقبته طيلة عقود من الزمن وكاد أن يفتك بها.

أُغلق هذا الملف تماماً وبدأ التركيز ينصب على قضايا أكثر أهمية تتعلق بتوفير حياة كريمة وذات قيمة للملايين الذين يعانون من الفقر وغلاء الأسعار، الشباب كان لهم نصيب الأسد من الاهتمام بصفتهم الحجر الأساسي لبناء أي بلد، وعد الرئيس بتوفير وظائف لهم وتخليصهم من شبح البطالة الذي يطاردهم في كل ليلة وفي كل يوم، كذلك تم وعد المرأة بالاهتمام بقضيتها بصفتها جزء لا يتجزأ من هذا المجتمع الذي كان يمارس كل أنواع الضغوط عليها ويعاملُها كأنها سلعة.

كان من الطبيعي عقد المؤتمرات بكثرة في البداية لتوضيح النهج الذي سيسير عليه النظام الجديد ولكنها أقل جدلاً من ذلك الأول الذي أثار البلبلة في الشارع، "يوسف" كان الأكثر نشاطاً بين زملائه والأكثر حرصاً على الخروج أمام الشعب وإعطائهم مسكنات الأمل التي ينتظرونها كل يوم، أما "نضال" فلازالت غائبة عن الصورة وعن الاجتماعات وعن المؤتمرات واكتفت بالجلوس في غرفتها تراقبُ تلك الأحلام التي تصبحُ سراباً يوماً تلو الآخر وصارت كتلك الوردة التي سقطت على الأرض واختفى بريقها وجمالها.

السيد "نزار" عاد من جديد ليتابع بنفسه كل ما يدور داخل غرفة الاجتماعات واعتذر عن ذلك الانقطاع المتكرر واحتفل معنا احتفالاً بسيطاً بمناسبة تكريمه، في البداية تحدث عن سعادته بشأن تلك الخطوة ووجه الشكر لأعضاء المجموعة لثقتهم فيه وأنه وصل إلى تلك المكانة بوجودنا بجواره، ثمَ تابعَ قائلاً "الآن جاء وقت التفكير في كيفية التعامل مع النظام الحالي في المستقبل وكيف سنحاول تحسين تلك الصورة التي باتت مُشوهة بالكامل وتحتاجُ عملاً جباراً كي تعود جميلة من جديد"

لغة الرجل الأول للمجموعة تغيرت قليلاً ويبدو أن ذلك التكريم جعلهُ يعيدُ التفكير في مساندة النظام من عدمها، يبدو وأن ذلك المؤتمر طرد بعض الشكوك التي كانت تتمثل في إبعاده هو ومجموعته عن المشهد السياسي على الأقل في تلك المرحلة، كلماته تلك جعلتنا ننظرُ إلى بعضنا البعض لتبدأ الأسئلة لتحتل عقولنا من جديد وليفتح الباب حول مزيد من علامات الاستفهام فيما يتعلق بالمستقبل، هل سيضحى بنا في مقابل بقائه على الساحة السياسية ؟ هل سيأتي بأعضاء جديد يدينون بالولاء للنظام الجديد ؟

الكل خرج من الغرفة دون النطق ولو بكلمة واحدة تخفف من حدة التوتر الذي انتشر للتو في مقر المجموعة، خرجتُ مسرعاً ودماغي أوشكت على الانفجار من شدة الأفكار التي تكالبت عليَ، قررتُ الذهاب إلى المنزل والتمتع بقسط من الراحة قبل معاودة التفكير بشأن تلك الكارثة التي تطرق الأبواب بشدة، لم أنطق بكلمة واحدة قط ودخلت إلى غرفتي وأغلقتُ الباب واستلقيتُ على فراشي والتقطتُ الأنفاس وخلدت إلى النوم، كل هذا وزوجتي لم تفهم بعد ما يحدث وفضلت الانتظار حتى أستيقظ لتتحدث معي بشأن تلك الحالة.

لم أشعر بنفسي سوى عند دخول ابنتي الصغيرة لتلعب معي قليلاً، وقتها قمتُ مبتسماً وقبلتُها وحدثتها قائلاً "لقد مر وقت على الجلوس معك أيتها الصغيرة" وعلى الفور نهضت من مكاني وحملتها وتعالت ضحكاتنا

وخرجنا إلى والدتها واندهشت أكثر وقالت "أنت تمزح وتضحك وأنا هنا عالقة وسط مجموعة من الأسئلة التي لا تنتهي" توقف المزاح في التو واللحظة ودخلت الطفلة إلى غرفتها وتابعت زوجتي الحديث من جديد "خيرت لقد دخلت دون أن تنطق بكلمة واحدة ولم تتناول الطعام معنا وبدا أنك في مزاج سئ والآن تدخل في نوبة من الضحك، هل تريد أن أصاب بالجنون؟"

لم أجاوبها في الحال وفضلت الصمت قبل أن أرد "بعض المشاكل هي من جعلتني أظهر هكذا وأعتذر منكِ عما بدر والآن هيا بنا للخروج سوياً للاستمتاع بالهواء الجميل" تبدل حال وجهها تماماً وابتسمت ودخلت إلى غرفتها كي تجهز نفسها فتلك اللحظة تعد من اللحظات القليلة التي تكون فيها بجوار زوجها الذي اختطفه العمل لصالحه، جملة واحدة كانت كفيلة بجعلها تهربُ من حصار تلك الأسئلة على أن تعود لهُ في وقت لاحق فالطبع النساء يعشقن سرد الأسئلة.

بقدر ما كنتُ مشتتاً لا أعرفُ كيف أرتبُ أفكاري بقدر ما كانت تلك السويعات كفيلة بتحسين المزاج العام، هُنا نجلسُ بعيداً عن مقر المجموعة وعن غرفة الاجتماعات وعن كوب القهوة الذي سئم منا، هنا نجلسُ في صحبة الأطفال الصغار وتلك المشروبات المثلجة التي تفرحُ القلبَ ونستمتع بذلك الهواء الذي يشبهُ النبيذ في تلك الحانات الصغيرة لتمتعه بنفس التأثير والذي يذهبُ العقل تماماً ! حاولتُ عدم التطرق لأمور العمل نهائياً ونجحتُ بالفعل في ذلك وكانت سهرة لطيفة للغاية.

تأثير ذلك الهواء الأشبه بالنبيذ بدأ يتلاشى كلما اقتربت من المنزل، العقل الذي ذهب في رحلة بعيدة تماماً عن كل هذا الصخب السياسي بدأ يعود تدريجياً ليحمل معهُ شكوكاً جديدة وقلقاً أكثر من أي وقت مضى، لم أحبذ فكرة انتهاء التأثير ولكن ما باليد حيلة، قبلت ابنائي قبل الدخول إلى غرفتهم ودخلتُ بصحبة زوجتي إلى غرفتنا وكانت مُتعبة للغاية ولم تأخذ وقتاً طويلاً حتى تخلد إلى النوم أما عن هذا العضو الدؤوب فظلت عيناهُ مفتوحة تأبى نداء الفراش وتسمعُ لنداء العقلِ.

استمر هذا الحال حتى نال مني التعب ما نال وأخيراً استجابت عيناي لنداء الفراشِ وتركت العقل وحيداً لا أحد يجيبُ عن ندائه، في اليوم التالي استيقظتُ وودتُ لو عادت عقارب الساعة إلى الوراء بعض الشئ حتى استمتع بالنوم من جديد، جهزت نفسي وكانت زوجتي بجواري وحاولتُ عدم إظهار أية إشارات قد ترسمُ القلق على وجهها وابتسمتُ لها في محاولة بائسة لبث الطمأنينة بداخلها، قبلتُها ومضيتُ مسرعاً حتى أذهب إلى العمل وأعود إلى ذلك المقر الذي بات بيت الشكوك والمخاوف.

في البداية كانت الحالة المعنوية لأعضاء المجموعة في السماء وكانت الابتسامة لا تفارق تلك الوجوه على عكس بعض من أعضاء الحزب الحاكم، ولكن الوضع تغير ولم نعد أفضل حالاً منهم بل وكدنا نكون اسوأ، أعضاء الحزب تناسوا ما حدث في المؤتمر وانخرطوا في تلك المشروعات والخطط والمؤتمرات أما نحنُ فانخرطنا في الأسئلة التي تحتاج إلى إجابات في أسرع وقت، استمر الحال كما هو عليه ولم ينطق أحد من الأعضاء بكلمة واحدة عقب نهاية الاجتماع والكل فضل الذهاب على عجلة من أمره.

ذلك الوضع كان دخيلاً بيننا ولم يجد أحد تفسير واضح لهُ، مقر المجموعة آنذاك كان أشبه بالمعتقل الذي لا تحبذُ الدخول إليه، تجلسُ داخل الغرفة وأنت تعلم بأنك في غمضة عين قد تفقدُ مكانك لصالح شخص آخر، لم يكن أمامنا سوى الانتظار لحدوث شئ ما يجعلنا نفكر بعناية في هذا المأزق، بينما كنا نحنُ على هذه الحالة كان السيد "نزار" مبتسماً يديرُ الغرفة على أكمل وجه ولم ينتبه إلى تلك الوجوه المرتعدة خوفاً منهُ ومن رئيسه، بداخله يرى أن الأمور طبيعية والكل سيحتفظُ بمكانه ولكنهُ لم يفهم بأنه وجب عليه بث رسالة الطمأنينة تلك حتى يهدأ ذلك الصداع الذى سيطر على عقول الأعضاء.

هجوم الأحزاب الأخرى عاد من جديد وهذه المرة بسبب تعيين بعض الأشخاص المقربين من النظام الحاكم في المناصب الكبيرة، لم يكن يعلم الرجل الأول للمجموعة بتلك القرارات الرئاسية وتفاجئ بهجوم الأحزاب وعندما عرف السبب انزعج هو الآخر، في طريقي إلى الاجتماع وصلني خبر الهجوم وخبر القرارات وتوقعت بأن يتناول اجتماعنا ما يحدث من خلاف على الساحة، كالعادة لم يتحدث أحد ودخلنا إلى الغرفة وتأخر السيد "نزار" لأنه كان يجري مكالمة مهمة بالخارج.

كلما مر الوقت كلما ازداد قلق الأعضاء لتأخر رئيسهم داخل المجموعة ولاحظنا علو صوته وكان غاضباً للغاية وأغلق الهاتف ولم يكمل المكالمة وجلس على الطاولة والتقط أنفاسه ثم قال "أظن بأنكم قد سمعتم بما حدث من الرئيس وبشأن تلك القرارات الغريبة التي لم يحدثني بشأنها، يبدو بأن ذلك التكريم كان ستاراً لما هو قادم" اندهش الأعضاء من ردة فعله وسبب دهشتهم هو بأنهم يظنون أن السيد "نزار" على علم بما يدور داخل مكتب الرئاسة ولكن الصورة بدأت تتضح أكثر فأكثر.

في تلك اللحظة قررت البوح بما في داخلي وبما في داخل هؤلاء المساكين الذين يرتعدون خوفاً من ذلك الرجل الجالس أمامهم وقلتُ "مهلا سيدي فنحن كنا نعتقد بأنك على علم بما يحدث بل وساورتنا الشكوك بأنك تنوى الإطاحة بنا قريباً حتى تضمن بقائك في الصورة" اندهش لما سمعهُ للتو وعلامات التعجب ظهرت على وجهه قبل أن يجيب "يبدو أن زميلكم خيرت قد شرب النبيذ في الصباح بدلاً من القهوة، كيف لك أن تفكر بهذا وتتحدث بلسان زملائك، مهلاً هل هم احتسوا النبيذ معك في هذا الصباح ؟"

تابع السيد "نزار" حديثه غاضباً "كيف لكم أن تفكروا بهذه الطريقة الجنونية ؟ نحن في مركب واحد ولا توجد فرصة لنجاة واحد دون الآخر، نغرقُ سوياً أو ننجو سوياً ولا يوجد احتمال ثالث، هيا توقفوا عن تلك السخافات وانتبهوا جيداً لما يحدث في تلك الآونة" انتهى الاجتماع سريعاً على أن نستكمل الحديث في أقرب فرصة عن ما خرج من المكتب الرئاسي وفي طريقنا للخروج من مقر المجموعة تحدث الرجل الأول للمجموعة بينه وبين نفسه بصوت خافت قائلاً "يبدو أن رجالي أصابهم الغباء"

القنوات التليفزيونية كانت ساحة للعراك عقب تلك القرارات، الأحزاب خرجت لتهاجم النظام بشكل علني وقالت بأن ما حدث مخالف لما تم الاتفاق عليه في البداية وأن تلك السياسة لن تجدي نفعاً ويجب على الحزب الحاكم الإنصات إلى الأصوات الأخرى وليس الإنصات لصوته فقط، الهجوم هذه المرة كان أشد مقارنة بالمرة الأولى التي كانت بسبب المؤتمر ولم تكتف الأحزاب ورجالاتها بالخروج على الشاشات فقط وتحدثت إلى الجرائد ووسائل الإعلام الأجنبية !

لم يقف "يوسف" هذه المرة أمام الطوفان وحيداً بل كان الحزب معهُ، أمر الرئيس بتجهيز لقاء يخرجُ فيه الفريق الإعلامي للحزب ليوضح الحقيقة كاملة، "يوسف" لم يكن راضياً عن تلك الفكرة ورأى بأنه لو خرج الفريق الإعلامي في كل مرة للرد على هجوم حزب بعينه فلن ننتهى على الإطلاق وسنجدُ الحزب يدخل في صراعات ليس لها أي قيمة وكان يفضل الصمت والتركيز على تلك المشروعات التي جاء الرئيس من أجلها وقرر التحدث معهُ ومحاولة إقناعه بإلغاء هذا اللقاء.

دخل "يوسف" إلى مكتب الرئيس وجلس وانتظر حتى ينتهى من قراءة الملفات الموضوعة أمامه ومن ثم يبدأ الحديث، انتهى من القراءة وأعطى الإذن له بالتحدث وعلى الفور بدأ العضو الأبرز حديثه قائلاً "سيدي الرئيس كنت أرى بأن فكرة اللقاء تلك ليست صائبة وأننا نضيع وقت نحن بحاجة له في تلك الفترة ومن الأفضل تركهم يهاجمون ونجلس نحن على تلك المشروعات المهمة حتى تصبح حقيقة ملموسة فالرد عليهم بمثابة مضيعة لوقتنا قبل أن يكون مضيعة لوقتهم"

لم ينطق الرئيس بكلمة واحدة ولم يقاطع "يوسف" وترك له الفرصة حتى يقول ما في قلبه وبعدها يستطيع الرد عليه، بمجرد ما انهى الحديث حتى قال له "لا مشكلة في الرد عليهم ونحن نملك الوقت الكافي لتوضيح الحقيقة وللعمل على المشروعات في آن واحد وبالتأكيد تلك الساعتين لن يوقفا خطتنا في النهوض بالبلاد" أصيب الشابُ بالإحباط جراء رد رئيسه وخرج غاضباً للغاية وأغلق الباب بقوة وأندهش من في الخارج جراء ردة فعله وتوقعوا بأنه قد حدث ثمة خلاف مما جعلهُ يغلق الباب بتلك الطريقة.

لم يتحدث الشاب مع أحد وخرج غاضباً وولى في طريقه إلى منزله وكانت هذه إشارة إلى عدم تواجده في لقاء الفريق الإعلامي المجهز له، ليس فقط هو من قرر عدم الوقوف بجانب الرئيس في تلك الأزمة بل من تم تكريمه للتو رفض التعليق تماماً على هجوم الحزب والتزم الصمت هو الآخر، ربما كانت تلك هي المرة الأولى والوحيدة التي اتفق فيها السيد "نزار" مع "يوسف" برغم اختلاف أسباب الغضب، هذه المرة قد يجد حاكم تلك البلاد نفسه وحيداً أمام كل ذلك الهجوم القوي.

مرة أخرى قرر "يوسف" الذهاب إلى منزل زميلته ليبوح لها بكل ما يحمل من غضب بداخله، لم يرغب في إقناعها بالعودة هذه المرة ولكنهُ يرغب فقط بالتحدث ولا شئ غيره، والدُها رحبَ به أشد الترحيب ولاحظ تغيراً شديداً في ملامحه وكأنه أتى بخبر غير سار لابنته، خرجت "نضال" مبتسمة ابتسامتها المعتادة بعكس

ابتسامة الساحرة الشريرة التي أظهرتها في آخر لقاء بينهم وأحست بأن ضمير صديقها قد استيقظ ولكنها لم تبالغ في الفرحة لربما يفاجئها هذا الشاب بصدمة قد تجعلها تكرهُ هذه الحياة البائسة تماماً.

لكن حدس "نضال" كان صادقاً عندما أخبرها بشأن خلافه مع الرئيس داخل مكتبه وقال "الرئيس يضيع وقتنا ووقته في الرد على هجوم الأحزاب بدلاً من التركيز على المشروعات وبهذه الطريقة فلن ننتهى من الرد على كبيرة وصغيرة" لم تفهم قصده في البداية فهي منقطعة تمام الانقطاع عن كل ما يحدث بالخارج وطلبت منهُ شرح القصة بالكامل، "كانت هناك بعض القرارات المتعلقة بتعيين المقربين من الحزب في بعض المناصب الكبيرة وهذا ما أزعج العديد من رجالات الأحزاب الأخرى وجعلهم يفتحون النار على الرئيس وعلينا"

لم تستطع لوم من فتحوا النار على حزبها وتخيلت لو كانت مكانهم وتم تجاهل وجودها تماماً ماذا كانت ستفعل وقتها ؟ وضعت يدها على رأسها ثم قالت "لقد وقع في الفخ مرتين الأولى حين خرج بتلك القرارات والثانية حينما طلب من الفريق الإعلامي الخروج للرد، هل هناك فرصة لمحاولة أخرى لمنع ذلك اللقاء أم أنك قد أفسدت كل شئ ؟" لم يجبها "يوسف" وحينها علمت بأنهُ قد أفسد الأمور تماماً ولا توجد فرصة لمحاولة معالجة تلك الأزمة التي وضعهم فيها الرئيس.

في مقر المجموعة كان السيد "نزار" يتلقى الاتصالات تلو الأخرى من حاكم البلاد ولكن لم يجب في أي مرة، كان يحاول الاستعانة بالرجل الأول ولكن دون فائدة، يريدُ ضمان وجود الدعم من المجموعة ورئيسها ولكن يبدو بأن تلك القرارات أضرت به أشد الضرر، فقط مكالمة واحدة كافية من أحد أعضائنا على الهواء مباشرة لبث الطمأنينة داخل قلبه ولكن حتى تلك اليتيمة لم ينلها ووجد نفسهُ وهو مركزه الإعلامي أمام حملة قوية ولم يتبق سوى ذلك اللقاء لمحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

خرج المركز الإعلامي على الهواء في محاولة أخيرة لتصحيح الأوضاع التي أفسدها الرئيس، كان الهدف هو كسب ود الأطراف المعارضة لتلك القرارات دون المساس والتعرض للنظام الحاكم، لم يكن أمامهم سوى وضع أنفسهم ووضع رئيس البلاد أمام الأمر الواقع ووعدوا بتلبية مطالب الأحزاب، ذلك الحل رغم كونه لم يترك له خياراً واحداً ولكنهُ كان المنقذ لهُ عقب تلك القرارات، تنفس الصعداء بعد تلك المقابلة لكنه ظل قلقاً بعض الشئ وانتظر ردة فعل الأحزاب حتى يطمئن بالكامل.

"يوسف" كان يتابعُ من خلف الشاشات ولم يخف إعجابه بما شاهده من المركز الإعلامي، كان خائفاً من ذلك اللقاء للغاية واعتقد بأنه قد يزيد الطين بلة ولكن توقعاته كانت خاطئة وهذا ما أراده بالتحديد، الآن فقط بإمكانه الذهاب مجدداً لمتابعة اجتماعات الحزب وبعدها يشد الرحال إلى مكتب الرئيس لينهوا هذا الخلاف تماماً، كان يرى بأن الأحزاب لا حجة لها في قبول هذا الحديث المحترم وأنهم مدينون باعتذار للنظام الحاكم بسبب ما سببه ذلك الهجوم من أضرار نفسية.

اليوم التالي خرج رجالات الأحزاب الكبرى تلك على الشاشات وأعلنوا رضاهم عما جاء في حديث المركز الإعلامي لكنهم شددوا على أهمية تحويل ذلك الكلام إلى حقيقة ملموسة وليس مجرد جمل وعبارات فقط، سعادة كبيرة انتشرت في جنبات الحزب عقب ما حدث الليلة ولكن شيئاً غريباً حدث وكان ملفتاً للأنظار، السيد "نزار" لم يعلق حتى بعد خروج المعارضين لتلك القرارات على شاشات التلفاز وحتى نحن الأعضاء لم يخرج أحد منا للتعليق بشأن تلك الأحداث الأخيرة.

هذا الصمت المطبق من السيد "نزار" كان إشارة واضحة منهُ للرئاسة بأنه غير راض عن تلك القرارات الأخيرة ودلالة على عدم الدعم المباشر للرئيس في حالة وجود أخطاء منه، كنتُ متفقاً تماماً معه وكنت أتمنى لو تحدث بخطاب شديد اللهجة للمكتب الرئاسي وللحزب ولكنه لم يفعل قط واكتفى بالمشاهدة من بعيد دون تعليق، أثناء الاجتماع انهالت الاتصالات عليه وكل مرة كان ينظر إلى هاتفه ويمتعض ويرفض الإجابة وتوقعنا من هو الذي يريد مكالمته في ذلك التوقيت بالذات.

أخيراً وبعد فترات من الصمت أمر السيد "نزار" بخروج أحد الأعضاء للحديث عن تلك الأزمة على القنوات التليفزيونية وقال "الآن حان وقت الرد، خيرت لديك مكالمة الليلة أظن أنك تعلم ماذا ستقول فيها" حركت رأسي في إشارة إلى معرفتي الكاملة بما عليَّ فعلهُ هذا المساء، خرجتُ عقب الاجتماع وعلمت توقيت البرنامج حتى أكون جاهزاً لتلقى المكالمة وذهبتُ مسرعاً إلى المنزل حتى أتمتع بقسط من الراحة قبل ذلك الحدث المهم الذي ينتظرني بعد ساعات قليلة.

فور دخولي المنزل أخبرتُ زوجتي بشأن تلك المكالمة وفرحت كثيراً عندما سمعت هذا الخبر، في الحقيقة لم أفهم سر هذا السعادة الكبيرة ولكن النساء هم النساء وكأنها متزوجة برجل فن مشهور حتى تغمرها السعادة بهذا الشكل، يبدو أنها لا تعلم أن رجال السياسة يكرهون المكالمات وتلك الأسئلة من هذا المذيع رفيع القامة وتلك المذيعة جميلة الملامح والشكل، لا بأس لم أرد إفساد مزاجها في تلك اللحظة وشاركتها تلك اللحظات الجميلة قبل دخولي إلى غرفة النوم.

لم تمر ساعتان بالتمام والكمال حتى وجدتُها فوق رأسي توقظني لكي أجهز نفسي من الآن للرد على تلك المكالمة من هذا البرنامج الشهير، لقد ساورني الشك واعتقدت أني أخبرتُها بظهوري الليلة على الهواء مباشرة ولكني تذكرتُ بأنهُ مجرد ظهور صوتي لا أكثر ولا أقل، جلست تحاولُ التأكد بأني جاهز تماماً قبل الحديث ليلاً، يا للهول ! يبدو وكأنها أصيبت بالجنون وتمنيتُ لو أني لم أخبرها بشأن هذا الموضوع وتركتُها تتابعُ مسلسل التاسعة مساءاً بدل من إيقاظي مبكراً بهذا الشكل الغريب.

لم يكن المكتب الرئاسي على علم بتلك المكالمة ولكنهم تمنوا حدوثها حتى تهدأ الأجواء من حولهم، أمنيتهم تلك صارت حقيقة بعد خروجي على إحدى القنوات والتأكيد على دعم النظام في تلك الفترة وفي نفس الوقت إلقاء بعض اللوم عليه بسبب تلك الخطوات التي أثارت حالة من الجدل داخل الأوساط السياسية، ثانية انتشرت أجواء السعادة داخل أروقة الحزب الحاكم ورئيسه وها قد أغلق هذا الملف تماماً على أن ينصب تركيز النظام على قضايا أشد أهمية بالنسبة للشعب.

عاد "يوسف" من جديد إلى مزاولة عمله بعد نهاية ذلك الخلاف وسوء الفهم، "نضال" هي الأخرى عادت على استحياء إلى مقر الحزب وفرح الأعضاء بعودة تلك الفتاة النشيطة ذات المهام الصعبة، قبل استكمال عملها طلبها الرئيس في مكتبه فور علمه بعودتها من جديد وهناك دار حديث قصير بينهم وبدأ الحوار قائلاً "مرحبا بعودتك أيتها المثيرة للجدل، ظننا أن الفئران احتلت بيتك ولا عودة لكِ مجدداً" ابتسمت وقالت "مجرد راحة قصيرة كنت أحتاجها منذ زمن وها أنا جاهزة لإنقاذكم مما تعانون" نطقت تلك الجملة عن طريق المزاح وضحك فور سماعه لتلك الكلمات وخرجت من عنده وهي في طريقها للعمل مرة ثانية.

عودتها كانت بناء على طلب وإلحاح من والدها ومن "يوسف" فهي لم تكن تنوى العودة على الأقل في الوقت الحالي ولكنها شعرت بأن بقاءها في غرفتها لن ينقذها من تلك الأفكار السيئة التي أحاطت بها وإنما العمل هو المنقذ الوحيد حالياً، لا تعلم هل ستستمر معهم أو لربما تحدث انتكاسة قد تُغرقها من جديد في محيط تلك الأفكار، المهم الآن أنها عادت وعليها مساعدة نفسها قبل انتظار مساعدة الآخرين حتى تعود إلى سابق عهدها وتقف من جديد لتواجه تلك التحديات الصعبة.

انتهز "يوسف" الفرصة في تلك الأثناء ووضع اللمسات الأخيرة لزواجه، وجود "نضال" الدائم جعله يتغيب من حين لآخر حتى يتابع بنفسه آخر الاستعدادات لحفل الزفاف، شعور غريب حل به فرغم كونه فرحاً لتلك الخطوة الكبيرة لكنهُ يحمل شيئاً من القلق في قلبه كونها حياة جديدة تماماً مختلفة عن سابقتها وتحمل مسئولية أكبر وأصعب، ينظرُ إلى زوجته القادمة ويبتسم وهي الأخرى تبادله النظرات ويبدأ قلبه في العمل بقوة، فرصة ذهبية للتمتع ببعض الرومانسية ونسيان حالة المكتب والمقر والورق.

يبدو أن أحداً ما كان يقفُ وراء الكواليس ولم يكن صافياً تجاه "يوسف" فتلك الاستعدادات لم تكتمل وتلقى اتصالاً من "نضال" تخبره بالحضور على الفور إلى مقر الحزب، صوتها كان يحملُ إشارة لحدوث كارثة ما ولم ينتظر التفسير وولى في طريقه لمعرفة ما حدث، لم يلتقط أنفاسه وكان يتصببُ عرقاً ووجد جميع الأعضاء واقفين أمام شاشة التلفاز يتابعون الأخبار، إحدى القطارات لم يكتب لها الوصول بسلام وتعرضت لحادثة كبيرة أودت بحياة المئات من البشر والبقية ما بين الحياة والموت.

مسلسل القطارات والحوادث بات مكرراً في تلك البلد ولا أحد يعلم من المسئول الحقيقي عن تكرار تلك الحادثة في كل مرة، الأجواء كانت صعبة والكل ممسكُ برأسه ولا يعرف ما هو الحل وبينما هم يذرفون بعضاً من الدموع على تلك الفاجعة إذ حدث اتصال من مكتب الرئيس يفيد بضرورة تواجد "يوسف"

و"نضال" وبعض من الأعضاء الآخرين هناك في مقر الحادث لمتابعة آخر التطورات على أن يلتحق بهم الرئيس بنفسه في وقت آخر عقب الانتهاء من بعض التفاصيل الصغيرة.

انطلق الفوج مسرعاً إلى مكان الحادث وهُناك لم تتمالك "نضال" نفسها واجهشت بالبكاء من جراء تلك المشاهد الصعبة التي شاهدتها للتو، حاول الجميع إبعادها قليلاً من موقع الحادث حتى تهدأ وتتناسى ما شاهدته، "يوسف" والبقية أصابهم الصمت وحاولوا التماسك بقدر الإمكان فهم على بعض لحظات قليلة من الظهور على شاشات التلفاز لكي يبثوا الطمأنينة في نفوس ذوى الركاب المصابين ونشر التعازِ لأهالي من فقدوا أرواحهم جراء هذا الحادث الأليم.

لم يمر وقت طويل حتى جاء الرئيس بنفسه إلى الموقع ليتحدث إلى من أصابهم القطار وأودى بحياتهم، في البداية عبر عن كامل حزنه وأسفه لما حدث وأنهُ سيجري تحقيقاً موسعاً لمحاسبة المقصرين وبشدة لضمان عدم تكرار مثل هكذا حوادث وأمر بصرف تعويضات لأهالي الركاب، لكنهُ وقف حائراً بسبب عبارات المذيعة التي كانت تحملُ في طياتها هجوماً لاذعاً على المسئولين سواء القدامى أو الجدد حينما قالت "وماذا بعد سيدي الرئيس هل سنكتفي بالتعويضات في كل مرة ؟ هل حفنة المال ستعيدُ ذلك الشاب أو تلك الفتاة الجميلة ؟ لقد سئم الشعبُ من ركوب القطارات وأصبحُوا يعرضون أنفسهُم للخطر لمجرد شرائهم تذكرة سفر !

تلك المرة لن تجدي المؤتمرات نفعاً ولن تشفي غليل ذوي المصابين والذين لقوا حتفهم، الأمر أشبه بهزة أرضية ارتعشت لها القلوب والأجساد، البلد وكأنها رجعت إلى خمسينيات القرن الماضي حيث الألوان البيضاء والسوداء فقط، لا وجود للألوان الأخرى التي تطفى البهجة في نفوس الناس، لا أحد يتكلم ولا أحد ينطق سوى الإعلام الذي هاجم النظام أشد الهجوم على تلك الواقعة ولم يخجل من توجيه اللوم إليه وطالبه بمحاسبة الجناة أشد الحساب حتى لا تتكرر مثل هذه الأفعال مرة أخرى.

هذه الحادثة كانت بمثابة الصفعة بالنسبة للحزب الحاكم ورئيسه، حاولوا بذل ما بوسعهم ولكن ما من ردة فعل في الأوساط الاجتماعية والسياسية، ذلك الصمت جعلهم خائفون مرتدعون والبعض لم يكن كما السابق، "نضال" أكثر من تضرر بعد تلك الفاجعة، كانت أكثرهم إنسانية وكانت تفكرُ بعيداً عن حسابات الكرسي والسياسة، الأمر بالنسبة لها يتعلق بالمشاعر فقط المشاعر، البقية تخلوا عن الإنسانية قليلاً وجلسوا يفكرون في مستقبلهم فقط وهذا ما جنتهُ السلطة على مُكتسبيها.

الأحزاب الأخرى بدورها هاجمت النظام من جديد وطالبته بتحقيق العدالة والأمن للركاب، ظاهرياً يبدو لك بأن هؤلاء الرجال تتقطعُ أفئدتهم حزناً على هؤلاء الموتى فهم يصيغون العبارات والكلمات لكسب ود أهالي تلك الواقعة ولكن ما خفي كان أعظم فهم مجرد أشخاص داخل لُعبة كبيرة تحركُ أولئك البالغين تدعى المصلحة، يخرجون على شاشات التلفاز يكذبون أمام الملايين ويقولون بأنهم يريدون مصلحة البلاد والوطن ولكن الوطن يعلمُ تماماً نواياهم السيئة.

هناك فئة بسيطة كانت تشبهُ "نضال" وهي الفئة المُتمثلة في الشباب الذين قادوا حراك الهتافات وجاءوا بهذا النظام، هؤلاء أكثر من فشلوا في فهم قواعد اللُعبة وعلى الأغلب فهم الخاسرون الأوائل فيها، هؤلاء أكثر من يقدرون المشاعر الإنسانية وأكثر من يمقتون التصارع على السلطة ولا يملكون سوى كلمتهم تلك التي يتمنون من خلالها إيقاظ الوعي داخل النفوس التي أصابها عفن الخوف وعدم التفكير، حاولوا مساعدة أهالي الحادث بشتى الطرق المادية منها والمعنوية فقط بدافع الإنسانية.

من جهتها طالبت المجموعة بمحاسبة الجناة ولكنها لم تسلك طريق الهجوم على النظام على غرار القنوات والأحزاب فالسيد "نزار" لم يرد تعميق الجراح فالأمر لا يتحمل هجوماً آخر في تلك الظروف الصعبة بالنسبة لهم، "لن يتحملوا انتقادات أخرى فهم ليسوا كالنظام السابق الذي كان يتفهم قواعد تلك اللُعبة المجنونة أما هؤلاء فهم مساكين أتوا لمحوا الصورة السيئة التي تركها من قبلهم" كلماته في الاجتماع وصفت وضعهم ووصفت كم الصعوبات التي ستقف في طريقهم في المستقبل القريب.

تناسى الكثيرون أمر تلك الحادثة وحاول النظام لملمة جراحه والنهوض من جديد لمواجهة تلك التحديات، من غير المقبول السقوط في أول الطريق كالأطفال الصغار الذين خرجوا للشارع لتوهم لممارسة لعبة كرة القدم، تغير ترتيب الأولويات بالنسبة لهم ووضعوا ملف القطارات والطرق عموماً في البداية لضمان عدم تكرار مشاهد دموية ثانية ولكسب ثقة الشعب من جديد ومرة أخرى توقف ملف المشروعات الذين يبدو بأنه غير محظوظ بالمرة وتأخر ترتيبه من جديد ومن يعلم متى يعود في المقدمة التي كانت مسجلة باسمه.

تلك الفترة كانت الأفضل بالنسبة للحزب الحاكم وللنظام بشكل عام، الأوضاع كانت مستقرة وأُغلق ملف القطارات تماماً خصوصاً بعد إلقاء الجناة داخل قفص الاتهام وهدوء الأهالي قليلاً، "نضال" استعادت عافيتها تقريباً وعادت من جديد إلى أروقة الحزب لتمارس عملها ثانية، أما "يوسف" فقد استغل ذلك الهدوء ليعقد حفل زفافه الذي تأخر كثيراً ولترتاح زوجته التي ساورها الشك كثيراً عقب كل مرة يتأخر فيها موعد الزفاف، فرصة مواتية لقضاء إجازة جميلة مع زوجته بعيداً عن صخب العاصمة واجتماعاتها.

مقر المجموعة هو الآخر كان هادئاً على غرار مقر الحزب الحاكم، لم تكن هنالك الكثير من الاجتماعات وإن عقدت فلم تكن بتلك الأهمية ولم تستغرق وقتاً طويلاً، كنتُ أجلسُ كثيراً بجانب زوجتي وأولادي وانتهزت تلك الفرصة وذلك الهدوء، الخبر الجميل الذى أتى ليكمل تلك الحالة هو أن السيد "نزار" أعطى لنا إجازة قصيرة كي نستعيد فيها عافيتنا مرة ثانية ولننفض عن أنفسنا غبار الاجتماعات والأوراق ولنعود بكامل حيوتنا عقب تلك الإجازة القصيرة.

من حسن الحظ أنها كانت قصيرة بالطبع، وعلى ما يبدو بأن السيد "نزار" كان يعلم بأن ثمة حدث قادم سيقلب الموازين تماماً لذلك أرادها أن تكون سريعة لا طويلة، بمجرد عودتنا إلى مزاولة العمل من جديد حتى خرجت الأخبار لتقول تحت عنوان كبير "غلاء الأسعار" ذلك الملف الأكثر حساسية بالنسبة للشعب ولا يُسمح بالاقتراب منه قيد أنملة فهو من المحرمات في نظرهم، تلك القضية هي بمثابة دستور الثقة بين الشعب ورئيسه وما إن أخل النظام بها حتى مزقت الملايين ذلك الاتفاق.

الهجوم كان مختلفاً عن المرات السابقة ونقلت وسائل الإعلام عن بعض الأشخاص بأن النظام الحالي فشل في تصحيح الأوضاع وأن الأزمات التي كان يعاني منها النظام السابق مستمرة إذاً فلماذا تم الإطاحة به ؟ فلماذا خرجت الهتافات والعبارات تنادي بضرورة وجود أوجه جديدة على الساحة ؟ كل تلك الأسئلة وغيرها لن يجيب عليها سوى الحزب الحاكم متمثلاً في الأعضاء الكبار والرئيس، من سوء حظهم بأنهم أتوا في فترة كان الانتقاد فيها على الهواء مباشرة دون أية خوف أو ذرع يذكر.

"يوسف" قطع إجازته عقب سماع تلك الأخبار ولكنهُ استمتع بالقدر الكافي في تلك الآونة وحان الآن موعد الاجتماعات حتى ساعة مبكرة من الصباح، اختفت الكلمات الوردية حين عاد ولم يبارك له أحد بشأن تلك الفترة فهم منغمسون في مشكلة كبرى لا يعرفون الطريقة الأفضل للخروج منها بأقل الأضرار، الخطوة الأولى في سبيل الحل هو الخروج أمام الشعب للحديث عن تلك الأزمة وإخبارهم بأنها لن تطول بالطبع وعليهم بأن يتحلوا بالصبر على الأقل حالياً حتى ينعموا بالراحة فيما بعد.

في الحقيقة حديث النظام لم يكن مقنعاً لا بالنسبة للشعب ولا بالنسبة للأوساط السياسية والاجتماعية وهذه المرة خرج الشباب ليخبر الرئيس في رسالة قوية بأنه لا يملك أي مشكلة في الخروج من جديد للإطاحة به حال تكرر تلك الأزمات وحال عدم تغير الأوضاع، تلك هي المرة الأولي التي يستمع فيها النظام لذلك النوع من التهديدات، المؤشرات كلها ضد الرجال الجدد وضد أعضاء الحزب وعلى ما يبدو فإن آثار تلك المعضلة سيستمر فترة ليست بالقصيرة وسيكون بمثابة الصداع الذي يزعج النظام ويؤرقه.

خرج خبراء الاقتصاد على شاشات التلفاز ليتحدثوا بشأن تلك الأزمة ومدى تأثيرها على المدى البعيد، فرصة من ذهب لبعضهم كي يعرف اسمه للناس بصفته خبير من طينة العباقرة، استمرت القنوات في نقل ردود الأفعال داخل الشوارع واستمر النقد والغضب، حاول المركز الإعلامي تهدئة الأجواء الملتهبة وكرر اتصالاته الهاتفية مع تلك القنوات وطالب بالهدوء الكامل والتحلي بالثقة في الرئيس التي اختارته صناديق الاقتراع وأنه لا داعي لذلك الهجوم المكرر وطالب بإعطاء الفرصة كاملة ليثبت النظام جدارته في حكم البلاد.

تلك اللهجة التي استخدمها المركز الإعلامي كانت جديدة تماماً ولم يتحدث بها من قبل، لهجة برهنت على مدى التخبط الذي يعيشه النظام في تلك الأيام الصعبة، فبدلاً من البحث عن حلول فعالة وقوية تخرج ألسنة النظام لتخبر الشعب بأنهم من اختاروا وعليهم تحمل توابع اختيارهم، لم يكن جيداً الخروج في تلك الظروف

والحديث بمثل هكذا عبارات قد تزيد حالة الغضب والغليان وتجعل التعاطف يقل يوماً بعد الآخر، الوضع بحاجة إلى معجزة كبرى قد تعيد الهيبة التي فقدت بعد تسلسل تلك الأحداث وتعاقبها.

كالعادة فلم تتأخر الأحزاب في الخروج على الشاشات واستغلال تلك الأزمات للهجوم على النظام الحاكم وكأنهم ينتظرون حدوث أية مشكلة حتى يُمسكوا بهواتفهم النقالة ويعقدوا الاتصالات صباحاً ومساءً وتبدأ دورة الهجوم التي لا تنتهي إلا بانتهاء القضية تماماً، الملفت للنظر بأنهم في كل مرة ومع كل حدث مهم لا يقدمون حلولاً فعالة وقوية من شأنها مساعدة الرئيس وحزبه على الخروج من دائرة الشك تلك ولا يقدمون سوى النقد وعبارات الهجوم اللاذعة التي في ظنهم هي الطريق الأسرع إلى قلب الشعب.

المجموعة كانت تراقب الأحداث من بعيد ولم تعلق عليها بالإيجاب أو السلب وفضلت التزام الصمت وعدم الحديث هذه المرة، السيد "نزار" اعتقد بأن الخروج على الشاشة لن يكون مفيداً وأن الشعب في حالة غضب وغليان وقال "علينا الاستفادة من أخطاء الماضي فالوقوف بجانب النظام السابق كاد يكلفنا الكثير والوقوف مع النظام الحالي في تلك الفترة قد ينهي مستقبل هذه المجموعة للأبد" تلك العبارات كانت بمثابة مؤشر قوي على انتهاء شهر العسل بين المجموعة وبين النظام.

السيد "نزار" يعي جيداً أن الوقوف بجانب الشعب في أزمته تلك كفيلُ بمحو تلك الصورة السلبية والسيئة التي رسمها الملايين للمجموعة، يعي جيداً بأن الوقوف بجانب الرئيس سيكلفه الكثير والكثير فهو يريد الحفاظ على مجموعته من براثن هذا الشعب الغاضب الذي لا يرحم، مكتب الرئيس انتظر خروج أحد أعضاء المجموعة على الهواء مباشرة لتأييدهم في تلك الظروف العصيبة ولكن لم يخرج ولو عضو واحد قط، حاولوا الوصول إلى الرجل الأول وطلب المساعدة منه ولكن دون جدوى.

الرئيس كان مرتبكاً للغاية وألغى كافة الاجتماعات الخارجية ودعا إلى أخرى مع حكومته أولاً ومع حزبه ثانياً لمناقشة كل الحلول المتاحة للعبور من هذا النفق المظلم الموحش، غرفة العمليات عادت مرة أخرى ولكن بشكل موسع هذه المرة وكانت الأعين لا تتذوق طعم النوم وكانت الرؤوس لا تعرف طريق الراحة وكانت الأبدان تعمل كالآلة الحديثة التي لا تتوقف عن العمل، الكل يحاول المساعدة بشتى الطرق حتى لا تغرق السفينة بمن فيها في محيط الهجوم والأزمات والقضايا الصعبة.

استقرت الأسعار بعض الشئ بعد شد وجذب وغلاء استمر لفترة ليست بالقصيرة، هدأ الشعب قليلاً عقب سماعه لتلك الأخبار وهدأت ألسنة الهجوم وبراكين الغضب التي كانت على وشك الانفجار في وجه النظام بأكمله، تنفس الحزب الصعداء بعد انتشار الأنباء المبهجة فهم يعلمون جيداً أن بقائهم يوماً آخر في غرفة العمليات تلك قد يكلفهم كثيراً من وقتهم ومن صحتهم تلك التي فقدوا جزءً كبيراً منها بعد انضمامهم إلى الحياة السياسية الصعبة المليئة بالعقبات وبالأزمات التي لا تنتهي.

في الحقيقة أكثر المتضررين من انتهاء تلك الأزمة ومن استقرار الأحزاب ليست القنوات ولا تلك الأحزاب بل خبراء الاقتصاد الذين ظلوا لأيام يخرجون مع المذيعين ليتحدثوا عن الغلاء وعن تأثيره على الشعب وعلى المدى البعيد، لم يعد مرحب بهم وانتهى دورهم على الأقل في تلك الآونة في انتظار حدوث شئ ما يعيدهم إلى الأنظار مرة أخرى، أما المستفيد الأكبر فهو الرئيس الذي لربما فقد كيلوجرامات في تلك الأثناء ولم يكن ليستعيدها سوى بعد اغلاق ذلك الملف للأبد.

بعد نهاية هذا النفق المظلم خرج النظام بأقل الأضرار المتوقعة ولكنهُ فقد شيئاً مهماً للغاية، ذلك الشئ هو دعم المجموعة ودعم السيد "نزار" وهذا ما عكر صفو مكتب الرئيس الذي كان فرحاً بانتهاء تلك الأزمة على خير، لم تعد الاتصالات كما في البداية ولم تعد لهجة الود كما السابق وبدت الأجواء متوترة بين الرجل الأول للمجموعة وبين حاكم البلاد، الشرط الأساسي لعودة الأمور كما كانت هو رضاء الشعب عن حاكميه وهذا بات أمراً صعباً في ظل تلك المشكلات المتتالية.

حاول الرئيس مراراً وتكراراً الاتصال بالسيد "نزار" لعقد جلسة معه بشأن تلك الأحداث الأخيرة ولكن دون فائدة تذكر ويبدو أن الأمور وصلت إلى طريق مسدود تماماً بينهما، أعضاء الحزب الحاكم كانوا مندهشين من ردة فعل رئيسهم الذي كان مهتماً للغاية بإعادة العلاقات كما كانت مع المجموعة واعتبروا أن كل ما يحدث منه هو مضيعة للوقت وأن عليه التركيز على قضايا أكثر أهمية بدلاً من تلك الاتصالات التي لا قيمة لها على الإطلاق وقرروا الجلوس معه للحديث معهُ بهذا الصدد.

أعضاء الحزب قد كلفوا "يوسف" بالنيابة عنهم للحديث مع الرئيس عن ما يجول بخاطرهم وعما يدور داخل عقولهم، في البداية اندهش الرجل من قدومهم له واعتقد أن ثمة مشكلة جديدة قد حصلت وانتظر النبأ العاجل كي يزف إليه، في البداية كانوا صامتين فهم بسؤالهم قائلاً "ماذا حدث ؟ هل حدثت مشكلة جديدة وأنا لا أعلم ؟ هل هناك خلاف داخل الحزب ؟" صمت الجميع وبدأ "يوسف" في الإجابة قائلاً "لا سيدي الرئيس كل شئ على ما يرام" تلك الإجابة كانت كفيلة بتوقف ذلك العرق الذي كاد يُغرق مكتبه.

بدأ في التقاط أنفاسه قبل أن يتابع "يوسف" الحديث "المشكلة تكمن في ابتعادك عن الأمور المهمة للبلاد وتركيزك الشديد على إعادة قنوات الاتصال بيننا وبين المجموعة، أنت الرجل الأول ولا داعي لكسب ود أشخاص لا يعنينا سعادتهم بقدر ما يعنينا سعادة الشعب" رجع الرئيس إلى الخلف وقال "على ما يبدو بأنكم لم تفهمون شيئاً بعد" هكذا كانت إجابته قصيرة وبسيطة ولم يرد الحديث أكثر من ذلك وأنهى الاجتماع بنفسه وسط غضب الأعضاء وعلى رأسهم المتحدث باسمهم وهو "يوسف"

جلس وحيداً عقب خروج أعضاء حزبه وقال بصوت خافت "يبدو أن هؤلاء الصغار لا يعلمون كيف تدار الأمور وكأنهم في المدينة الفاضلة يريدون اقتلاع جذور الفساد، ليت الأمر كان بهذه السهولة التي يظنونها" ضحك عقب انتهاء تلك الكلمات في إشارة منه للسخرية مما طلبه أولئك الصغار في نظره ولم يلتفت لحديثهم وحاول ثانية دون توقف إعادة لهجة الود بينه وبين السيد "نزار" فهو يريد دعمه الكامل قبل الخوض في معارك أشد صعوبة من ذي قبل ولا تتحمل التخاذل قط.

السيد "نزار" بدوره لم يكن مهتماً بتلك الاتصالات فهو يعلم بأن هذا النظام سيقع في فخ جديد وقد لا ينهض منه وإن كان الحظ قد وقف معه مرة وأخرى فلن يظل يقف معه طوال فترة حكمه، كان يرى بأن خطط النظام تحتاج فترة كبيرة لتصبح حقيقة على أرض الواقع وكان على علم بأن طوائف هذا الشعب لن تتحمل فترات طويلة لتنتظر النهوض فهم انتظروا بما فيه الكفاية والآن حان وقت مكافئتهم وتحقيق أحلامهم بدلاً من الكلام المنمق الذي لا فائدة منه وبدلاً من تلك المؤتمرات التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

كل منهما قد فهم الأمور جيداً فرجل المجموعة يدرك بأن الوقوف بجانب النظام في تلك الظروف أمر مستعبد تماماً ورئيس البلاد يعلم بأن بقائه لفترة طويلة متعلق بمدى رضى السيد "نزار" ومجموعته عن سياسته في إدارة شئون هذا الشعب، لم يبح أحد منهم بتلك الحقائق وانتظروا اللحظة المناسبة للحديث مع الأعضاء بهذا الشأن، لم تكن هناك أدنى مشكلة بالنسبة لرئيسنا بعكس حاكم تلك البلد الذي يملك عديد المشكلات التي تتطلب منهُ إيجاد حلول سريعة .

حاول البعض منا داخل المجموعة فهم ما يدور بين الرئيس الحالي وبين السيد "نزار" وما سبب تخليه عنهُ في تلك الظروف الصعبة بعد أن كانت العلاقة بينهم تسير على نحو جيد تماماً حتى في أثناء الأزمات، توقف الدعم فجأة زرع الشك من جديد في نفوسنا وكنتُ ممن بسط الشك نفوذه عليهم، في البداية حاول التهرب من تلك الأسئلة قبل أن يجيب إجابة مبهمة وغير صريحة بالمرة وقال "مشاكل شخصية هي سبب توقف الدعم له" لم يقتنع غالبية الأعضاء بذلك الرد فهم يعلمون بأن الرئيس والسيد "نزار" لا تجمعهم علاقة من ذي قبل بعكس الرئيس السابق الذي كان صديقاً للرجل الأول للمجموعة.

الأمور باتت مبهمة للكل فهما درجة الخلاف التي تجعل السيد "نزار" يتوقف عن إصدار التعليمات بالخروج على الشاشات والوقوف بجانب الرئيس في محنته، وحتى أعضاء الحزب الحاكم لم يتفهموا موقف المجموعة ورئيسها خصوصاً وأن العلاقة بينهم بدأت بتكريم على الهواء مباشرة رغم غضب الشعب والأحزاب على هذه الفكرة الغريبة المجنونة، ماذا حدث كي ينسى مراسم الاحتفاء والاحتفال به ؟ هل أيقن بأن النظام الجديد لن يستمر في سدة الحكم وأراد الوقوف بجانب الشعب في هذه المرة ؟ تلك الأسئلة كانت مثار جدل بالنسبة لأعضاء حزبه الذين يريدون معرفة ما يدور خلف الكواليس.

لم يكتب لهذا النظام أن يعيش لفترة كبيرة من دون أزمات تؤرقُ تفكيره، وهذه المرة كانت الأمور متعلقة بتردي الأحوال الصحية في المستشفيات أكثر وأكثر ومن سوء حظ هذا الرئيس بأن كل تلك المشاكل متعلقة بالطبقة المتوسطة فما أدنى وتلك الطبقات قد سئمت تلك الأوضاع المعيشية التي لم تتحسن قط رغم تغير

النظام السابق الفاسد الذي لم يكن يلقى بالاً لهم على الإطلاق، كانوا يمنون النفس في قدوم وجوه جديدة تغير من حالة البؤس التي ظلوا عالقين فيها لسنوات وسنوات دون تغير يذكر.

من جديد أبرزت القنوات ردة فعل تلك الطبقة التي صرخت على الهواء مباشرة لتستغيث من تلك الوحوش التي تريد الفتك بأجسادهم المريضة الهزيلة، صدى أصواتهم كان صداحاً يوقظُ قلوباً قد ماتت منذ سنوات مضت، ومن جديد تساءلت إحدى المذيعات قائلة "وماذا بعد ؟ تغيرت الأوجه وتغير النظام ولكن الأمور كما هي فما الحل إذاً هل نغير هؤلاء المساكين ؟ هل نرحل من هذا الوطن ؟" تلك الكلمات المُوجعة أحدثت هزة كبيرة في البلاد وأثارت التساؤلات من جديد حول قدرة هذا النظام على إدارة شئون البلاد.

لم تقف الأمور عند هذا الحد بالطبع واستمرت القنوات في الهجوم على المسئولين عن تدهور الحالة الصحية للمواطن وحملتهم المسئولية كاملة ووجهت اللوم على الرئيس ونظامه الذي وعد بالكثير ولم ينفذ سوى القليل، حاولوا الوصول إلى رؤساء تلك المستشفيات وبالفعل أجروا عديد الاتصالات معهم لتوجيه تلك الأسئلة لهم وليتحدثوا بلسان الملايين العاجزين عن مواجهتهم وتوجيه أصابع الاتهام إليهم، بدورهم حملوا النظام المسئولية الكبرى عن سوء الأوضاع وقالوا بأنهم يفتقدون للدعم وبأنهم يبذلون قصارى جهدهم لعلاج المواطن.

عادت غرفة العمليات لتطل عليهم من جديد في محاولة منهم لإرضاء الطبقة التي تعاني من فشل الأوضاع الصحية، الرئيس لم يتوقف عن توجيه الانتقادات لوزير الصحة وطلب منه التفرغ الكامل لتفقد تلك المستشفيات بنفسه والاطمئنان على مدي تحسن حالة المرضى هناك ووعدهم بتوفير أماكن أكثر هدوءً وراحة لهم وتحسين تلك المباني التي قاربت على السقوط وبناء مستشفيات جديدة تتسع لهذا العدد الهائل من الشعب الذي يتطلع لمستوى علاج أفضل من ذي قبل.

نالت تلك الخطوات استحسان المرضى وعبروا عن سعادتهم لاهتمام الرئيس شخصياً بهم وبقضيتهم التي ظلوا يتمنون أن يُنظر لها في يوم في الأيام، وبرغم من ذلك فعاد الهجوم على النظام من جديد رغم جهوده في حل الأزمة وخرج الأطباء بدورهم ليتحدثوا عن مدى الإهمال الذين يتعرضون له وأنهم ضحية مثلهم كمثل هؤلاء الذين فقدوا جزءً من صحتهم، وأفرد الإعلام مساحة واسعة لهم حتى يتحدثوا عن كل تلك العراقيل التي تواجههم في أثناء عملهم وبأن لهم قضية تستحق النظر لها هي الأخرى.

هذه المرة لم يخرج وزير الصحة ليتفقد حالة الأطباء بل خرج الرئيس بنفسه ليرى الظروف الصعبة التي يمرون بها في عملهم وبأنهم يحملون على عاتقهم مسئولية كبيرة لا يشاركهم فيها ولا مسئول كبير ولا وزير ولا حتى رئيس، عديد القنوات غطت ذلك الحدث المهم وتناولت حديث حاكم البلاد في كافة المستشفيات المختلفة مع عديد الأطباء وطمأنهم بأنه سيوفر لهم الدعم الكامل لمواجهة تلك التحديات الصعبة وحتى يتمتع الطبيب المعالج والمريض بظروف صحية أفضل من تلك التي تقف عقبة في طريقهم.

في الاجتماع الأخير داخل مقر المجموعة تناولنا سوياً ما فعله الرئيس ووزيره من جهود من أجل توفير سبل الراحة الكاملة للطبيب وللمريض، ابتسم السيد "نزار" وقال "يبدو أن ذلك الطفل بدأ للتو في تعلم المشي

وتخطى العقبة الأولى وأتمنى بأن لا يسقط مجدداً" في إشارة منه بأن الرئيس عرف هذه المرة كيف تدار الأمور وذهب بنفسه لتفقد الأحوال، رغم ذلك كله أبى الحديث وفضل الصمت وعدم الوقوف بجانب النظام حتى تهدأ الأوضاع تماماً وحينها يختلف الكلام.

جلس الرئيس في مكتبه وأغلق الباب على نفسه وانتظر خروج أحد أعضاء المجموعة للوقوف معه ودعمه بعد تلك الأحداث وبعد ما فعله بنفسه ولكن انتظاره هذا كان مضيعة للوقت، كان غاضباً وبشدة بعد هذا الصمت الغريب وكسر هاتفه عقب توالي الاتصالات على السيد "نزار" ولكن لا استجابة، ماذا عساه أن يفعل حتى يجيب على اتصالاته تلك ويخرج أحداً من أعضائه الملعونين لكي ينهالوا بعبارات المدح على تعامل حاكم البلاد الحكيم مع أزمة الأطباء والمرضى.

أحس أعضاء الحزب الحاكم بالغضب الذي يسيطر على رئيسهم وكانوا يعلمون سبب هذا الغضب ولكنهُ لم يكن مفهوماً بالنسبة لهم فها هي القنوات قد هدأت قليلاً وها هم الأطباء سعيدون بتلك الزيارة إذاً فما سبب ردة الفعل تلك الغير مبررة ؟ وهل سيظل الرئيس هكذا في حالة من عدم الرضا عن أدائه بسبب تجاهل ذلك المدعو "نزار" لاتصالاته ؟ يعلمون تماماً بأن حالته تلك ستؤثر بالسلب على عطائه وستنقل مشاعر الإحباط للحزب ولهم وقد يتوقون عن العمل في أي وقت كان.

"يوسف" و"نضال" كانوا أشد الأعضاء غضباً من الرئيس وأرادوا الحديث معه على انفراد ولكنهم فشلوا فهو لا يريد الحديث حالياً فاكتفوا بالذهاب إلى إحدى الأماكن الهادئة وتبادلوا الحديث سوياً عساهم يخرجوا تلك الطاقة السلبية الموجودة بداخلهم وتمكنت منهم، لم يتحدثوا كثيراً عن حياتهم الشخصية وتناولوا مخاوفهم المستقبلية من إدارة الرئيس لمقاليد الحكم وتمنوا لو تفهم تلك المخاوف وتمنوا لو أوقف اهتمامه بذلك الرجل وبمجموعته التي لا تريد الخير لبلدهم الجميل والكبير.

لقد مر وقت طويل على آخر مرة جلس فيها "يوسف" مع زوجته وكانت متفهمة الظروف التي يمر بها زوجها ورفعت يدها للسماء داعية الله بأن ينهي كل ذلك الصخب من حولهم، تلك اللحظات هي التي يتمنى فيها الرجل عدم التحاقه بالعمل السياسي الذي لا يتوقف عن المفاجئات المتتالية وتمنى لو اكتفى بالعمل في مجال الرياضة لينقل ردة فعل جماهير الفريق هذا وجماهير الفريق ذاك ومتابعة أخبار الانتقالات بدلاً من متابعة أخبار الحوادث والأزمات، يا للهول شتان الفارق بين تلك الحياة وقرينتها.

هناك لحظة أخرى يتمنى فيها الرجل عدم الالتحاق بالعمل السياسي وهو إيقاظك في السادسة صباحاً على وقع خبر صادم ومفاجئ وتضطر بعدها للهرولة في منزلك يميناً ويساراً بحثاً عن الزي المناسب قبل الخروج والذهاب إلى عملك، تلك اللحظة كانت ارتفاع الأسعار مرة أخرى وارتفعت معها أسعار المواصلات،

"يوسف" أيقظ زوجته من جراء حركته التي سببت ضجيجاً في المكان ولم يكن الأمر يتحمل تأخره أكثر من هذا وعليه التواجد الآن في المقر رغم أن الشارع لا يسمعُ فيه إلا صوت العصافير.

الحادثة وقعت في آخر ساعات الليل ولم يعلم أحد بشأنها وبالطبع لن يستيقظ أحد من نومه لقراءة الصحيفة التي تنشر أخبار الغد ولذلك فالكل كان غارقُ في أحلامه وربما كوابيسه، دخل "يوسف" إلى مقر الحزب ووجد البعض منهم يحاول الاستيقاظ من نومه والبعض الآخر لازال يتعامل على أنه راقدُ في فراشه الجميل، لم يستوعب أحد بعد تلك الكارثة التي حلت عليهم وكأن القدر لا يمهلهم الوقت حتى يطل عليهم بأزمة جديدة تعصف بآمال الحزب والنظام في البقاء على رأس الحكم.

الجميع ظل يبحث عن الرئيس لمحاولة الجلوس معه وعقد اجتماع طارئ لمناقشة سبل الخروج من تلك الأزمة ولكنهُ لم يأت بعد وعلى ما يبدو أنهُ أكثر من تناول الطعام مساءً لذلك فلم يصحو إلى الآن، بعد محاولات عديدة استجاب الرجل للاتصالات ولم يمر وقت طويل حتى جاء إلى المقر ليعرف بالضبط ما حدث، ردة فعله لم تكن قوية كما توقعنا وملامح وجهه تشير إلى علمه مسبقاً بتلك القرارات المفاجئة وهذا ما أصاب الجميع بالدهشة، كيف يخفى تلك الأخبار المفجعة ؟ ولماذا لم يحاول الاتصال بنا ؟

"يوسف" أصابهُ الغضب الشديد وقرأ الكلمات الخفية على وجه الرئيس وقال وهو على وشك الانفجار "يبدو أنه فقد عقله تماماً" لم يكن أعضاء الحزب بحاجة إلى تفسير منهُ لإخفائه ذلك الخبر المهم فالطبع هم يعلمون بأنهُ لازال يحاولُ كسب دعم ذلك العجوز الذي حتماً سيودي بنا إلى التهلكة قريباً وسيشاهد من بعيد دون حراك يذكر، لقد أضاع وقتهُ مع هذا الرجل بينما الشعبُ بالخارج قاب قوسين أو أدنى من أن ينفجر في وجه النظام وحزبه ومعارضيه وكل من له علاقة بالسياسة.

المصائب لم تقف عند هذا الحد بالتأكيد وبمجرد فتح القنوات لمتابعة آخر التطورات إذ وجدنا أن الفئة الشبابية تدعو إلى تظاهرة للإطاحة بالرئيس ومن معه وأنهم لن ينتظروا أكثر من هذا وأنها الساعات الأخيرة لهذا النظام الفاشل، توقفت الحياة للحظة واحدة وحاول الأعضاء استيعاب ما سمعوه للتو ولم يصدقوا تلك الدعوة واعتقدوا أنها مجرد مزحة ليس أكثر وأن هؤلاء الشباب يهددون فقط ولا توجد نية لديهم في التظاهر لكنهم رغم اعتقادهم هذا ظلوا مذعورين بسبب تلك التصريحات.

لم يستغرق الأمر كثيراً حتى امتلأت المواقع الالكترونية بدعوات لكافة طوائف الشعب للخروج والهتاف ضد الرئيس وحزبه الذين أضاعوا البلاد أكثر وأكثر ولن يسمحوا بالانتظار ثانية وأنهم أخذوا الفرصة كاملة ولم يحققوا أية نجاح يذكر على أرض الواقع، حاول المركز الإعلامي في تلك اللحظات الخروج على الهواء للحديث عن تلك الأزمة وتداعياتها ولبث الطمأنينة في نفوس الشعب وإخبارهم بأن الحلول موجودة وأن تلك الفترة ستمر بكل ما تحمل من صعوبة شرط وقوف الشعب بجانب النظام.

الإعلام لم يقبل حديث المركز الإعلامي بعكس المرات السابقة وقال في رسالة صريحة بأنه قد فات وقت التحدث عن الغلاء وغيره والآن هو وقت التظاهرات ولا غيرها، للمرة الأولى تقريباً يتحدثُ فيها البعض عن فترة ما بعد النظام وبدوا يتعاملون بأنه غير موجود وكلها سويعات ويرحل للأبد دون عودة، في تلك الأثناء الهتافات خرجت من جديد تنادي برحيل الرئيس ومن معه في أسرع وقت وباتت الأمور صعبة جداً في ظل تلك التطورات السريعة التي تشهدُها البلاد.

لم يكن من الحزب الحاكم سوى حشد بعض المؤيدين لهُ حتى تتعادل الكفة وحينها تتأجل مسألة الرحيل إلى إشعار آخر وتكون الأزمة قد انتهت ويرحل المتظاهرين إلى بيوتهم وينتهي كل شئ، تم عمل ترتيبات لعقد مؤتمر يخرج فيه الرئيس لشعبه ليتحدث معهم عن تلك الأزمة وعن تلك التظاهرات، قبل البداية بلحظات قليلة حاول الاتصال بالسيد "نزار" للوقوف بجانبه في هذا المأزق الصعب ولكن الإجابة ظلت كما هي وبدأ يتصبب عرقاً أكثر فأكثر وكانت يده ترتعشُ من شدة الخوف والذعر.

لم يتحدث كثيراً في ذلك المؤتمر الذي خلى من أغلبية الصحفيين الذين يقفون في الشوارع لتغطية أحداث أخرى أكثر أهمية من ذلك الخطاب البائس، حاول كسب ود الشعب وقال بأن الأزمة لن تنتهي بتلك الطريقة وأنه يجب التحلي بالهدوء والصبر حتى تصبح بلادنا أفضل من ذي قبل وأنه لم يأخذ فرصته كاملة بعد والعمل لازال مستمراً من أجل النهوض بالحالة الاقتصادية والاجتماعية لهذا الشعب، عند تلك الكلمات المعتادة لكل رئيس يعلمُ نهايته انتهى حديثه وعادت القنوات لتنقل التظاهرات مرة ثانية.

هذه المرة كان دور الخبراء السياسيون للخروج على الهواء مباشرة للحديث عن رأيهم في تلك التظاهرات وفي خطاب الرئيس الأخير، السواد الأعظم منهم اتفق بأن الإفلاس هو صفة هذا النظام متمثلاً في هذا الخطاب وأن تلك الكلمات وإن دلت على شئ فهي تدل على معرفة مصيره الذي ينتظره وأنهُ يحاول فقط تأجيل القرار حتى يضمن لنفسه خروجاً جيداً يليقُ برجل سياسي مثلهُ، ظلت القنوات على هذا الحال تستضيف الخبير تلو الآخر وعلى يمين الشاشة صور مجمعة لتلك التظاهرات هُنا وهُناك.

مقر الحزب كان صامتاً للغاية، بقى أن يرتدوا الزي الأسود وتحمر أنفوهم وتذرف أعينهم الدموع حتى يظهر مشهداً كاملاً لوفاة أحدهم، لا أحد يتحدث ولا أحد يتحرك ولا أحد يريد تناول الطعام أو الشراب ولا أحد يملك القدرة على الاتصال بإحدى القنوات ليخبرها بأن الأمور جيدة وعلى ما يرام وأنهُ لا داعي لتلك الهتافات، لازالوا تحت تأثير الصدمة ولم يتصوروا بأن كل تلك الأحلام التي رسموها لأنفسهم قد تصبحُ سراباً في الساعات القادمة ويعودوا من حيث جاءوا وينتهي المطاف بهم في التردد على إحدى الحانات لنسيان ما حدث.

لم يقدر "يوسف" على البقاء أكثر وتحجج بزوجته ورحل وعينهُ تنطقُ بالحقيقة التي لا مفر منها، قبل الذهاب إليها خرج ليستنشق بعض الهواء لربما لا يجدهُ مرة ثانية، خرج ليستنشق هواء الديموقراطية وحرية الرأي قبل أن تعذبهُ حرارة الرأي الواحد، يدركُ جيداً بأن النهاية قد اقتربت وأن تلك المرة لن يفلت النظام والحزب

والأعضاء من العقاب، نسمات الهواء باتت قليلة ظل يبحث عنها في كل مكان ولكنها ولت بعيداً ولم يبق منها سوى القليل في انتظار السقوط حتى يهموا بالرحيل مع منهم سبقهم.

مقر المجموعة كان الأكثر انتعاشاً في تلك الآونة فلا خوف يهددنا ولا ذعر يقلقُنا بتاتاً، السيد "نزار" بدأ يتحدث عن فترة ما بعد النظام الحالي في إشارة واضحة وصريحة بأنه قد انتهى للأبد وأنهُ لن يقدر على مواجهة غضب الشعب، لكن ما قالهُ بعد ذلك كان أمراً جنونياً ولا يصدق، أمر أشبه بالخيال الذي يروى في قصص الأطفال ويعرض في الأفلام فقط ولا صلة له بالواقع، ابتسم وقال "سندخل الانتخابات القادمة وسنفوز بها وسيصبحُ خيرت هو الرئيس القادم لتلك البلاد وأكون أنا قد انهيتُ عملي في تلك المجموعة"

في البداية اعتقد الجميعُ بأنهُ يمزح كعادته في بداية الاجتماعات وتعالت الضحكات في الغرفة قبل أن يكمل قائلاً "لا أمزح وأتحدث معكم بكل جدية، خيرت لم يعد ذلك الشاب الذي أتى لنا هُنا وهو يرتدي بدلة تصلُ إلى صدره، خيرت بات رجلاً قوياً بإمكاننا الاعتماد عليه في المستقبل القريب" من جديد عاد الضحك ليعم المكان ولكن هذه المرة عقب سخريتهُ، حاولتُ فهم ما قالهُ للتو ولكن لم أقدر، لن أكذب وأقول بأني أملكُ طموحاً منذُ البداية في السيطرة على حكم البلاد ولكنها خُطوة مفاجئة تماماً.

لم أرد التفكير كثيراً بهذا الشأن وقلتُ في قرارة نفسي بأنهُ قد استبق الأحداث ومن الوارد بقاء النظام الحالي بمعجزة أخرى تكفلُ لهم الإدارة حتى حدوث أزمة أقوى، في الحقيقة كنتُ أخشى من البوح بما حدث في الاجتماع لزوجتي فهي قد تسقطُ مغشية عليها ولن تفيق سوى بعد شهر وبعدها لن تصدق حديثي إطلاقاً، تلك المرأة جُن جنونها لحظة المكالمة تلك فماذا لو أخبرتُها بأن سأترشح لرئاسة البلاد ؟ قررتُ تأجيل التحدث معها بهذا الخبر الجنوني وفضلتُ الانتظار حتى تحين اللحظة المناسبة.

وصل "يوسف" إلى منزله وزوجته ولم ينطق على الإطلاق وكانت تتابعُ الأخبار بنفسها وشعرت بما يجولُ في قلب زوجها وفضلت تركهُ يدخل الغرفة حتى يريحُ جسدهُ وأعصابه قليلاً ومن ثمَ يُعاود التفكير في تلك الأحداث العصيبة، بمجرد استلقائه على الفراش حتى كان مغلقاً عينهُ وذهب بعيداً إلى عالم الأحلام، كانت تراقبهُ عن قرب وتشاهدُ ما حل به وتمنت لو استطاعت إخراجه من تلك الحالة السيئة وأعادت لها تلك الابتسامة التي فقدها منذُ وقت طويل ولم تعد حتى الآن.

"نضال" شعرت بالتعب الشديد وقررت هي الأخرى الذهاب إلى منزلها حتى تخلد للنوم فهي مستيقظة مبكراً ولم تضع المياه ولا الطعام في فمها، تمنت لو أنها لم تعد من جديد للحزب، تمنت لو أنها بقيت في غرفتها وسط تلك اللوحات ووسط تلك الألوان الجميلة التي تفرحُ القلب، تمنت لو أنها رفضت دعوة "يوسف" للعودة إلى مزاولة العمل، وقبل ذلك كله تمنت لو أنها لم تعد من الأساس إلى البلاد وبقيت في حالة الروتين تلك بدلاً من الركض وراء الأمل دون فائدة تذكر.

التعب الذي أحل بها كاد يُنسيها مكان المنزل ولكنها تداركت خطئها سريعاً، والدها كان ينتظرها على أحر من الجمر لكونها خرجت في ساعة مبكرة دون تناول وجبة الإفطار، انتفض من مكانه فور سماعه صوت الباب وركض مسرعاً تجاهه وعندما وجد ابنته قام باحتضانها تلقائياً ونظر في وجهها وقال "تبدين متعبة ومنهكة لابد أنك لم تضعي شيئاً في فمك، كلها بضعة دقائق وسنتناول سوياً وجبة الغذاء" أشاحت بيده بعيداً ودخلت إلى غرفتها وألقت بنفسها على سريرها وتجاهلت كلمات أبيها.

لم يبق في المقر سوى بعض الأعضاء الذين فضلوا البقاء ومتابعة آخر الأخبار على الذهاب إلى المنزل والتمتع بقسط من الراحة، غرفة العمليات كانت صغيرة جداً هذه المرة واقتصرت على أشخاص لا يقدرون حتى على الحراك لعشرة أمتار من شدة التعب والإرهاق الشديدين، لم يقدروا على مواصلة الاستيقاظ ومنهم من غلبهُ النوم وهو جالسُ على كرسي ومنهم من قرر الدخول في إحدى غرف المكان للاستراحة قليلاً وبعدها يتابعون العمل من جديد ومن يعلم لربما يأت خبر سعيد يبدل الحال تماما.

يبدو أن لحظات النوم تلك كانت مفيدة جسدياً ونفسياً، عقبها جاءت بعض الأخبار السارة التي جعلتهم ينتفضون من مكانهم بمجرد سماعها على شاشات التلفاز، استقرار في الأسعار جاء بعد غلاء كاد يطيح بالنظام كاملاً وتعالت صيحات الفرح داخل أروقة المقر وبدأ الجميع في احتضان بعضه البعض، حاولوا الاتصال ببقية زملائهم الذين ذهبوا إلى منازلهم فاستجاب البعض وشاركهم الفرحة ولم يستجب الأخرين وكان على رأسهم "يوسف" و"نضال" اللذان لم يشعرا بأنفسهما من فرط المجهود الجسدي.

لم تنتظر زوجتهُ حتى يفيق من نومهُ ودخلت عليه وكادت تكسرُ الباب من شدة الفرح وهزت جسمهُ وقالت بصوت عال "لقد استقرت الأسعار لقد استقرت الأسعار" المسكين كان يحاولُ استيعاب الأمور من حوله وعيناهُ كانت محمرة ووجههُ على شكل علامة استفهام يريدُ إجابة واضحة لذلك العبث الذي حدث للتو بسبب "هند" المجنونة تلك، ثم تابعت "لا وقت للاستغراب فأعضاء الحزب اتصلوا بك كثيراً لينقلوا إليك تلك الأخبار المفرحة أيها البائس" بدأ يهز رأسهُ يميناً ويساراً حتى يتأكد من كونه مستيقظاً تماماً وليس في حالة حلم أو ما شابه.

جلس أمام التلفاز يتابع الأخبار وبالفعل كان حديث زوجتهُ صحيحاً وشعر ببعض الأمل يدبُ داخل جسده المتعب الهزيل، همَ بالاتصال بزميلته لكي يشاركها الفرحة التي أحس بها عقب سماعه لتلك الأنباء الجميلة العاجلة، كان يعتقدُ بأنها قد علمت مسبقاً ولكنهُ تفاجئ حينما ردت عليه والنومُ لم يكن قد أنهى وقته بعد وقالت "مرحباً يوسف أمهلني دقائق وبعدها سأعاود الاتصال بك" لم تعطه فرصة الرد وأغلقت الهاتف في وجهه وحاول الاتصال بها من جديد ولكنها لم تجب.

حينما استيقظت من نومها شعرت بأنها تحدثت مع أحد وهي نائمة ولكنها فشلت في معرفة الشخص وخرجت لتناول الغذاء مع والدها الذي لم يضع الطعام في فمه وانتظر ابنتهُ لتفيق من غيبوبتها تلك، أثناء جلوسهم مع بعضهم البعض أخبرها بأن هاتفها لم يتوقف عن إصدار الأصوات المزعجة وأنهُ حاول إغلاقه ولكنه لم

ينجح، ضحكت "نضال" عقب كلماته تلك لمعرفتها بأنهُ لا يجيد التعامل مع تلك الهواتف الحديثة وعادت إلى غرفتها لمعرفة السبب وراء كل تلك الاتصالات الكثيرة.

حدسها كان صحيحاً بالفعل واتضح أنها تحدثت مع "يوسف" وهي نائمة وعلى الفور اتصلت به لتعتذر منهُ عما بدر منها وقالت "يوسف أود الاعتذار لك فقد كنت متعبة تماماً ولا أعلم ماذا أقول" أدرك وقتها بأنها لم تعلم بعد بشأن ما حدث منذ ساعات وأمرها بالحضور على الفور إلى مقر الحزب وأغلق الهاتف كي يتسنى له الاحتفال مع زملائه، لم تفهم السبب وراء طلبه هذا ودخلت لتجهز نفسها وتذهب إلى المقر وهذه المرة تناولت طعامها كاملاً حتى لا يصيبها التعب والإرهاق مرة أخرى.

بمجرد دخولها إلى مقر الحزب وجدت الأعضاء ممسكين بيدها ويتراقصون معها ولكن تفهم السر وراء هذه السعادة المرسومة على وجوههم، اعتقدت أن حالة انعدام النوم تلك لربما سببت جنوناً مؤقتاً لديهم ولا يدرون ماذا يفعلون ولكنها اندهشت أكثر فور رؤيتها "يوسف" هو الآخر يتراقص معهم وحينها أدركت بأنهم قد عرفوا طريق الخمر من جراء ما حدث لهم في مجال السياسة، قبل أن تصرخ فيهم بصوت عال وتقول "مهلاً ما سبب هذا المرح كله ؟ هل تناولتم بعضاً من المشروبات المذهبة للعقل ؟ أم أنهُ قلة النوم ؟

لم يجيبوا عليها وتركوا شاشة التلفاز التي كانت تحملُ الخبر اليقين والسعيد لتجيب عليها وحينها عادت لتمسك بأيديهم وتبادلهم الرقص في مشهد عبثي بالكامل، الأجواء كانت جميلة للغاية واعتقدوا أنه لا حجة للمتظاهرين الآن في استكمال الهتافات وأنها بعضة ساعات حتى ينتهي هذا الصخب ويعود الجميع إلى ديارهم ويكمل النظام مسيرته كما كان، لكنهم تفاجئوا بأن الهتافات لازالت مستمرة وأن الأعداد التي رحلت لا تذكر وضئيلة جداً مقارنة بالأعداد المتبقية في الشوارع.

في غمضة عين انتهت حالة الصخب تلك وعاد الصمت ليسيطر على الأجواء من جديد ولم يُكتب لهم الاستمتاع لأكثر من ساعة، ما العمل الآن ؟ هل سيجبرون المتظاهرين على الرحيل رغماً عنهم ؟ هم الآن بين يدي الله وحده ولا يملكون سوى الدعاء عساهُ يخرجهم من تلك الظروف الصعبة، لكن هل الدعاء وحده سيكون كافيا ؟ لربما نعم ولربما لا ولكن الأكيد بأنهم فعلوا ما بوسعهم للحفاظ على هذا الحزب وللحفاظ على النظام وعلى رئيسهم والآن حان وقت خروجه ثانية للشعب حتى يهدأ من روعهم.

الرئيس قد فقد الأمل تماماً في كسب دعم السيد "نزار" ومجموعته وحتى بارقة الأمل تلك التي تمثلت في استقرار الأسعار سرعان ما اختفت فور علمه بإصرار التظاهرات على إقصائه ونظامه وأنهُ لا تراجع مهما حدث من أمور، يعلمُ جيداً أن استخدام القوة معهم سيكون غباءً ولن يكرره فهو يقدر هذا الشعب تماماً ويريد الحفاظ على صورته وسمعته دون أن تلطخ بالدماء، لكن لا مانع من استخدام لهجة أكثر قوة ليذكرهم بأنه لازال رئيساً للبلاد وأنه لم يكمل مدته بعد كحاكم لتلك البلاد.

لم يتبق في جعبته سوى ورقة وحيدة قد تمكنهُ من قلب الأمور تماماً وقد تقضى على آماله نهائياً في البقاء كرئيس للبلاد، جلس ينظر إلى الأرض ويفكر في تلك الكلمات التي سيخرج الآن ليقولها إلى جموع الشعب فهو يريد اختيارها بعناية شديدة، خرج ليخبرهم بأنهُ لازال رئيساً للبلاد وسيظل طالما هناك مدة تسمح له بالبقاء حتى تنتهي وأنهُ لن يرحل بسهولة عن هذا المنصب، ها هو قد استنفذ جميع الحلول وخرج خلف الكواليس ليتابع من مكتبه ردود الفعل عقب خطابه.

يبدو بأنه لم يكن موفقاً في هذا الخطاب الذي أغضب الحشود أكثر ونقلت عبر الشاشات استيائها من كلماته وأنها مصرة على موقفها من النظام، يبدو بأن ذلك الحديث أسرع من عملية رحيله المحتملة رغم تكراراه بأن مدته لن تنتهي فهو بالطبع لن يتحمل كل هذا الضغط الملقى على عاتقه هو وحزبه ونظامه، الأعضاء كانوا يتابعون حديثه عبر القنوات وأدرك الكثير منهم بأنهُ قد انتهى وأن تلك اللحظات تشبهُ سكرات الموت يُحاول فيها المتوفي الهروب بشتى الطرق ولكن لا طائل من المحاولة.

المجموعة بدورها كانت تتابع الخطاب بتركيز شديد لترى ردة فعل الرئيس عقب الكم الهائل من الضغوط الذي يتعرضُ لهُ في كل ساعة ودقيقة، السيد "نزار" ابتسم عقب انتهاء حديثه وقال "لا يصدق بأن وقته قد انتهى، يعلم ذلك تماماً ولكنهُ يحاول تكذيب نفسه" كنتُ واحداً من الأعضاء القلقين عقب خبر استقرار الأسعار فكنا نعلمُ بأن انتهاء التظاهرات قد يعني بالضرورة استمراره في الحكم وهذا ما يعدُ خطراً كبيراً خصوصاً بعد التعامل السئ الذي وجده من رئيسها.

أخيراً استجاب السيد "نزار" لاتصالات الرئيس المتتالية ولكن لن يحقق طموح المتمثل في كسب دعم المجموعة ولكنها كانت رسالة قصيرة يقول فيها "انتهى الوقت سيدي الرئيس ولا جدوى من البقاء فأنت تعلم وأنا أعلم بأن تلك الجموع لن ترحل سوى برحيلك" لم يصدق ما سمعهُ للتو فهو كان يمني نفسهُ بدعم قد يزيلُ ذلك الهم المُطبق على صدره ولكن تلك المكالمة ما زادته إلا هماً وحزناً وحينها علم بأن هذا الرجل لا يحبذ وجوده على رأس الحكم ولذلك التزم الصمت طوال الفترة الماضية بأكملها.

اجتمع الرئيس داخل المقر وبدا الحزن مسيطراً عليه للغاية ووجههُ كان منكسراً لا يريد أن يرفعهُ في وجه الأعضاء، كلها دقائق معدودة ويخرج السيد "نزار" ليذيع خبر رحيل النظام وهو لم يرد إخبارهم بنفسه، حزنه هذا كان دليل كبير على انتهاء الأمور للأبد وتبقى فقط الخبر الرسمي الذي لم يعرف أحد منهم وقته بالتحديد، فجأة خرجت إحدى القنوات لتقول في خبر عاجل بأن هناك كلمة لرئيس المجموعة للشعب وعلينا الانتقال لسماعها فوراً، اندهش الحزب بأكمله ولم ينظر حاكم البلاد تجاه التلفاز.

حدث ما كان متوقعاً وذاع السيد "نزار" خبر رحيل النظام وحينها تعالت صرخات الفرح داخل الشوارع التي كانت مكتظة بالمتظاهرين الذين سئموا هذا الوضع السئ، الأمر أشبه بسقوطك من الطابق الثالث أو ما شابه، لم ينطق أحد وانهارت الشابات الموجودة داخل المقر وحاول الشباب تصنع الثبات ولكنهم فشلوا ودخلوا هم

الآخرين في نوبة من البكاء، حلمُهم يُقتل أمامهم وكل تلك الأفكار التي ظلوا عاكفين عليها لمدة سنوات وسنوات في غمضة عين ذهبت أدراج الرياح.

الرئيس كان أول المغادرين للمقر فهو لم يتحمل ذلك الجو الحزين الكئيب وولى مسرعاً إلى مكتبه يجمعُ ما تبقى ويحزم أمتعته ويعود إلى دياره، البقية كانت موجودة تحاول استجماع قوتها التي ذهبت في البكاء وفي الصراخ، "يوسف" الوحيد تقريباً الذي لم يذرف الدموع وبدا بأنهُ أكثرهم ثباتاً وقوة ولكنهُ كان يحترقُ من الداخل ، يحترق على كذا هذا المجهود الذي ضاع سدى، يحترق على كم هذا الغباء الذي أصاب الشعب فعلى ما يبدو بأنهم لم يتعلموا الدرس جيداً ولا يعوا المصير الذي ينتظرهم في المستقبل.

"يوسف" كان المغادر الثاني عقب الرئيس وترك "نضال" والبقية في بركة من الدموع قد لا تتوقف حتى ساعة متأخرة من الليل، حاول اللحاق بما تبقى من نسمات الهواء التي كانت تعيدُ له الانتعاش، حاول اللحاق بها قبل قدوم تلك الموجات الحارة التي ستفتكُ برؤوسهم، لم ينجح في التمتع بذلك المخدر الجوي وذهب في طريقه إلى منزله حتى يرتدي الزي الرسمي للعاطلين عن العمل، أثناء العودة ظل يراقب كل كبيرة وصغيرة في تلك البلد ويتذكر تلك الفكرة وهذا المشروع ويمسكُ برأسه من شدة الحزن.

"نضال" لازالت تتعافى من آثار الصدمة الشديدة التي تعرضت لها، طلبت من والدها الحضور كي يرحلوا سوياً، كان يعلمُ بما حدث وحينما دخل المقر ركضت نحوه واحتضنته وانفجرت في البكاء من جديد وحاول أن يهدأ من روعها ولكنها لازالت مصرة على موقفها من الدموع، طلبت منه السفر بعيداً والعودة إلى حيث كانوا في أقرب فرصة فهي لا تود البقاء ثانية في تلك البلد المثيرة للجدل التي يفضلُ أهلُها الموجات الحارة على نسمات الهواء الجميلة والناعمة.

بقية الأعضاء خرجوا من المقر وهم بالكاد يستطيعون الوقوف على أقدامهم، وقفوا يلقون النظرة الأخيرة على هذا المكان الذي حمل اجتماعهم وفرحهم وحزنهم، وقفوا ينظرون إلى مقاعدهم التي تحملت عبئهم وهمهم، المشهد أقرب إلى توديع خطيبتك قبل أن تسافر بحثاً عن المال كي تتزوجها ولكنهُ أكثر حزناً وكآبة، انطفأ نور الحزب ومقره وبات المكان وحيداً هو الآخر لا صديق لهُ ولا حبيب، انطلق الجميع في طريقهم بحثاً عن سبيل للهروب من ذلك الكابوس المفزع المرعب.

كنتُ أراقبُ المشهد من نافذة مبنى المجموعة ولم أكد أصدقُ ما أراهُ، احتفالات كبرى هزت العاصمة وضواحيها، احتفالات لا تختلفُ كثيراً عن سابقتها حين رحل النظام السابق، هل يدركون ما هم مقبلون عليه ؟ هل يظنون أن تلك التظاهرات قد تحدثُ مرة أخرى، صدى صوتهم قد لا يعودُ من جديد، تلك الأيادي التي تتحركُ في الهواء الطلق قد تكتف بالعمل فقط وشراء بعضٍ من الخضروات لوجبة الغذاء، تلك الأيادي قد تكتف بأن تُوضع على أجساد زوجاتهم حتى يتنسى لهم الدخول في حالة من النشوة الجنسية.

كنتُ أرى بأم عيني تلك الطفلة التي قتلوها بمحض إرادتهم، كنت أراها تنزفُ الدماء وهم تستغيثُ بهم ولكن دون فائدة، أصوات الاحتفالات غطى على صوت الصرخات، تركوها هكذا دون مساعدة وكدتُ أفقدُ عقلي من ما شاهدت، الطفلة التي كانت وليدة الهتافات الأولى وخرجت إلى النور بعدها عانت الأمرين وطلبت النجدة في أكثر من مرة، الطفلة التي تُدعى "حرية" قد لقى حُتفها منذُ بضعة دقائق مع سبق الإصرار والترصد والآن فقط حان دورنا لنحكم، حان دور مجموعة الغربان.